

تزكية النفس في ضوء الكتاب والسنة

الشيخ
خالد بن سعود البليهد






بسم الله الرحمن الرحيم





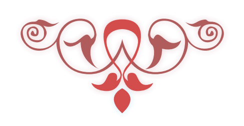


فهرس المحتويات

مقدمة ٥
تزكية النفس ٧
فضل التقوى ١٥
علاج قسوة القلب ٣٨
علاج الوسواس ٥١
علاج الحسد ٥٤
علاج الهم ٦١
مقام الإخلاص في الدين ٧٠
محبة الله تعالى ٨٠
خشية الله تعالى ٩٠
حمد الله تعالى ١٠١
شكر الله تعالى ١٠٥
فضيلة الصبر ١١٠
حسن الظن بالله تعالى ١٢٠
التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ ١٢٦
مراقبة الله في السر ١٣٤
خلق الورع ١٣٩
فضل الزهد في الدنيا ١٤٩
فوائد الاستغفار ١٥٥
التفكر في خلق الله ١٦١
فضل الخشوع في الصلاة ١٦٨
الحذر من خطر اللسان ١٧٦
حسن الخلق ١٨١
محاسن الأخلاق ومساوئها ١٨٧




علاج الغضب ١٩٦
خلق الرفق في حياة النبي ﷺ ٢٠٠
خلق التواضع ٢٠٧
الاعتدال في المشاعر ٢١٥
فضل الأخوة في الله ٢٢٠
كف الأذى عن الناس ٢٢٥
فضل التحفي بالمسلم ٢٢٩
كيف يحافظ المؤمن على دينه زمن الغربة ٢٣١
علاج الفتور ٢٣٧
حقيقة الولاية الشرعية ٢٤٢
منهج الصوفية في تزكية النفس ٢٤٧
المبادرة إلى التوبة ٢٥٦
خاتمة ٢٦٤
طريق السلامة في اتباع التوحيد والسنة ٢٦٤






بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد فهذه رسالة في بيان حقائق ومسائل وآداب ووسائل تزكية النفس على ضوء الكتاب والسنة اجتهدت في ذكر أهم الأمور في هذا الباب وتوخيت أن يكون المذكور موافقا لمذهب السلف الصالح جاريا على دلالة الكتاب والسنة مخالفا لطريقة أهل الرأي من المتصوفة والشيعة وغيرهم ممن بنى مذهبه على أصول كلامية وطرق محدثة وخرافات وأحاديث واهية.

وقد اعتنى المتقدمون من أئمة السلف الصالح بهذا الباب وكانوا غالبا يذكرونه في جوامعهم في باب الرقاق وباب الزهد كما فعل أصحاب الكتب الستة وأفرد بعضهم هذه الباب في مصنفات خاصة باسم الزهد والورع كما فعل ابن المبارك ووكيع وأحمد بن حنبل وهناد السري وأبو داود السجستاني وأبو حاتم الرازي وغيرهم ولم يكن هذا الاسم أعني تزكية النفس مشهورا في عرف السلف وقد ورد في القرآن الكريم في مواضع قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ). ﴿١٦٤ آل عمران﴾.

وكان علماء السنة ينصون على اهتمام السلف بتزكية النفس في أصول عقائدهم قال أبو بكر الإسماعيلي في اعتقاد أهل السنة: (يرون مجانبة البدعة والآثام والفخر والتكبر ويرون كف الأذى وترك الغيبة إلا لمن أظهر بدعة وهوى يدعو إليهما فالقول فيه ليس بغيبة عندهم). وقال أبو إسماعيل الصابوني في عقيدة السلف أهل الحديث: (يرون المسارعة إلى أداء الصلوات المكتوبات ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام وبصلة الأرحام وإفشاء السلام وإطعام الطعام...والبدار إلى فعل الخيرات أجمع ويجانبون أهل البدع والضلالات). وقال أبو القاسم الأصبهاني في الحجة في بيان المحجة: (ومن مذهب أهل السنة التورع في المأكل والمشارب والتحرز من الفواحش والقبائح ومجانبة أهل الأهواء والضلالة وهجرهم والمسابقة إلى فعل الخيرات والإمساك عن الشبهات).

وقد اعتنى الصوفية بهذا الباب وأكثروا الكلام فيه وأحدثوا فيه الخطرات والطرق البدعية حتى ظن بعض الجهال أن هذا العلم خاص بهم لا يعرف إلا عن طريقهم والفضل يعود إليهم ورمى أهل الحديث بالجفاء والتقصير وهذا الفهم خاطئ. وإنما نشأ هذا الفهم لجهل المتكلم بجهود أئمة السلف الصالح في باب تزكية النفس ولتقصير المتأخرين من أهل السنة في نشر كلام السلف. وأهل الرأي وإن كثر كلامهم فلا بركة فيه وكثير منه خال من الهداية لأنه مخالف للكتاب والسنة وآثار السلف. وكلام السلف وإن قل فهو كثير البركة والهداية لأنه مستقى من وحي النبوة.




والسلف الصالح يبنون مذهبهم في تزكية النفس على القرآن والسنة الصحيحة والآثار الثابتة الخالية من الشذوذ والنكارة وطريق التزكية عندهم: التوحيد واتباع السنة وأداء الفرائض والعناية بالذكر المشروع والإحسان إلى الخلق. وأما أهل التصوف المحدث فيبنون مذهبهم في باب التزكية والسلوك على الذوق والوجد والخلوة والأحاديث المنكرة والخرافات والمنامات وطريق التزكية عندهم: الشرك والبدعة والتفريط في الفرائض والرهبانية وتضييع حقوق الخلق فلا تغتر بكلامهم ولا تلتفت إلى حقائقهم ولا تفرح بكراماتهم.

وتزكية النفس بمفهومه الواسع يعني إصلاح الباطن وإصلاح الظاهر بتنقيتهما من كل خلق سيء وتحليتهما بكل خلق حسن وكل عمل حسن ومعروف رغب الشرع فيه داخل في هذا المعنى وكل عمل سيئ نهى الشرع عنه داخل في هذا المعنى وقد ذكرت في هذه الرسالة جملة منها حسب ما حضرني والمقصود التنبيه على أهم المعاني والتقصير وارد والله يعفو عني خطئي ويلهمني الصواب.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وينفع به المسلمين إنه جواد كريم.

كتبه

ابن بليهد النجدي الحنبلي

عفا الله عنه

١٤/ ٥/ ١٤٣٤هـ




تزكية النفس

خلق الله الخلق لعبادته وأعظم ما يعين المرء على عبادة الله والسير إليه تزكية النفس قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا). ﴿٩ الشمس﴾ قال قتادة: (قد أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وصالح الأعمال). وقال ابن قتيبة في: (وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا). ﴿١٠ الشمس﴾: (أي أخفاها بالفجور والمعصية فالفاجر دس نفسه أي قمعها وخباها وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها). وقال ابن تيمية: (والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم والتحذير من تدسيتها كقوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى). ﴿١٤ الأعلى﴾).

وزكاة النفس وانشراح الصدر وهداية القلب من توفيق الله وهدايته ونعمته وكمال فضله على المؤمن قال تعالى: (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا). ﴿٢١ النور﴾ ومن فقد التوفيق من الرحمن وجد الخذلان من الشيطان قال تعالى: (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا). ﴿٢٩ الفرقان﴾ قال ابن كثير: (يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه). فلا عاصم إلا من عصمه الله ولا موفق إلا من وفقه الله قال تعالى: (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ). ﴿٨٨ هود﴾ قال ابن رجب: (فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه ووفقه لطاعته وكان ذلك فضلا منه ورحمة وإذا أراد خذلان عبد وكله إلى نفسه وخلى بينه وبينها فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتبع هواه وكان أمره فرطا وكان ذلك عدلا منه). فينبغي للمؤمن أن يتعرض للتوفيق بالدعاء ولزوم الاستغفار والإنابة والإخلاص وأن يتبرأ من حوله وقوته ويستعيذ من الشيطان الرجيم.

وقد بعث الله نبيه ﷺ لتزكية عباده قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). ﴿٢ الجمعة﴾






والعبد محتاج إلى تزكية النفس للأسباب الآتية:

الأول: كثرة وقوعه في الآثام قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ). رواه الترمذي.

الثاني: تفريطه في حق الله وطاعته قال تعالى: (أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ).﴿٥٦ الزمر﴾

الثالث: ما يعرض له من أنواع الغفلة قال تعالى: (وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ).﴿٢٠٥ الأعراف﴾ وقال رسول الله ﷺ: (مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ تَعَالَى فِيهِ ولَم يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِم فِيهِ إلَّا كانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ). رواه الترمذي.

الرابع: اشتمال النفس على الأخلاق الذميمة والسجايا السيئة قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي). رواه أحمد.

الخامس: تسلط الشيطان عليه وداعي الهوى إلى العصيان قال تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا).﴿٨ فاطر﴾

السادس: ما يسمعه من تزويق الشياطين للشبهات وتزيينهم للشهوات قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا).﴿١١٢ الأنعام﴾

والعبد يعرض له في سيره إلى الله وعبادته معوقات تمنعه من السير إلى الله أو تنقص ثوابه وتجعل سيره بطيئا قال تعالى: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).﴿١٧ الأعراف﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ). رواه أحمد.

وإذا أهمل العبد تزكية نفسه من خصال الشر اجتمع الشر عليه كله وزاد حتى يهلكه ومات على شيئ من النفاق قال رسول الله ﷺ: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِهِ؛ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ). رواه مسلم. ومنهم من تمكن النفاق من قلبه فأحبط عمله وارتد عن دين الله.

والتزكية تعني تطهير النفس من الأدران والنقائص وتعني أيضا تنمية الخير فيها وزيادته قال ابن تيمية: (فكذلك النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها ولا يكون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر فإنه يدنس النفس ويدسيها). وحقيقة تزكية النفس هي الاستجابة الكاملة لأمر الله ورسوله والتخلص من اتباع الشيطان وهوى النفس وكلما تخلص العبد من رق الشيطان والنفس كان أزكى نفسا وأنقى دينا وأطوع لربه.




وتزكية النفس تتحقق بالتخلص من الأمور الآتية:

الأول: الشرك الأكبر والأصغر الجلي والخفي منه قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى). ﴿١٤ الأعلى﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من تزكى من الشرك). وقال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لا أَعْلَمُ). رواه احمد.

الثاني: البدع الاعتقادية والعملية قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ). ﴿١٥٩ الأنعام﴾ وقال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ). متفق عليه.

الثالث: المعاصي الظاهرة الكبائر منها والصغائر قال تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا). ﴿٣١ النساء﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ). رواه أحمد.

الرابع: خطايا القلوب وأمراضها قال تعالى: (إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ). ﴿٨٩ الشعراء﴾ وقال رسول الله ﷺ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). متفق عليه.

الخامس: مساوئ الأخلاق قال تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٣٤ آل عمران﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، قَالَ: تَقْوى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ). رواه الترمذي.

ومن أراد السلامة من الشرور فليحذر أصول الخطايا قال ابن القيم: (أصول الخطايا كلها ثلاث: الكبر: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره. والحرص: وهو الذي أخرج آدم من الجنة. والحسد: وهو الذي جرأ أحد ابني آدم على قتل أخيه. فمن وقي شر هذه الثلاث فقد وقي الشر فالكفر من الكبر والمعاصي من الحرص والبغي والظلم من الحسد).

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حريصين على تزكية نفوسهم بالذكر والدعاء والعبادة وتلاوة القرآن والصدقة وغيرها من شعب الإيمان وكانوا يملأون أوقاتهم الفاضلة بالتدبر في كتاب الله والتفكر في آيات الله ومناجاة الله وكانت دموعهم تنهمر ونفوسهم تخشع وقلوبهم تنكسر عند سماعهم المواعظ والزواجر لإخلاصهم وشدة تعلقهم بالله وطهارة قلوبهم من فتنة الدنيا وصدق إنابتهم قال ابن تيمية: (كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يجتمعون أحيانا يأمرون أحدهم يقرأ والباقون يستمعون. وكان عمر بن الخطاب يقول: يا أبا موسى ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون. وكان من الصحابة من يقول: اجلسوا بنا نؤمن ساعة).




والمسلم في هذا الزمن الذي يعج بالفتن وكثرة الشبهات والشهوات مفتقر إلى تزكية نفسه والمداومة عليها لا سيما إذا كان يقيم في بلد تشيع فيه المنكرات وتستباح فيه المحرمات ويغلب على الحياة البعد عن منهج الإسلام وتعاليمه ولا يستطيع المحافظة على دينه والثبات عليه إلا بتخصيص وقت يخلو فيه بربه ويناجيه ويتفقد قلبه ويرفع مستوى إيمانه ويحرص على مرافقة الصالحين وأهل العلم والفضل وغير ذلك مما يجلي بصيرته ويؤنس وحشته ويثبته على الحق.

ويجب التنبيه في هذا الباب على أن وسائل تزكية النفس توقيفية لا يشرع منها إلا ما وافق الدليل من الكتاب والسنة قال ابن تيمية: (مسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة). فقد يرد عن أفراد من السلف أعمال وأحوال في هذا الباب لا تثبت من جهة الدليل إما خطأ أو اجتهادا أو ضعفا في الطبيعة أو من باب فقه الأحوال. فليس كل ما يؤثر عن أفراد السلف يشرع التعبد به وإنما يعتبر ما كان على جادتهم موافقا للأصول الشرعية ولذلك اشتهر إنكار بعضهم على بعض في مسائل في هذا الباب.

وأعظم ما يتزكى به المؤمن ويطهر نفسه من الرذائل ويثبته على الحق التمسك بالتوحيد والحذر من الشرك ووسائله قال تعالى: (وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ). ﴿٧ فصلت﴾ قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله). وقال تعالى: (فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ). ﴿١٨ النازعات﴾ قال البغوي: (أي تتزكى وتتطهر من الشرك). وقال ابن تيمية: (ولهذا كان التوحيد والإيمان أعظم ما تزكو به النفس وكان الشرك أعظم ما يدسيها وتتزكى بالأعمال الصالحة والصدقة هذا كله مما ذكره السلف).






ووسائل تزكية النفس المشروعة:

١- مجالس العلم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.﴿٢٨ فاطر﴾ وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن الرجل ليخرج من منزلة وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء).

٢- الدعاء قال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.﴿١٠ الكهف﴾ وكان النبي ﷺ يدعو: (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا). رواه مسلم.

٣- تلاوة القرآن بتدبر وتفكر وخشوع فإنه يزكي النفس ويطهرها من كل دنس قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿٥٧ يونس﴾ قال ابن تيمية: (قراءة القرآن على الوجه المأمور به: تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء). ولا شيء أعظم تطهيرا للنفس وصلاحا للقلب وتثبيتا للإيمان وشفاء من الأمراض وجلاءا للهموم والأحزان من النظر في كتاب الله بتدبر وتفهم وتكرار معانيه والتأثر بمواعظه.

٤- المحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل لا سيما قيام الليل قال تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.﴿٣١ مريم﴾

٥- الصوم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.﴿١٨٣ البقرة﴾ وقال النبي ﷺ: (الصِّيَامُ جُنَّةٌ). متفق عليه.

٦- هجر المحرمات والحذر من الوسائل الموقعة بها قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.﴿٣٠ النور﴾ فمن أغلق منافذ الروح وحواسه عن الحرام طهرت نفسه وتنورت بصيرته وزاد إيمانه ورغب في العمل الصالح وذاق حلاوة العبادة.

٧- تذكر الموت والتفكر في المآل قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.﴿٨ الجمعة﴾ وقد أوصى رسولنا الكريم بتذكر الموت وزيارة القبور قال رسول الله ﷺ: (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ).يعني الموت. رواه الترمذي. وقال الحسن البصري: (المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس فلو حبست انقطعت




عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ رحم الله امرءا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية: (إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا). ﴿٨٤ مريم﴾ يعني: الأنفاس. آخر العدد: خروج النفس. آخر العدد: فراق الأهل. آخر العدد: دخولك في قبرك).

٨- قراءة سير الصالحين والتأمل في أحوال النساك والزهاد من أهل السنة الثقات.

٩- محاسبة النفس ومراقبتها قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). ﴿١٨ الحشر﴾ وقال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ). متفق عليه. ويروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). وقال الحسن البصري: (المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله عَزَّوَجَلَّ وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة). وقال مالك بن دينار: (رحم الله عبدا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائدا). وقال ابن قدامة: (ومعنى المحاسبة أن ينظر في رأس المال وفى الربح وفى الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان فرأس المال في دينه: الفرائض وربحه: النوافل والفضائل وخسرانه: المعاصي. فليحاسبها أولا على الفرائض وإن ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاقبتها ليستوفي منها ما فرط). ومحاسبة النفس لها أثر عظيم في تزكيتها قال ابن القيم: (زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح البتة إلا بمحاسبتها قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المؤمن لا تراه إلا قائما على نفسه ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة كذا؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ ما لي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا ونحو هذا من الكلام فمحاسبة النفس يطلع على عيوبها ونقائصه فيمكنه السعي في إصلاحها).

١٠- بذل الصدقة في سبيل الله قال تعالى: (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى). ﴿١٨ الليل﴾ قال السعدي: (بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والعيوب قاصدا به وجه الله تعالى). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلَا




تَتَّسِعُ). قال ابن تيمية: (فالبر والتقوى يبسط النفس ويشرح الصدر بحيث يجد الإنسان في نفسه اتساعا وبسطا عما كان عليه قبل ذلك فإنه لما اتسع بالبر والتقوى والإحسان بسطه اللّه وشرح صدره. والفجور والبخل يقمع النفس ويضعها ويهينها بحيث يجد البخيل في نفسه أنه ضيق).

١١- التوبة والاستغفار قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٣١ النور﴾

١٢- الإكثار من ذكر الله سائر الأحيان في الليل والنهار قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).﴿٤٢ الأحزاب﴾ وقال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ).﴿١٩١ آل عمران﴾ وفي صحيح مسلم قالت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ النبيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ علَى كُلِّ أحْيانِهِ). وكثرة الذكر له تأثير عجيب في تطهير النفس من فتنة الشهوات ووساوس الشيطان ويورث النفس السكينة والخشوع ويلين القلب ويشرح الصدر.

١٣- الزهد في الدنيا والتقلل منها عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بمَنْكِبِي، فَقالَ: كُنْ في الدُّنْيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ). وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك). رواه البخاري.

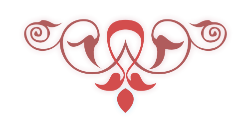
١٤- احترام حقوق الناس وعدم التعدي على مرافقهم قال تعالى: (وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ).﴿٢٨ النور﴾ قال بعض المهاجرين: (لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها: أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع فأرجع وأنا مغتبط لقوله (يعني هذه الآية). وقال سعيد بن جبير: (أي: لا تقفوا على أبواب الناس). فمن عظم حقوق الخلق وحفظ كرامتهم طاعة لله زكت نفسه ومن ضيع حقوق الخلق وانتهك كرامتهم خبثت نفسه.

وتزكية النفس وتطهيرها من الأدناس والأخلاق الرذيلة يحتاج إلى جهد ومصابرة من المسلم ولا يؤتيها الله إلا لمن بذل وسعه في سبيل الحصول عليها قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).﴿٦٩ العنكبوت﴾ والله هو الذي يزكي النفس حقيقة والعبد آخذ بأسباب التزكية فمن جاهد نفسه فقد زكاها بهذا الإعتبار.

أما مدح المرء نفسه وتزكيتها بالقول فقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه بقوله تعالى: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ).﴿٣٢ النجم﴾ وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه فمن قال إنه مؤمن فهو كافر ومن قال إنه عالم فهو جاهل ومن قال إنه في الجنة فهو في النار). وفي الصحيحين: (مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقالَ: وَيْحَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، مِرَارًا، إذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي




عَلَى اللهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَاكَ كَذَا وَكَذَا). وقد ذم الله اليهود حين زكوا أنفسهم فقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا). ﴿٤٩ النساء﴾ وقد أرشد النبي ﷺ إلى الإنكار على المداحين بطريقة مؤثرة فقال: (إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوْا فِي وُجُوْهِهِمْ التُّرَابَ). رواه مسلم. وقد توسع بعض الشعراء وغيرهم في المدح والثناء على الوجهاء في حضرتهم وهذا خلاف السنة ومدعاة للعجب والغرور للممدوح وباب من الشيطان والمشروع الإقتصاد في ذلك. أما المدح والثناء على الغائب فجائز إن كان مطابقا للواقع ولا مفسدة فيه. وقد رخص أهل العلم للمرء أن يمدح نفسه بما يعرف منها إذا دعت الحاجة لذلك وكان فيه مصلحة راجحة كأهليته لمنصب ديني فيه مصلحة عامة للمسلمين كما فعل يوسف عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما قال للملك: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ). ﴿٥٥ يوسف﴾






فضل التقوى

التقوى مفتاح كل خير في الدنيا والآخرة وعنوان السعادة والعبد أحوج ما يكون إلى لزوم التقوى في جميع أحواله ولا يصلح حاله ويتيسر أمره إلا بذلك والتارك للتقوى متعسر عليه أمره وفاقد للسعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة.

وقد أمر الله عباده بالتقوى فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ). ﴿١٠٢ آل عمران﴾ قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). ﴿١٨ الحشر﴾ وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ). ﴿١١٩ التوبة﴾ وقد أوصى الله بها الأولين والآخرين فقال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ). ﴿١٣١ النساء﴾

والله عَزَّوَجَلَّ هو أهل التقوى قال تعالى: (هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ). ﴿٥٦ المدثر﴾ قال ابن رجب: (فهو سبحانه أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عبادة حتى يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس).

وقد كان رسول الله ﷺ ملازما للتقوى من أخشى العباد لله وأتقاهم له وكان يسأل الله الثبات على التقوى وكان يوصى أصحابه بذلك في جميع المناسبات كما قال لأبى ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأَتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ). رواه الترمذي. وقال ﷺ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ). رواه أبو داود. وبين ﷺ أن أهل التقوى هم أفضل الناس وأكرمهم عند الله ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ: أَتْقَاهُمْ). وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ في سَبيلِ اللهِ بنَفْسِهِ ومَالِهِ، قالوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، ويَدَعُ النَّاسَ مِن شَرِّهِ). متفق عليه. وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ). رواه مسلم.

وحقيقة التقوى أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وعقابه وقاية تقيه منه بفعل أوامره واجتناب نواهيه قال ابن القيم: (حقيقتها العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا أمرا ونهيا فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالآمر وتصديقا بوعده ويترك ما نهى الله عنه إيمانا بالناهي وخوفا من وعيده). وقال ابن رجب: (وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه). فالتقوى اسم جامع




لطاعة الله والعمل بها فيما أمر به أو نهى عنه، فإذا انتهى المؤمن عما نهاه الله وعمل بما أمره الله فقد أطاع الله واتقاه. وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل). وقال عمر بن عبدالعزيز: (ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله وأداء ما افترض الله فمن رزق بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير). وقال طلق بن حبيب: (التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله).

والتقوى ثلاثة مراتب قال ابن القيم: (التقوى ثلاث مراتب: الأولى: حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات. الثانية: حميتها عن المكروهات. الثالثة: الحمية عن الفضول وعما لا يعنى).

وكان السلف الصالح يتقون بعض المباحات خشية الوقوع في المحرمات فيجعلون التقوى حائلا منيعا من الوقوع فيما حرم الله قال أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حجابا بينه وبين الحرام). وقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إني لأحب أن أدع بيني وبين الحرام سترة من الحلال لا أخرقها). وقال الحسن البصري: (ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام). وقال الثوري: (إنما سموا المتقين لأنهم اتقوا ما لا يتقى). ويروى في جامع الترمذي: (لا يَبْلُغُ العبدُ أن يكونَ من المتقينَ حتى يَدَعَ ما لا بأسَ بهِ، حَذَرًا ممَّا بهِ بأسٌ).






وللتقوى ثمرات عظيمة:

(١) تحقق معية الله قال تعالى: (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ).﴿١٢٨ النحل﴾

(٢) حصول محبة الله قال تعالى: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ). ﴿٤ التوبة﴾

(٣) دوام المحبة بين المتقين قال تعالى: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ). ﴿٦٧ الزخرف﴾

(٤) تيسير الأمور قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً).﴿٤ الطلاق﴾

(٥) الانتفاع بالقرآن قال تعالى: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ).﴿٢ البقرة﴾

(٦) الفلاح قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿١٨٩ البقرة﴾

(٧) الوقاية من الخوف والحزن قال تعالى: (فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ). ﴿٣٥ الأعراف﴾

(٨) قبول العمل قال تعالى: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).﴿٢٧ المائدة﴾

(٩) مقعد الصدق قال تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ). ﴿٥٥ القمر﴾

(١٠) الحفظ من كيد الأعداء قال تعالى: (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا). ﴿١٢٠ آل عمران﴾

(١١) غفران الذنوب قال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا).﴿٥ الطلاق﴾

(١٢) حصول الرزق قال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ). ﴿٣ الطلاق﴾

(١٣) الفرقان بين الحق والباطل قال تعالى: (إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا).﴿٢٩ الأنفال﴾

(١٤) الحفظ من وساوس الشيطان قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ).﴿٢٠١ الأعراف﴾

(١٥) النجاة من النار قال تعالى: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا).﴿٧٢ مريم﴾

(١٦) دخول الجنة قال تعالى: (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا).﴿٦٣ مريم﴾




والتقوى خير زاد يتزود به المؤمن في الدنيا ليوصله إلى نعيم الآخرة قال تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى). ﴿١٩٧ البقرة﴾ قال السعدي: (وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار وهو الموصل لأكمل لذة وأجل نعيم دائم أبدا. ومن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر وممنوع من الوصول إلى دار المتقين. فهذا مدح للتقوى).

ومن استعمل التقوى في السراء فرج الله عنه في الضراء قال ابن رجب: (فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء).



وللتقوى طرق إذا سلكها العبد أوصلته إليها:

١- أداء الفرائض قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). ﴿٢١ البقرة﴾

٢- مجاهدة النفس قال تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ). ﴿١٧ محمد﴾

٣- الدعاء قال تعالى: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا). ﴿٧٤ الفرقان﴾ وكان رسول الله ﷺ يدعو: (اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا). رواه مسلم.

٤- اتباع منهج النبي ﷺ وأصحابه قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). ﴿١٥٣ الأنعام﴾

٥- تلاوة القران قال تعالى: (وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا). ﴿١١٣ طه﴾






وثمة أمور لا تنافي التقوى:

(١) مقارفة الصغائر مع عدم الإصرار عليها قال رسول الله ﷺ: (كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ). رواه الترمذي.

(٢) الوقوع في الكبائر أحيانا مع التوبة والإقلاع عنها قال تعالى في وصف المتقين: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ).﴿١٣٥ آل عمران﴾

(٣) الاستمتاع بالمباحات وملذات الدنيا قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ).﴿١٧٢ البقرة﴾

والحاصل أن من لزم الطاعة وغلب عليه امتثال الأوامر واجتناب النواهي وكان ظاهره السلامة من الآثام دخل في عداد أهل التقوى واتصف بها ولو قارف صغيره أو ألم بكبيرة أو توسع في مباح كما دل الشرع على ذلك ولا يكاد أحد يسلم من هذا حتى الصديقين والصالحين.

والفرق بين المتقي وغير المتقي أن المتقي وقاف عند حدود الله رجاع للحق إذا حصل منه تقصير سريع الإنابة من الغي إلى الرشد لا يغتر بحلم الله ولا يأمن مكره وهكذا كان حال السلف قال تعالى: (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ).﴿٣٢ ق﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: (الأواب: التواب الذي يئوب إلى طاعة الله ويرجع إليها). أما الفاجر فعاكف على شهوته ملازم للغفلة بعيد عن التوبة لا يقيم لحدود الله شأنا ولا يرفع بالموعظة رأسا عبد للدنيا كأنه مخلد فيها.



وموانع التقوى أربعة:

الأول: الجهل: فمن جهل حدود الله وقع فيها وأسرف على نفسه بالمعاصي.

الثاني: اتباع الهوى: فمن اتبع هواه تجرأ على محارم الله واستخف بشرعه.

الثالث: حب الدنيا: فمن أسرف في حب الدنيا نسي هم الآخرة ولم يعمل لها.

الرابع: طول الأمل: فمن طال أمله أمن العذاب وساء عمله ورحل الخوف عن قلبه.

ومن علامة الخذلان للعبد أن يؤمر بتقوى الله فلا ينتصح وتأخذه العزة بالإثم ويعرض عن اتباع الحق قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ).﴿٢٠٦ البقرة﴾ وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كفى بالمرء إثما أن يقال له: اتق الله فيغضب ويقول: عليك نفسك).




وقد أمر الشارع باتقاء أمور عظيمة:

١ – اتقاء النار قال النبي ﷺ: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ). متفق عليه.

٢– اتقاء الشبهات قال النبي ﷺ: (فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَنْ وقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وقَعَ فِي الْحَرَامِ). متفق عليه.

٣– اتقاء الرياء قال النبي ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ،فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ). رواه أحمد.

٤– اتقاء الظلم قال النبي ﷺ: (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يومَ القِيامَةِ). رواه مسلم.

٥– اتقاء دعوة المظلوم قال النبي ﷺ: (وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ). متفق عليه.

٦– اتقاء الشح قال النبي ﷺ: (واتَّقُوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَن كانَ قَبْلَكُمْ). رواه مسلم.

٧– اتقاء الدنيا والنساء قال النبي ﷺ: (فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ). رواه مسلم.

٨– اتقاء شر اللسان قال النبي ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ. قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ. قَالَ: فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا). رواه الترمذي.

وليس في قول النبي ﷺ: (التَّقْوَى هاهُنا ويُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ). حجة لمن زعم أن من عرف الله بقلبه كان من أهل التقوى ولو كان مفرطا في الواجبات مسرفا في المحرمات. وإنما مراده ﷺ أن أصل التقوى يكون في القلب وباقي الأعضاء تابعة للقلب فإن صلح القلب صلحت الجوارح وإن فسد القلب فسدت الجوارح ولهذا قال ﷺ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). متفق عليه. فمن ادعى التقوى في إيمانه وهو مطلق جوارحه في المعاصي فهو كاذب في دعواه مخالف للشرع مخادع لنفسه ولو كان صادقا لاستعمل جوارحه في طاعة الله ومرضاته.






ومما يعين المؤمن على تحصيل التقوى:

أولا: إذا تعرف المؤمن على أسماء الله الحسنى وصفاته العلا وتصور عظمته وإحاطة علمه وعظيم سلطانه وكمال قهره وملكوته أورثه ذلك الخشية والإنابة ولزوم الطاعة قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ). ﴿٦٧ الزمر﴾ قال ابن القيم: (كلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه كما قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). ﴿٢٨ فاطر﴾أي العلماء به وقال النبي ﷺ: (أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خشية)).

ثانيا: إذا تفكر المؤمن في عذاب الله وعقابه وآثار سخطه وغضبه ونقمته وتعرف على تفاصيل ذلك في الكتاب والسنة أورث عنده مقام المراقبة والمشاهدة والمحاسبة قال تعالى: (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ). ﴿٣٠ آل عمران﴾ وقال تعالى: كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ).﴿١٨ المعارج﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَومَ القِيامَةِ لَرَجُلٌ، تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْها دِماغُهُ). رواه البخاري.

ثالثا: إذا تفكر المؤمن في نعيم أهل التقوى وما أعده الله لهم من المنازل والسرور والحبور والقصور والمطاعم والملذات والخلود أقبل على الطاعة وعظم عنده الرجاء والطمع في رحمة الله وأحسن الظن بربه قال تعالى: (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ). ﴿٥٨ يس﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ قالَ أبو هُرَيْرَةَ: اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهمْ مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ) ﴿١٧ السجدة﴾). متفق عليه.

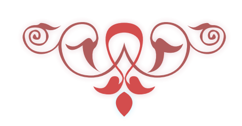
رابعا: إذا نظر المؤمن في سير المتقين وحرص على صحبة الصالحين ولازم أهل التقوى تأثر بصلاحهم واهتدى إلى طريقتهم وحبب إليه الإيمان والعمل الصالح قال تعالى: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ). ﴿٩٠ الأنعام﴾ وقال رسول الله ﷺ: (المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ). رواه أحمد. وكان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: (كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه). وقال أحمد ابن حنبل: سمعت سفيان بن عيينة يقول: (تنزل الرحمة عند ذكر الصالحين).




خامسا: أن يحبس المؤمن نفسه على فعل الخيرات ويجاهدها على ترك السيئات فإن النفس إذا قصرت على الخير وفطمت عن الشر شق ذلك عليها أول الأمر ثم ألفته بعد ذلك وصار عادة لها.

سادسا: أن يفر المؤمن من أصحاب السوء وأهل المجون ويبتعد عن بيئة الفساد وأماكن الفتنة فإن المرء يتأثر غالبا بالشر ويألف المعصية والنفس داعية للعصيان واتباع الشهوات محبب لها.

وقد كان السلف الصالح يوصي بعضهم بعضا بتقوى الله في السر والعلن قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موصيا ولده عبد الله: (فإني أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه من اتقاه وقاه ومن أقرضه جزاه ومن شكره زاده واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك). واستعمل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا على سرية فقال له: (أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا بد لك من لقاه ولا منتهى لك دونه وهو يملك الدنيا والآخرة). وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ التي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل جعلنا الله وإياك من المتقين). وكتب أحد السلف إلى أخيه موصيا له: (أوصيك وأنفسنا بالتقوى فإنها خير زاد الآخرة والأولى واجعلها إلى كل خير سبيلك ومن كل شر مهربك فقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ لأهلها بالنجاة مما يحذرون والرزق من حيث لا يحتسبون).






أسباب زيادة الإيمان ونقصانه

لا شك أن قضية ضعف الإيمان من القضايا المهمة التي تقلق المؤمنين ويشعر المؤمن أحيانا حينما يتأمل في هذا الموضوع بنوع من الألم ونوع من الأسى.

وهناك دواعي لبيان هذا الموضوع الخطير الذي له آثار عظيمة على الفرد والمجتمع: فكثير من الناس يشكو قسوة قلبه. وكثرة المعاصي والمنكرات المتفشية في المجتمع. وقلة الخشوع والتذوق في العبادات. وغلبة الحرص والشح في النفوس على الأموال. وكثرة أمراض القلوب التي يبتلى بها المؤمن. واليأس والقنوط والحزن من الظروف المعيشية والمصائب. والأنانية والغرور والأثرة والانتصار للنفس لدى بعض المسلمين. وانتشار التعصب القبلي والعرقي وكذلك البلدي والمذهبي في كثير من طوائف المسلمين.

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على حقيقة إيمانية وهي أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي والإيمان يتفاضل في المؤمن والناس يتفاضلون في الإيمان قال ابن القيم: (فإنه بإجماع السلف يزيد (يعني الإيمان) بالطاعة وينقص بالمعصية). وقد دل على ذلك الكتاب في قوله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ).﴿١٢٤ التوبة﴾ وقد دلت السنة أيضا عليه في جملة من الأحاديث الصحيحة منها قول النبي ﷺ: (الإيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ). متفق عليه. وقد وصف النبي ﷺ المرأة بنقصان الدين قال رسول الله ﷺ: (وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ). رواه مسلم. وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: (هلموا نزدد إيمانا فيذكرون الله عَزَّوَجَلَّ). وقال الإمام أحمد: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص إذا عملت الخير زاد وإذا ضيعت نقص). والأدلة من الكتاب والسنة على هذه الحقيقة كثيرة ومع ذلك فإن ما دل عليه الشرع مطابق للواقع ومما يستأنس به حسا أن المؤمن إذا عمل طاعة واشتغل بذكر وأنفق صدقة أو غير ذلك من الصالحات شعر ذلك اليوم بلذة نفسية وانشراح في الصدر ولا ينكر هذا الأمر إلا مكابر.

وقد دلت النصوص الشرعية على أن الإيمان له لذة وحلاوة يجدها المؤمن في قلبه وروحه يأنس بها ويستروح بها ويتلذذ بها ويسكن إليها قال رسول الله ﷺ: (ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ حَلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ). متفق عليه. وفي صحيح مسلم قال النبي ﷺ: (ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسولًا). وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى




في قولـه تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِـهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّـا يَجْمَعُونَ). ﴿٥٨ يونس﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فضله الإسـلام ورحمته القرآن). وقال الحسـن البصري: (تفقدوا الحلاوة في ثلاثـة أشـياء في الصلاة وفي الذكـر وفي قراءة القرآن فإن وجدتم فبها ونعمـت وإلا فاعلموا أن الباب مغلـق). وهذه اللذة العجيبـة لا تعدلها لذة في الدنيا ولا يجدها أرباب الأموال والقصور وغيرها من متاع الدنيا الزائل لأنها لذة ربانية ناشئة عن نور الإيمان متصلة بأشرف محبوب هو الله وأشرف نعيم وهـو رؤيـة الله ودار كرامته. وهذه اللذة أصلها في القلب وتظهر جليا في الوجه والجوارح فتزيده بهاء وهيبـة ونـورا وحلية كمـا أن المعصية والغفلة تظهر علـى المحيا والوجه بالظلمة والذلة والتعاسـة قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إن للحسـنة ضياء في الوجه ونورا في القلب وسـعة في الرزق وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق وإن للسـيئة سـوادا في الوجه وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ونقصا في الرزق وبغضة في قلوب الخلق). وقال الحسن البصري: (وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه).

وقـد دلت النصوص الشـرعية على أن المؤمن مهما كمل إيمانـه فقد يعرض له ضعف في إيمانه ونزول في مسـتوى الإيمان بسـبب ذنب يلم به أو غفلة تحصل له أو دنيا يفتتن بها أو مخالطة الأهل والعيـال أو مصاحبتـه لأهل الدنيا فيما لا بد منه قـال الله تعالى في وصف المؤمنيـن الكُمَّل: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ). ﴿٣٢ النجم﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا الاستثناء على وجهين وكلاهما صحيح المعنى:

الوجـه الأول: أن يلـم بالكبيرة مرة أو مرتين ثم يتوب منها ولا يـداوم على فعلها قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب).

الوجـه الثاني: المقصـود باللمم في الآية ارتكاب صغائر الذنوب قال ابن لبابة الطائفي: (سـألت أبـا هريـرة عن قول الله: (إِلَّا اللَّمَمَ) قال: القبلة والغمزة والنظرة والمباشـرة فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا).

والله قضى في سـابق علمه وقـوع الذنوب من عباده لتظهر توبته وأثر رحمته ففي صحيح مسـلم عـن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِـي بِيَدِهِ لو لَمْ تُذْنِبُـوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لهمْ). يعني ما دمتم على الاستغفار والتوبة. فهذا يدل على أن المؤمن قد يعرض له ضعف الإيمان ولا ضير في هذا على المؤمن مادام أنه سريع التوبة والإقلاع من الذنب ولـم يغلـب على أحواله بـل كان الغالب عليه زيادة الإيمان والاسـتكثار مـن الصالحات بل تنقلب




المعصية في حقه إلى حسنة ورفعة في الدرجات إذا صدق في توبته قيل للحسن البصري: (ألا يستحي أحدنا مـن ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه فلا تملوا من الاستغفار). وإنما المذموم شرعا أن تغلب عليه السيئات والتهاون في القيام بحق الله وحقوق الخلق حتى يكون مقصرا فاسقا هاتكا لستر الله مستخفا بعذاب الله.

والحاصل أن المؤمن له حالتان:

الحالـة الأولى: أن يكون كثير الأوبة والتوبة والندم وأن يغلب عليه العمل الصالح مع وقوعه في شيء من الذنوب وهذه الحال أكمل.

الحالة الثانية: أن يكون مسرفا على نفسه بالذنوب والسيئات مغترا مغرورا بالأماني والعياذ بالله متكلا على رحمة الله ورجائه وهذه هي أسوء الحالتين.






وأسباب ضعف الإيمان:

١- الجهل في الدين من أعظم أسباب ضعف الإيمان لأن الجاهل زاهد في فضل الطاعات مستخف بالشعائر لا يعرف قدر الحسنات مقصر في التعرف على أسماء الله وصفاته معرض عن العمل بأسباب زيادة الإيمان متساهل في الخوض في الشبهات والحذر من المحرمات. والجهل يسبب ضعف البصيرة في الدين ويوقع صاحبه في الشرك والبدع والخرافات والعلم بالله وشرعه سبب في زيادة الإيمان وقوة البصيرة وحصول الخشية واتباع السنة وتعظيم شعائر الله قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ).﴿١٩ محمد﴾ ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: (عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد).

٢- غلبة الهوى وطول الأمل وغلبة الهوى أن يغلب على النفس الميل إلى الشهوات وطول الأمل حب الدنيا ورجاء الخلود فيها قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة).

٣- مقارفة الكبائر يذهب كمال الإيمان ويضعفه ولا يذهب بأصله وهذا متفق عليه عند أهل السنة قال تعالى عن القاتل: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ).﴿١٧٨ البقرة﴾ فأثبت له أخوة الإيمان مع كونه قاتلا وقال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ). متفق عليه. وهذا بخلاف المرجئة الذين يرون أن المعاصي لا تضعف الإيمان والخوارج الذين يرون أن المعاصي تبطل الإيمان من أصله.

٤- كثرة تعاطي المباحات فالانغماس في الملذات ككثرة النوم وكثرة الأكل والشرب وكثرة الاستمتاع وكثرة اللهو وكثرة الضحك والاشتغال بالأمور التافهة تضعف الإيمان وتقسي القلب قال رسول الله ﷺ: (مَا ملأَ آدميٌّ وِعَاءً شَرّاً مِنْ بَطنِه، بِحسْبِ ابنِ آدمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبُهُ، فإنْ كَانَ لا مَحالَةَ، فَثلُثٌ لطَعَامِهِ، وثُلُثٌ لِشرابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ). رواه الترمذي. وقال ابن القيم: (قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل والنوم والكلام والمخالطة وكما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ).

٥- التفريط في الفرائض والواجبات فإن ذلك يقسي القلب ويضعف الإيمان ويجعل القلب سكنا للشيطان.




٦- أكل المال الحرام والتساهل في الشبهات والفتنة بالدنيا والولع بها قال رسول الله ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ). رواه البخاري. فسمى النبي ﷺ من استولت الدنيا على قلبه عبدا لها.

٧- الإكثار من الخلطة لكل من هب ودب فبعض الناس يحمله طبعه وحبه لكثرة الاجتماع على كثرة الأصحاب وشهود المجالس على الدوام مما لا يجعل له وقتا لإصلاح فساد قلبه والسمو بإيمانه وتزكية نفسه قال ابن القيم: (إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت من عداوة وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة).

٨- صحبة السفهاء ومخالطة الفجار من المؤثرين الدنيا على الآخرة فإن صحبتهم تمرض القلب وتوهن الإيمان قال تعالى: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا). ﴿٢٨ الكهف﴾

٩- الذهاب إلى أماكن المعصية والإقامة في البيئة الفاسدة والرضا بذلك وكثرة مشاهدة المنكرات يورث ضعف الإيمان وذهاب الغيرة وحب الفساد وأهله كما دل عليه حديث توبة الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا وفيه: (اخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، فَاعْبُدْ رَبَّكَ فِيهَا). رواه ابن ماجه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا). وفي المقابل الإقامة في البلد الصالح ورؤية كتاب الله ورؤية الصالحين ورؤية الكعبة ورؤية المساجد ورؤية مشاهد الإيمان تزيد في الإيمان وتقوي الغيرة الشرعية وتبعث على الإصلاح وتحث على العمل الصالح.

وكل ما ذمه الله أو حذر منه ونهى الخلق عن إتيانه وكذلك ما نهى عنه رسوله الكريم ﷺ فهو مسبب لضعف الإيمان وذهاب نوره في قلب المؤمن.






وأسباب زيادة الإيمان كثيرة من أهمها:

١- التعرف على الله تعالى بأسمائه وصفاته والتفكر فيها فإن ذلك يقوي الإيمان فإذا تعرف المسلم على أسماء الله الحسنى وصفاته العلى وأفعاله الحسنة وتمعن في آلاء الله ونعمه على العباد والبلاد قال تعالى: (وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا).﴿٣٤ ابراهيم﴾ وإذا تعرف المؤمن على ذلك زاد الإيمان في قلبه و عظم الرب في قلبه.

٢- طلب العلم النافع وشهود مجالس العلماء فإنه سبيل الخشية والخوف من الله ويحصل به زيادة الإيمان قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).﴿٢٨ فاطر﴾

٣- الخلوة مع الله تعالى ومعالجة القلب وإعماره بأعمال القلوب الصالحة من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء والتذلل واليقين من أعظم ما يزيد في الإيمان ويداوي القلب ويطهره من الأمراض والعلل ويقوي صلة العبد بربه ويثبته على الحق ويهون عليه المصائب ولذلك شرع الاعتكاف في المساجد وقد كان النبي ﷺ يواظب على سنة الاعتكاف في رمضان في العشر الأواخر كل عام كما في الصحيحين: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضانَ). وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلً).﴿٨ المزمل﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى بعبادته واقطع قلبك عن الخلائق. وقد ورد فضل عظيم للخلوة مع الله قال تعالى: (مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ).﴿٣٣ ق﴾ وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ) وذكر منهم: (ورَجُلٌ ذَكَرَ الله خالِيًا فَفاضَتْ عَيْناهُ). وقال مسلم بن يسار: (**ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ**). **ومن هربت نفسه من الخلوة بالله إلى الجلوة بالخلق وزهد في الأنس بالله ورضي بالأنس بالخلق فهو مريض شارد من الدواء النافع** قال ابن القيم: (ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس بالله إلى الأنس بالخلق ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار فاعلم أنك لا تصلح له).

٤- دعاء الله تعالى وسؤاله زيادة الإيمان والثبات عليه قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ). رواه الحاكم.

٥- تلاوة القرآن والتدبر فيه وسماعه ممن يحسن تلاوته فإنه نور في القلب يورث الطمأنينة والخشوع مما يكون سببا في زيادة الإيمان قال تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا).﴿٢ الأنفال﴾

٦- الإكثار من ذكر الله من التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد والصلاة على النبي ﷺ قال تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).﴿٢٨ الرعد﴾ قال ابن رجب: (فإن من زاد ذكره لله وتلاوته لكتابه زاد إيمانه ومن ترك الذكر الواجب بلسانه نقص إيمانه).




٧- قيام الليل إذا هدأت العيون وسكنت النفوس فله أثر كبير في حصول السكينة والتلذذ والتدبر وصفاء الروح وزيادة الإيمان قال تعالى: (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلا).﴿٦ المزمل﴾ قال ثابت البناني: (كابدت قيام الليل عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة أخرى).

٨- الصوم من أعظم العبادات التي تزيد الإيمان لأنه يقطع تأثير الشهوات والوساوس ولا يجعل للشيطان سبيلا على المؤمن مما ينقي القلب ويطهر الجوارح ويجلب الخشوع ويزيد في التقوى فيرتفع مستوى الإيمان قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).﴿١٨٣ البقرة﴾ وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال لنا رسول الله ﷺ: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ). متفق عليه.

٩- المواظبة على أداء الفرائض والنوافل فإنها تحافظ على ارتفاع الإيمان وتذهب أثر الغفلة والمعصية عن قلب المؤمن قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ).﴿٩ المؤمنون﴾

١٠- الورع عن ارتكاب الكبائر والإصرار على الصغائر فإن مجانبة ذلك طاعة لله يورث زيادة الإيمان.

١١- ترك فضول المباحات والملذات طمعا بما عند الله وابتغاء رضوانه يورث النفس سكينة فيزيد من الإيمان.

١٢- بذل المال والإنفاق في سبيل الله يشرح الصدر ويرفع من الإيمان ويقويه لأنه يدل على صدق الإيمان والمتاجرة مع الله قال رسول الله ﷺ: (الصَّدَقَةُ بُرْهانٌ). رواه مسلم.

١٣- صحبة أهل الإيمان من العلماء والزهاد والناسكين فإن ذلك يحمل المؤمن على عمل الصالحات وزيادة الإيمان قال الحسن البصري: (إخواننا عندنا أغلى من أهلينا أهلونا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا الآخرة).

١٤- زيارة القبور والتفكر في حال الموتى فإن ذلك يحمل النفس على الندم والتوبة والتزود من الصالحات مما يرفع مستوى الإيمان قال رسول الله ﷺ: (فَزُورُوا القُبُورَ فإنَّهَا تُذَكِّرُ المَوْتَ). رواه مسلم.

١٥- التوبة والإكثار من الاستغفار والندم والحسرة على الذنوب التي فعلها المؤمن فإن هذه الملامة تورث التذلل والافتقار لله وتزيد في الإيمان.



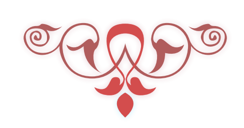

وثمة خطأ ينتشر في هذا الباب يوصي بعض الوعاظ ببرنامج تفصيلي لأعمال اليوم والليلة أو أعمال الأسبوع أو أعمال الشهر ويضع جداول يكلف فيها المؤمن بالسير عليه وقياس عمله من خلال النتائج ولا شك أن الباعث على هذا العمل هو حب الخير والإصلاح ولكن هذا العمل غير مشروع وقد أنكره علماؤنا المحققون لأنه ليس له أصل في الشرع ويناقض مراد الشارع. والمشروع للداعية أن يوصي بالأعمال المشروعة حسب ما وردت في الشريعة ما كان مؤقتا وقته وما كان مطلقا أطلقه ولم يخصصه بوقت أو سبب وأوصى به على سبيل العموم ثم يفعله المؤمن على حسب ظروفه وفراغه دون تقييد ذلك بنوع من الجداول.

وينبغي على المؤمن أن يتعاهد إيمانه ويعرف مستواه كل فترة وحال عن طريق تفقده في مواطن الطاعة واتباع الشرع فيتفقد قلبه عند تلاوة القرآن وعند الصلاة وعند الصدقة وعند رؤية المساكين والمحزونين فإن تحرك قلبه وأقبل على فعل الطاعة فإيمانه على خير وإن لم يكن كذلك فليحزن وليعلم أن قلبه قد أصابه نوع من البلاء. وكذلك يتفقد قلبه عند مواطن الفتنة: عند الفتن والمحرمات عند الشبهات وعند الأموال المحرمة وعند فعل الفواحش إلى غير ذلك فإن وجد نفسه على خير حمد الله واستزاد من الخير وإن وجد نفسه مفرطا استرجع وجدد إيمانه وأصلح قلبه وعمله قال رسول الله ﷺ: (فمَن وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ). رواه مسلم. قال ابن رجب: (من وجد ذلك في الدنيا فإنه يكون حينئذ مأمورا بالحمد لله على ما وجده من جزاء الأعمال الصالحة الذي عجل له في الدنيا كما قال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).﴿٩٧ النحل﴾ ويكون مأمورا بلوم نفسه على ما فعلت من الذنوب التي وجد عاقبتها في الدنيا كما قال تعالى: (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ﴿٢١ السجدة﴾).

وهناك مقياس آخر أيضا يتبين فيه المؤمن حال إيمانه عن طريق طلب النصيحة والموعظة من أخيه المؤمن فإن المؤمن مرآة أخيه فيطلبه النصيحة ويستنصح ممن يثق بقصده ومحبته ويسأله أن يبين له حاله وأن ينصحه وأن يعظه وأن يبين له إن كان ثمة خلل في إيمانه أو كان قائما على شيء من الذنوب الظاهرة وقد كان السلف الصالح كثيرا ما يفعلون ذلك وقد قال النبي ﷺ: (مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمْ الْمُؤْمِنُ). رواه الترمذي. أما الفاجر والمنافق فلا يهتم بإيمانه والعياذ بالله ولا يشتغل به ولا يقيم له أي وزن لأن قلبه مشغول باللهو والباطل وجمع حطام الدنيا قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا) أي دفعه بيده.




والإيمـان إذا زاد أصبـح عنـد المؤمن حاجـز كبير دون الوقـوع في المحرمـات وكبائر الذنوب وأصبـح عنده حافز في فعل الفرائض في أوقاتها وعمل السـنن والنوافـل وصار عنده حافز قوي على الحـرص على طلـب العلم وعلى التزود من مجالس الإيمان. أما إذا خبا الإيمان وقل وصار ضعيفا فـإن المؤمن يصبح سـريعا إلى الغفلـة والوقوع في المعصيـة زاهدا في أهل العلـم زاهدا في مجالس الإيمان زاهدا في الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ زاهدا في عمل في الصالحات.






الوقاية من أمراض القلوب

كثير من الناس يهتم لمرض البدن ويحرص على السلامة ويسعى جاهدا في تحقيق الشفاء وينفق في ذلك كل ما يملك ولا حرج في ذلك شرعا بل العبد مأمور بذلك كما جاء في النصوص لكن الخلل يكمن في عدم اهتمامه مطلقا بمرض قلبه وعلله وأدوائه فهو في غفلة رهيبة عن هذا الأمر ومنهم من يشعر بها مع إعراضه ومنهم من لا يشعر بها لخفائها. فالمصيبة أن كثيرا من الناس لا يحسون بمرض قلوبهم ولا يلمسون أثر ذلك إلا إذا استولى عليهم وأحاط بهم وحينئذ لا ينفع الندم والعتب.

ومن أعظم البلاء على العبد أن يكون المرض متغلغلا في قلبه مسيطرا على جوارحه وهو لا يشعر بذلك ولا يكترث لأن قلبه استمرأ ذلك واعتاد عليه فأصبح لا ينزجر بزاجر ولا ينتفع بموعظة ولا يذوق حلاوة الإيمان وقد ذم الله تعالى الكفار بعمى قلوبهم بقوله: (فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).﴿٤٦ الحج﴾

وقد ذم الله تعالى مرض القلوب في كتابه في عدة مواضع وكان هذا في سياق ذم مسلك المنافقين وأهل الشهوات والفساد كقوله تعالى: (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ).﴿٥٢ المائدة﴾ وقوله تعالى: (فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ).﴿٣٢ الأحزاب﴾ وبين النبي ﷺ خطر مرض القلب في قوله: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَتْ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى: (كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).﴿١٤ المطففين﴾). رواه الترمذي.

ولمرض القلب واعتلاله أثر بين على الجوارح والوقوع في الأقوال والأفعال الذميمة منشأه القلب المريض الذي ضعف فيه نور الإيمان وحلاوة العمل الصالح وأصابه الوهن عن اتباع الشرع.

وأمراض القلوب قسمان:

الأول: مرض الشبهات: وهو كل داء يشتمل على شبهة وهو على أنواع كثيرة:

(١) النفاق: وهو إظهار الخير وإبطان الشر وهو قسمان: نفاق أكبر اعتقادي وهو إظهار الإيمان وإبطان الكفر قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا). ﴿١٤٥ النساء﴾. ونفاق أصغر عملي وهو التخلق بأخلاق المنافقين. وقد ذم الشارع التخلق بأخلاق المنافقين وأفعالهم لأنه يفضي بالمرء إلى الوقوع في النفاق الأكبر.




(٢) الشك: وهو التردد في ثبوت الحق الذي دل عليه الشرع من تفرد الله ووحدانيته في الربوبية والأسماء والصفات والألوهية وغير ذلك من القطعيات.

(٣) سوء الظن: بأن يسيء المرء الظن بربه وأفعاله وأقداره وآياته ورسله وأوليائه.

(٤) الرياء: بأن يظهر المرء عمل الآخرة مراءاة للناس وطمعا في الدنيا.

(٥) الوساوس: بأن تستولي وساوس الكفر والشك والإلحاد على قلب المؤمن وفكره ويستجيب لها.

(٦) فتنة التعلق بمشاهد الصالحين: والغلو فيهم وعبادتهم من دون الله بشبهة محبة الأولياء والتبرك بآثارهم واعتقاد أنهم سبب لتفريج الكربات وقضاء الحاجات والتقرب بذلك إلى الله.

(٧) موالاة الكفار: بأن يؤثر المرء محبة الكفار وموالاتهم ونصرتهم وإحسان الظن بهم والعياذ بالله.

(٨) فتنة التكفير والتبديع: بأن يغلو المرء في تكفير المسلمين وتبديعهم لأدنى شبهة ويولع في الكلام في هذه المسائل.

الثاني: مرض الشهوات: وهو كل داء يشتمل على شهوة وهو على أنواع:

(١) حب الرياسة: بأن يفتن المرء بحب الرياسة والقيادة وتستشرف نفسه لذلك فيهلك.

(٢) حب الشهرة: بأن يفتن المرء ويسعى بكل ما يملك في نيل الشهرة في الأعمال الخيرية.

(٣) حب الدنيا: بأن يفتن المرء بحب الدنيا وتكون همه ومبلغ علمه وغاية مراده.

(٤) فتنة النساء: بأن تستولي على القلب الفتنة بحب النساء ويوظف العبد كل طاقاته في هذا السبيل من غير وقوف عند حدود الشرع.

(٥) حب الصور: بأن يفتن المرء بحب الصور الجميلة وعشقها والهيام بها.

(٦) شهوة الكبر: بأن يصاب القلب بشهوة الترفع والتكبر على عباد الله.

(٧) شهوة الحسد: بأن يمتلأ القلب بمرض تمني زوال النعمة من الغير وحب التفوق على الآخرين في حظوظ الدنيا.

(٨) شهوة الظلم: بأن يستلذ القلب ويستمتع بإيقاع الظلم بجميع صوره على الآخرين من سب وشتم وغيبة ونميمة وإفساد واستباحة للأموال المعصومة.

ومرض الشبهات أخطر من مرض الشهوات لأنه يفضي إلى الكفر والبدعة وليس من السهولة




التوبة منه ولذلك كثير من أهل البدع ينافحون عن ضلالتهم ويعتقدون أنهم على صواب خلافا لمرض الشهوة الذي يدرك العبد غالبا أنه مبتلى به وتنفع معه المواعظ وقد يتوب منه قال سفيان الثوري: (إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها).

ومن علامات صاحب القلب المريض بالشبهات اتباعه المتشابه الذي فيه خفاء وإشكال وإعراضه عن الدليل الواضح لغرض الفتنة وتحريف النصوص والطعن في إجماعات أهل السنة والأخذ عن الأصاغر واتباع الباطل والإعراض عن الحق وأهله والميل لأهل الفساد والبدعة قال تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ). ﴿٧ آل عمران﴾ وقد حذر النبي ﷺ من اتباعهم فقال: (إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ). متفق عليه.

وحياة القلب وسلامته من الآفات بتوحيد الله وعبوديته والانقياد لطاعته والتسليم بشرعه وموت القلب وهلاكه بالإعراض عن توحيد الله والتفريط في طاعته والاعتراض على شرعه قال تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا). ﴿١٢٢ الأنعام﴾ وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ). ﴿٢٤ الأنفال﴾ قال ابن القيم: (فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك).

والواجب على المؤمن أن يشخص قلبه ويطهر قلبه ويغسل باطنه من جميع هذه الأمراض بزيادة الإيمان والإكثار من العمل الصالح وطلب الهداية وصدق التوجه والبعد عن مواطن الفتنة وصحبة أرباب القلوب السليمة وإغلاق أبواب الشرور والفتنة عن قلبه. وعلاج مرض الشبهات يكون بقبول الحق واتباع السنة والتسليم بالشرع وسؤال الله الهداية وهجر الكلام وأهله قال تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). ﴿٦٨ الأنعام﴾ والاستعاذة من الأفكار المنحرفة قال تعالى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). ﴿٣٦ فصلت﴾

وعلاج مرض الشهوات يكون بالمواعظ والإيمانيات والتوبة والإنابة والصبر عن المعصية ولزوم الطاعة والذكر والبعد عن الأسباب المهيجة للمعصية وهجر البيئة الفاسدة وأصحاب السوء الذين يزينون الشهوات قال تعالى: (وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا). ﴿٢٧ النساء﴾ قال مجاهد: (يريدون أن تكونوا مثلهم تزنون كما يزنون).




ودواء نافع يفطم القلب عن المعاصي قد وصفه الطبيب الفضيل بن عياض وهو تفريغ القلب للحزن من أهوال يوم القيامة والخوف من النار قال الرشيد: (ما رأت عيني مثل فضيل بن عياض دخلت عليه فقال لي: فرغ قلبك للحزن والخوف حتى يسكناه فيقطعاك عن المعاصي ويبعداك عن النار). وإذا سكن القلب الخوف والحزن خرج منه حب المعاصي والفرح بالشهوات قال تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).﴿١٥ الأنعام﴾

والإكثار من سماع القرآن وسماع الحديث يطهر القلب من الأمراض ويملأه حكمة وإيمانا ونورا ويقينا لبركة كلام الله ورسوله وعظم نفعهما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ).﴿٥٧ يونس﴾ وقال تعالى: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا).﴿٣٤ الأحزاب﴾ والحكمة قال قتادة: (يعني السنة). وقال ابن تيمية: (والقرآن شفاء لما في الصدور ومن في قلبه أمراض الشبهات والشهوات ففيه من البينات ما يزيل الحق من الباطل فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والقصص التي فيها عبرة ما يوجب صلاح القلب فيرغب القلب فيما ينفعه ويرغب عما يضره فيبقى القلب محبا للرشاد مبغضا للغي بعد أن كان مريدا للغي مبغضا للرشاد). وفي المقابل الإكثار من سماع الباطل والشبهات من أهل الريب والشهوات من أهل المجون يمرض القلب ويغويه ويجعله مظلما بأنواع الضلالات وكم من تقي صالح أرداه الشيطان وأصابه في مقتل من جراء سماع شبهات أهل البدع ومجالسة الفساق.

ومن قلة البصيرة أن يجتهد من كان مبتلى بمرض القلب في كثرة النوافل من صلاة وصوم ويهمل إصلاح قلبه وتطهير درنه ويستمر على غيه كحال بعض المتولعين بالفواحش والبغي على الناس واحتقارهم وحسدهم الذين يعتنون بعمارة الظاهر ويهملون عمارة الباطن قال ابن رجب: (الاشتغال بتطهير القلوب أفضل من الاستكثار من الصوم والصلاة مع غش القلوب ودغلها). فلا شك أن العناية بإصلاح الباطن هو الأصل الذي يثمر صلاح الظاهر.

والتفقه بأصول أئمة السلف الصالح ومداومة النظر فيها يورث اليقين والسلامة من الفتن والبدع والشك. والنظر في كتب الزنادقة وأهل البدع والافتتان بزخرفها يورث الشك والحيرة والابتلاء بالبدع وربما أفضى إلى الإلحاد كما هو حال الفلاسفة وغلاة الصوفية وكثير من الروائيين المترددين في بحر الشك ولذلك حذر كثير من السلف من النظر في أصول أهل البدع والقلوب ضعيفة والشبه




خطافة قال أبو قلابة: (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون). وقال ابن أبي حاتم: (وسمعت أبي وأبا زرعة: يأمران بهجران أهل الزيغ والبدع يغلظان في ذلك أشد التغليظ وينكران وضع الكتب برأي في غير آثار وينهيان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين ويقولان: لا يفلح صاحب كلام أبدا).

والقلب المريض يموت وتعظم فتنته بوساوس وشبهات الشيطان لأن أساسه فاسد قال تعالى: (لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ).﴿٥٣ الحج﴾ أما القلب السليم يرفض الباطل ويقاومه ولا يتأثر به ليقينه بالحق المنزل وفرقانه بين الحق والباطل.

والقلب إذا أحياه الله وقذف فيه نور الإيمان كان صاحبه من أهل السعادة والفوز في الدارين قال ابن القيم: (أصل كل خير وسعادة للعبد بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله قال الله تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).﴿١٢٢ الأنعام﴾ فجمع بين الأصلين الحياة والنور فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ومحبته للحسن وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات.. وكذلك إذا قوى نوره وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه فاستبان حسن الحسن بنوره وآثره بحياته وكذلك قبح القبيح). والقلب إذا أظلم كان صاحبه من أهل الشقاء والخسارة في الدارين قال تعالى: (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ).﴿٤٠ النور﴾

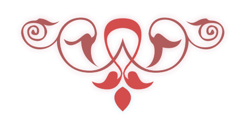
وقد يجتمع في قلب المسلم حق وباطل ويوجد فيه نوع مرض مع صلاحه في الجملة فلا يستبعد المؤمن مع علمه وعمله أن يكون مبتلى بعلة ومرض كما ورد في النصوص وهذا يوجب على المرء الحذر الشديد وأخذ الحيطة من ذلك وعدم الاغترار والإعجاب بالعمل الصالح فإن العبرة بالخواتيم.

ولا يكاد أحد يسلم من عارض وخاطر سوء ولكن المؤمن الحق هو الذي يكثر من تعاطي الدواء ويجتهد في التزكية والإصلاح لقلبه ويجاهد نفسه في ذلك بحيث لا يستقر فيه المرض ولا يكون ملازما له ومن كان كذلك كان حريا لنجاته وسلامته لقوله تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).﴿٦٩ العنكبوت﴾

ومن أهمل قلبه وأعرض عن طلب الدواء عاقبه الله بالحرمان وزيادة المرض وأبعده عن روضة اليقين وساحة الرضا والاطمئنان قال تعالى: (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ




بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ). ﴿١٠ البقرة﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (هذا مرض في الدين وليس مرضا في الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله مرضا قال: زادهم رجسا وقرأ (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ). ﴿١٢٥ التوبة﴾ قال شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم). وقال الله تعالى عنهم أيضا: (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ). ﴿٤١ المائدة﴾ فالجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدا.






علاج قسوة القلب

الناظـر فى أحوالنـا وفى أنفسـنا وفى تعاملنا مـع الله وتعاملنا مع الآخرين يجد قصـورا بينا وخللا ظاهرا يظهر في المظاهر الآتية: فلانشعر بالخشوع فى صلاتنا. ولا نتأثر ولا نتباكى عند تلاوة القرآن. ولا نتورع عن الشبهات فى المعاملات. ويظلم بعضنا ويعتدي على حقوق الآخرين. وينتشر الجفاء وسـوء الظن بين الإخـوان. وتظهر القطيعة بين الأرحام عند بعض أهـل وماننا. وهذه المظاهر تدل على انتشار مرض خطير وهو قسوة القلوب. وقسوة القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه.

وقد عاتب الله المؤمنين ووعظهم في الخشـوع والخشـية لسماع القرآن ولا يتعاملون معه بقسوة كمـا فعـل اليهود مع التوراة فقال تعالـى: (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَـعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْـرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِـنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَـتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).﴿١٦ الحديد﴾ وقال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً). ﴿٧٤ البقرة﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فصارت قلوب بني إسـرائيل مع طول الأمل قاسـية بعيدة عن الموعظة بعد ماشـاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسـوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشـد قسوة من الحجارة). والقلب القاسـي أبعد ما يكون من الله ولا يعرف الرحمة وصاحبه لايميز بيـن الحـق والباطل ولا ينتفع بموعظة ولا يقبل نصيحة قال تعالى: (ثُمَّ قَسَـتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً).﴿٧٤ البقرة﴾ ويروى في جامع الترمذي: (لَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ فَـإِنَّ كَثْرَةَ الـكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ قَسْـوَةٌ لِلْقَلْبِ، وإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِـي). وقال حذيفة المرعشي: (ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه). وتلاوة القرآن بتدبر تلين القلب وتذهب قسـوته بعث أبو موسى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القـرآن فقال: (أنتم خيار أهل البصـرة وقراؤهم فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسـو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم). رواه مسلم.

وقد اعتنى الشـارع الحكيم بهذا العضو الخطير وسـعى الى تطهيره وتنقيته من الشـوائب وحث العبد على إصلاحه قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلى أَجْسامِكُم، وَلا إِلى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ). رواه مسلم.

وإذا صلـح القلب اسـتقام حـال العبد وصحت عبادتـه وأثمر له الرحمة والإحسـان الى الخلق وصار يعيش فى سـعادة وفرحة تغمره لاتقدر بثمـن وذاق طعم الأنس ومحبة الله ولذة مناجاته. وإذا قسا القلب وأظلم فسد حال العبد وخلت عبادته من الخشوع وغلب عليه البخل والكبر وسوء الظن

وصار بعيدا عن الله وأحس بالضيق والشدة وفقر النفس ولو ملك الدنيا بأسرها وحرم لذة العبادة ومناجاة الله وصار عبدا للدنيا مفتونا بها وطال عليه الأمد قال رسول الله ﷺ: (أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ). متفق عليه. وقال الحسن البصري: (داو قلبك فإن حاجة الله عَزَّوَجَلَّ إلى العباد صلاح قلوبهم). قال ابن رجب: (يعني أن مراده منهم ومطلوبه صلاح قلوبهم فلا صلاح للقلوب حتى يستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه ويمتلئ من ذلك وهذا هو حقيقة التوحيد وهو معنى قول لا إله إلا الله فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو إله واحد لا شريك له).

وإنما يستقيم القلب على الشرع بأمرين مهمين: بمحبة الله وتعظيم شرعه قال ابن القيم: (فاستقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب. فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه. فرتب على ذلك مقتضاه. وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي. فإن الله تعالى ذم من لا يعظمه ولا يعظم أمره ونهيه قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: (ما لكم لا ترجون لله وقارا). ﴿١٣ نوح﴾ قالوا في تفسيرها: مالكم لا تخافون لله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: (هو أن لا يعارضا بترخيص جاف ولا يعرضا لتشديد غال ولا يحملا على علة توهن الانقياد)).






وثمة أمور خطيرة تقسي القلب:

(١) الإعـراض عـن الذكر قال تعالى: (وَمَـنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَنكًا وَنَحْشُـرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ أَعْمَىٰ). ﴿١٢٤ طه﴾ وقال النبي ﷺ: (مَثَلُ الـذي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ). متفق عليه.

(٢) نقض العهد قال تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِـيَةً). ﴿١٣ المائدة﴾ قال ابـن عقيل: (يا من يجد من قلبه قسـوة احذر أن تكون نقضت عهـدا فإن الله يقول: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ..)).

(٣) أكل الحرام عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًـا إِنِّـي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ). وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ). ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّـفَرَ أَشْـعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟). رواه مسلم.

(٤) ارتكاب المعاصي قال تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِـبُونَ). ﴿١٤ المطففين﴾ قال الحسن البصري: (تدرون ما الإرانة؟ الذنب بعد الذنب والذنب بعد الذنب حتى يموت القلب).

(٥) المجاهرة بالمعاصي فإذا جاهر العبد بالمعصية وبارز الله واسـتخف بعقوبته عاقبه الله بفسـاد قلبه في الدنيا وشـدة عقوبته في الآخرة. أما العاصي المستخفي بذنبه فهو قريب الى الله وداخل في عفـو الله يرجـى لـه التوبة ويرجـى له المغفـرة كمـا في الصحيحين عن أبـي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعـا: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًـى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَـلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَـتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْـتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ).

(٦) الرضـا بالجهل وترك التفقه بالدين قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَـى اللهَ مِـنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ). ﴿٢٨ فاطر﴾ فالجهل من أعظم أسباب القسوة وقلة الخشية من الله.

(٧) اتباع الهوى وعدم قبول الحق قال تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ). ﴿٥ الصف﴾

(٨) المـراء في العلـم فإن المراء والجدال المذموم في العلم لطلب الرياسـة والشـهرة يقسـي القلب ويصرف عن العمل قال الشافعي: (المراء في العلم يقسي القلوب ويورث الضغائن).



(٩) الكبر وسوء الخلق قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ). متفق عليه.

(١٠) الاغترار بالدنيا والتوسع في المباحات فالإكثار من ملذات الدنيا والركون إليها مما يقسي القلب وينسيه الآخرة كما ذكر أهل العلم.

(١١) كثرة الضحك والانشغال باللهو فإن القلب إذا اشتغل بالباطل انصرف عن الحق وأنكره واشتبه عليه وروي في جامع الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ).

(١٢) كثرة مخالطة الناس وفضول النظر والطعام فالقلب يصدأ وتذهب حلاوته ويقل فيه الإيمان بالإكثار من ذلك قال بشر بن الحارث: (خصلتان تقسيان القلب كثرة الكلام وكثرة الأكل).
وقال المروذي: (قلت لأبي عبدالله (يعني أحمد بن حنبل): يجد الرجل من قلبه رقة وهو شبع؟ قال: ما أرى).

وإذا فسد القلب لكثرة الذنوب فتن فتنة عظيمة فلم يعرف معروفا ولم ينكر منكرا وماتت همته ورغبته في الخير وزالت عنه الغيرة وعميت بصيرته وألف الفواحش ونفر عن الفضائل واستوحش من أهل الصلاح قال رسول الله ﷺ: (تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَها، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حَتَّى تَصِيرَ علَى قَلْبَيْنِ، علَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفا فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلَّا ما أُشْرِبَ مِن هَواهُ). رواه مسلم. قال ابن القيم: (فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه: (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر)).






وثمة أمور ترقق القلب وتصلحه:

(١) المداومة على الذكر يلين القلب ويذهب قسوته ويجعله مطمئنا راضيا قال تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). ﴿٢٨ الرعد﴾ قال رجل للحسن البصري: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي .فقال: (أدنه من الذكر). وقال ابن القيم: (وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب. وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر).

(٢) سؤال الله الهداية ودعاؤه ففي صحيح مسلم عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله ﷺ: (قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ).

(٣) المحافظة على الفرائض قال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ). ﴿٤٥ العنكبوت﴾ قال بكر بن عبد الله المزني: (إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل: لعلي لا أصلي غيرها).

(٤) تحري الحلال فى الكسب وأداء الأمانة قيل للإمام أحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله بم تلين القلوب؟ فقال: بأكل الحلال).

(٥) الإكثار من النوافل والطاعات عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ). رواه البخاري.

(٦) الجود والإحسان الى اليتامى والمساكين قال تعالى: (وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٩٥ البقرة﴾ وسأل رجل أحمد بن حنبل: (كيف يرق قلبي؟ قال: ادخل المقبرة وامسح رأس اليتيم).

(٧) تذكر الموت وزيارة القبور قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من أكثر ذكر الموت قل فرحه وقل حسده). وقال سعيد بن جبير: (لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت أن يفسد علي قلبي).

(٨) الحرص على مجالس العلم قال الحسن البصري: (مجالس الذكر محياة العلم وتحدث في القلب الخشوع).

(٩) الإكثار من التوبة والاستغفار وعدم الإصرار على الذنب قال ابن القيم: (صدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر).

(١٠) النظر في سير العلماء وصحبة الصالحين قال جعفر بن سليمان: (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع).

(١١) الزهد في الدنيا والتأمل في قصرها وتغير أحوالها والرغبة فيما عند الله من النعيم قال عبد الله




الداري: (كان أهل العلم بالله والقبول منه يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن).

(١٢) زيارة المرضى وأهل البلاء والاتعاظ بحالهم دواء لقسوة القلب مر الربيع بن أبي راشد برجل مقعد فجلس يحمد الله ويبكي فقال له الرجل: ما يبكيك رحمك الله؟ قال: (ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية وأهل النار بأهل البلاء فذلك الذي أبكاني).

(١٣) الإكثار من تلاوة القرآن بتفهم وتأثر قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ). ﴿٢٣ الزمر﴾ قال ابن القيم: (فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه هو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله وكذلك يزجر عن الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه).

(١٤) التفكر والاعتبار بمنازل الغابرين كان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ). ﴿٨٨ القصص﴾

وقد كان رسول الله ﷺ شديد التعاهد لقلبه يداويه ويصلحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا علَى طَاعَتِكَ). رواه مسلم.

وكذلك كان السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعتنون بقلوبهم أشد العناية قال بكر المزني: (ماسبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في صدره).

وليس من النفاق وليس من قسوة القلب الاسترواح بالأهل والأولاد والأحباب والضيعات فإن للنفس إقبال وإدبار ولا بد لها من شيء من اللهو ما تستجم به وتدفع به نصب العبادة قال حنظلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يا رَسُولَ اللهِ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَما ذَاكَ؟ قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حتَّى كَأنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِن عِندِكَ، عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ). رواه مسلم.




الذنوب الخفية

يجب على العبد أن يتجنب الذنوب كلها دقها وجلها صغيرها وكبيرها وأن يتعاهد نفسه بالتوبة الصادقة والإنابة إلى ربه قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٣١ النور﴾ وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ). وقد يستصغر المؤمن ذنبا ويتساهل فيه وتكون هلكته فيه قال ابن القيم: (الذنوب جراحات ورب جرح وقع في مقتل).

وأخطر الذنوب على العبد الذنوب الخفية التي تتعلق بالقلب لخفائها عن النفس وخفائها عن الناس ولأن العبد قد لا يشعر بها ولا يحدث نفسه بالتخلص منها خلافا للذنوب الظاهرة التي يشعر المذنب بها ويلوم نفسه على فعلها. ومما يبين خطر هذه الذنوب أن إهمال العبد لها والتساهل فيها يؤدي إلى انتكاسة العبد عن الطاعة فهي كامنة في القلب تغلي فيه فإذا نزل بالعبد نازلة أو ضاقت به الحال ظهرت على جوارحه وأفسدت دينه وكذلك إذا نزل الموت بالعبد وكان أضعف ما يكون والشيطان حريص على أن يظفر به غلبت عليه هذه الذنوب وأحاطت به فأهلكته قال تعالى: (بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). ﴿٨١ البقرة﴾ قال مجاهد: (هي الذنوب تحيط القلب كلما أذنب ذنبا ارتفعت حتى تغشى القلب وهي الرين). وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ). متفق عليه.

وكثير من الخلق لا يعتني بأعمال القلوب ويفرط فيها فيعمر ظاهره بالعمل الصالح ويهمل إصلاح باطنه فتراه مصليا صائما منفقا لكن قلبه مصاب بأنواع من الأمراض والذنوب الخفية والعياذ بالله ويظن أنه على خير قال ابن تيمية: (واعلم أن كثيرا من الناس يسبق إلى ذهنه من ذكر الذنوب الزنا والسرقة ونحو ذلك فيستعظم أن كريما يفعل ذلك ولا يعلم هذا المسكين أن أكثر عقلاء بني آدم لا يسرقون بل ولا يزنون حتى في جاهليتهم وكفرهم...ولكن الذنوب تتنوع وهي كثيرة الشعب كالتي من باب الضلال في الإيمان والبدع التي هي من جنس العلو في الأرض بالفساد والفخر والخيلاء والحسد والكبر والرياء التي هي في الناس الذين هم متفقون على ترك الفواحش). وقال ابن القيم: (فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الأبدان وآكد منها وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس بل هي من باب الفضائل والمستحبات. فتراه يتحرج من ترك




واجب من واجبات الأبدان وقد ترك ما هو أهم واجبات القلوب وأفرضها ويتحرج من فعل أدنى المحرمات وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريما وأعظم إثما). ولو فتش أحدنا قلبه لوجد أنه مبتلى بشيء من ذلك ولا يكاد يسلم أحد إلا من سلمه الله ووفقه للهداية الخاصة.

فالواجب على العبد أن يحرص أشد الحرص على إصلاح باطنه وتزكية نفسه وأن يبذل وسعه في تطهير قلبه من الآثام ومداواته بالأدوية الشرعية النافعة قال تعالى: (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ). ﴿٨٩ الشعراء﴾ فلا ينفع العبد يوم القيامة إلا أن يأتي ربه بقلب سليم من الشبهات والشهوات. ومن وحد الله وتبرأ من الشرك وأهله أتى الله بقلب سليم قال تعالى: (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ). ﴿٨٤ الصافات﴾ قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إذ جاء إبراهيم ربه بقلب سليم من الشرك مخلص له التوحيد). وقال ابن القيم: (القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده عن الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره وسلم من كل إرادة تزاحم مراده وسلم من كل قاطع يقطع عن الله فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي جنة يوم المعاد. ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة وشهوة تخالف الأمر وغفلة تناقض الذكر وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادا لا تنحصر).






والذنوب الخفية كثيرة من أخطرها:

١- الرياء: من أخطر الذنوب الخفية وحقيقته أن العبد يريد بعمل الآخرة ويقصد به الرياء والسمعة أو عرضا من الدنيا فمن رائى حبط عمله وحرم الثواب. وقد ورد ذم شديد ووعيد للمرائي والرياء أخفى الذنوب وهو من الشرك الأصغر قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ. قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ). رواه أحمد. والمؤمن الحق هو الذي يخلص في عمله ويقصد بطاعته وجه الله والدار الآخرة ولا يلتفت قلبه إلى غير الله. قال تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). ﴿١١٠ الكهف﴾

٢- الكبر: قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ). ﴿١٤٦ الأعراف﴾ وهو ذنب عظيم يوجب دخول النار عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ). رواه مسلم. والكبر إرادة العلو في الأرض بأن يتعاظم المرء في نفسه فيحمله ذلك على أن يختال في مشيته ويزدري الخلق ويتنقصهم ويترفع عنهم ويعتقد أنه أفضل منهم ويرد الحق إذا لم يوافق هواه أو كان صادرا من صغير أو مخالف قال الأحنف بن قيس: (عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين). والكبر هو الذي حمل الشيطان على عصيان ربه والامتناع عن السجود له وحمل صناديد قريش على رد دعوة النبي ﷺ. والكبر من خصائص الله عَزَّوَجَلَّ لا يليق إلا به فمن نازعه فيه أهلكه وكبه في النار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ). رواه أبو داود. والمتكبر يختم الله على قلبه فلا يميز بين الحق والباطل قال تعالى: (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ). ﴿٣٥ غافر﴾ وقال ابن تيمية: (الكبر ينافي حقيقة العبودية كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يقُولُ اللهُ: العَظمةُ إِزاري والكِبرياءُ رِدائِي فمَن نَازعَني واحدًا مِنهُما عَذَّبتُه). فالعظمة والكبرياء من خصائص الربوبية والكبرياء أعلى من العظمة ولهذا جعلها بمنزلة الرداء كما جعل العظمة بمنزلة الإزار). والكبر يحمل المرء على الإعراض عن السنة واتباع الكلام قال أبو عثمان النيسابوري: (ما ترك أحد شيئا من السنة إلا لكبر في نفسه ثم هذا مظنة لغيره فينسلخ القلب عن حقيقة اتباع الرسول ﷺ ويصير فيه من الكبر وضعف الإيمان ما يفسد عليه دينه أو يكاد وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا). والكبر ينقص عقل الرجل قال محمد بن علي بن الحسين: (ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك قل أو كثر).




٣- الحسد: من أخطر الذنوب وقد روي في سنن أبي داود عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (إيّاكُم والحَسَدَ؛ فإنَّ الحَسَدَ يأكُلُ الحسَناتِ كمَا تأكُلُ النّارُ الحطَبَ. أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ). وهو ذنب يفسد إيمان العبد بالقضاء والقدر ويضر المسلمين فأثره متعدي. والحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير. فالحاسد مسيء الظن بربه معترض على القدر ساخط على حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في قسمته الأرزاق والنعم غير قانع بما آتاه الله. قال تعالى في الاستعاذة من الحسد والحاسد: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ). ﴿٥ الفلق﴾ ومن عين الحاسد ونفسه الخبيثة تنشأ العين التي تهلك المعيون في نفسه وأهله وماله وتجعل حياته جحيما لا يطاق.

٤- الظن السوء: وهو ذنب عظيم قد يوجب للعبد الردة والعياذ بالله. وهو إساءة العبد الظن بربه في وعده ووعيده والسنن التي يجريها الله على الأمم. فإذا نزل بالعبد نازلة اعترض على قضاء الله وقدره ولم يسلم الأمر لله وظن فيه ظن السوء. أو يظن العبد أن الدولة للكفار والغلبة لهم وأن الله يخلف وعده لعباده ولا يعلي دينه وينصر أتباعه. أو يتشائم العبد في الأشياء التي يكره سماعها والنظر إليها فكل هذا من سوء الظن بالله وهو من أخلاق المنافقين قال تعالى: (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ). ﴿٦ الفتح﴾ وقال تعالى: (وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا). ﴿١٢ الفتح﴾

٥- الغل: من الذنوب الخطيرة التي تدل على عدم سلامة القلب وقلة النصح للعباد وهو أن يحمل العبد في قلبه غلا وحقدا على أحد من المسلمين لسبب أو لغير سبب. وهو من الظلم والبغي بغير الحق. وسلامة القلب من أعظم أسباب دخول الجنة. والمؤمن الحق لا يغل ولا يحقد على مسلم مهما ظلم أو خاصم. ومن كمال نصحه ومحبته للمؤمنين أن يستغفر لمن سبقه بالإيمان ويدعو الله بأن يطهر قلبه من الضغائن والأحقاد قال تعالى في ذكر دعاء الصالحين: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ). ﴿١٠ الحشر﴾ قال سفيان الثوري: (وإياك والبغضاء فإنما هي الحالقة وعليك بالسلام لكل مسلم يخرج الغل والغش من قلبك وعليك بالمصافحة تكن محبوباً إلى الناس).

٦- العجب: ومن أعظم ما يهلك العبد ويحبط عمله ويضيع نصيبه في الآخرة وقوعه في العجب وهو أن يعجب العابد بعمله الصالح ويمن على الله وينسى فضله وتوفيقه حتى يصيبه الغرور والعياذ بالله ويحمله ذلك على تزكية نفسه والثقة بها ونسبة الفضل لجهده والانقطاع عن الطاعة فلا يستمر في الصالحات ويظن أنه أدى حق الله وتفضل عليه واستوجب دخول الجنة لأنه مستحق




لهذا الثواب والمنزلة عند الله وهذا من أعظم المهلكات التي تعرض للناسك الجاهل قليل البصيرة قال أبو وهب المروزي: (سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العُجْب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك لا أعلم في المصلين شيئًا شرًّا من العُجْب). وكان يحيى بن معاذ يقول: (إياكم والعجب فإن العجب مهلكة لأهله وإن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب). وقال يحيى بن معاذ: (ذنب أفتقر به إليه أحب إلي من طاعة أفتخر بها عليه). وقال ابن القيم: (فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه وإنك أن تبيت نائما وتصبح نادما خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا فإن المعجب لا يصعد له عمل وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين). والمؤمن الحق هو الذي يعمل العمل ويتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهو خائف وجل أن لا يقبل الله منه قد مقت نفسه في الله ونظر مشفقا إلى ذنوبه وتفريطه في جنب الله قال الحسن البصري: (المؤمن الكيس الفطن هو الذي كلما زاده الله تعالى إحسانا ازداد منه خوفا). وله نظر آخر إلى عظم حق الله وحق آلائه ونعمه التي لو عبد الله ألف سنة ما أدى شكر نعمة واحدة وهو مع ذلك يوقن أنه لن يدخل الجنة بعمله إنما يدخلها برحمة الله فهو كثير التوبة والندم كثير الإنابة والخشية لله كثير الشعور بالتقصير وقلة الشكر لله والله المستعان. وقد قال تعالى واصفا حال المخبتين: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).﴿٦١ المؤمنون﴾ وروي في جامع الترمذي عن أمنا عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قَالتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذينَ يَشْربُونَ الخمرَ ويَسْرِقونَ قالَ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ ويَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

٧- الشح: ومن الذنوب العظيمة التي إذا أصابت العبد أهلكته وجعلته عبدا للدنيا يغضب ويرضى لأجلها الشح وشدة الطمع والحرص على جمع حطام الدنيا ولو على حساب دينه. قال تعالى: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).﴿٩ الحشر﴾ وقال رسول الله ﷺ: (وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ علَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ واسْتَحَلُّوا مَحارِمَهُمْ). رواه مسلم. فإذا غلب حب الدنيا على قلب العبد أصيب في مقتل وزهد في عمل الآخرة وصارت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه وحمله ذلك على البخل ومنع الحقوق والتعدي على حرمات الله لا يتورع أبدا عن أكل المحرمات والشبهات ينازع الناس في الدرهم الحقير قال رسول الله ﷺ

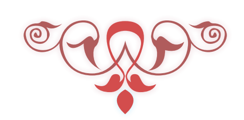
في سبيل الذم: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وإِذَا شِيكَ فلا انْتَقَشَ). رواه البخاري. والمؤمن الحق هو الذي يعمل للدنيا كأنه يعيش أبدا ويعمل للآخرة كأنه يموت غدا ينظر إلى الدنيا على أنها وسيلة للطاعة والاستغناء عن الخلق يسخرها ويستعملها في طاعة الله ويتقي الله في جمعها وإنفاقها. وقد كانت الدنيا في أيد الصحابة ولم تكن في قلوبهم قال تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). ﴿٧٧ القصص﴾

٨- طول الأمل: ومن أعظم ما يفتن قلب المؤمن ويجعله يعيش في الأماني وتسويف التوبة طول الأمل قال القرطبي: (الأمل: الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن الآخرة). فيظن العبد أن حياته طويلة وأنه سيعمَّر في هذه الدار. وهذا الشعور السيء دليل على حب الدنيا وإيثارها على الآخرة. وقد ذم الله طول الأمل قال تعالى: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ). ﴿٩٦ البقرة﴾ وقال رسول الله ﷺ: (يَهْرَمُ ابنُ آدَمَ وتَشِبُّ منه اثْنَتانِ: الحِرْصُ علَى المالِ، والْحِرْصُ علَى العُمُرِ). متفق عليه. والمرء إذا علم أن سفره بعيد لم يتأهب له ولم يتزود بما يعينه على مشقة السفر وكلما هتف به هاتف التوبة وحدثته نفسه بالمبادرة بالعمل الصالح والإقلاع عن المعصية قال القلب المفتون إنك مخلد في الدنيا وما زال في العمر مهلة فاستمتع بشبابك ومالك حتى يمضي العمر ويختم له بسوء الخاتمة ويؤخذ على حين غرة قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ). ﴿١٠٠ المؤمنون﴾ وقال قتادة: (والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله). أما المؤمن الحق فيوقن أن هذه الدنيا دار ممر لا مقر فيها وأنه مسافر عنها عما قريب وأنه مهما أقام فيها وطال عمره فإن هذا يسير جدا بالنسبة للخلود في الآخرة وأنه لن يخلد في الدنيا فيتأهب للمسير ويتزود بالتقوى ويتعاهد نفسه بالتوبة ويمتثل وصية رسوله الكريم ﷺ عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ). وكان ابن عمر يقول: (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك). رواه البخاري. وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (لا يطولن عليكم الأمد ولا يلهينكم الأمل فإن كل ما هو آت قريب




ألا وإن البعيد ما ليس آتيا). وقال الفضيل بن عياض: (إن من الشقاء طول الأمل وإن من النعيم قصر الأمل).

والذنوب كثيرة والمقصود تنبيه المؤمن على أن يفطن لخطر الذنوب الخفية ويسعى جاهدا في التخلص منها ولا يزكي نفسه ويكون شديد الحذر والخوف من سوء الخاتمة ويجعل في وقته وفكره وبرامجه نصيبا للعناية في هذه المسائل الخفية والأحوال القلبية والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.






علاج الوسواس

الوسـواس مـرض يبتلي الله به من يشـاء من عباده لحكمة وقد يصاب بـه الصالحون. وهو على أنواع منه ما هو عملي ومنه ما هو اعتقادي. والوسواس القهري هو أفكار تتسلط على العبد وتحمله على تكرار التفكير أو الأفعال بشـكل قهري وإذا لم يسـتجب لتلكم الأفكار والأفعال وينساق معها حصل له قلق شديد وتوتر نفسي لا يزول عنه إلا بالاستجابة لها.

والأصل في سـببه أنه من عمل الشـيطان وقد يكون سـببه مرض نفسـي يتعلق بالجهاز العصبي. والشيطان يبدأ في وسواس العبد في الشيء اليسير في عبادته وعمله وسلوكه فإن استعاذ منه وامتنع عنه لم يتغلب عليه وإن استجاب له العبد وكان ضعيفا شدد عليه الشيطان وأكثر من وسواسه وتمكن منه حتى يشككه في دينه وربه ونبيه ويهجم على قلبه ويضعف عزيمته ويبطل عمله ويكون العبد له أسيرا قال عثمان بن أبي العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يَا رَسُـولَ اللهِ إِنَّ الشَّـيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا. قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي). رواه مسلم. وفي الغالب ينفذ الشيطان على العبد في حـال غفلته وضعفه وفتنته بالدنيا وغير ذلك مـن أحوال ضعف البصيرة وقلة الإخلاص قال تعالى: (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ). ﴿٦ الناس﴾
قال المعتمر بن سـليمان عن أبيه: (ذكر لي أن الشـيطان الوسـواس ينفث في قلب بن آدم عند الحزن وعند الفرح فإذا ذكر الله خنس). وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله (الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ): (الشيطان جاثم على قلب بن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس).

والمراد بمرض الوسواس هو الذي يكون مسيطرا على تفكير العبد وسلوكه في سائر أحواله لا ينفك عنه. أما الوسوسـة الطارئة وخاطرة السـوء والهم بالمعصية الذي يعرض للعبد أحيانا فهذا لا يعد مرضا وأمره سهل بإذن الله تعالى ولا يضر العبد ذلك ولا يحاسب عليه إذا طرده وتخلص منه قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ). رواه البخاري.

كمـا أن النـاس يتفاوتون أيضا في مرض الوسـواس فمنهم من وسواسـه خفيف ومنهم متوسـط ومنهم شديد ومنهم من وسواسه في العبادات ومنهم من وسواسه في الاعتقادات والعياذ بالله وأحوال وقصص الموسوسـين عجيبة ومحزنة في هذا الباب. جاء أحد الموسوسين المتشككين إلى مجلس الفقيـه ابـن عقيـل فلما جلس قـال للفقيه: (إني أنغمس في المـاء مرات كثيرة، ومع ذلك أشـك: هل تطهرت أم لا فما رأيك في ذلك؟ فقال ابن عقيل: اذهب فقد سـقطت عنك الصلاة. فتعجب الرجل




وقال له: وكيف ذلك؟ فقال ابن عقيل: لأن النبي ﷺ قال: (رُفِعَ القَلَمُ عن ثلاثَةٍ: عَن النَّائم حتَّى يَسْتَيْقِظَ، وعَن الصَّغِيرِ حتَّى يَحْتَلِمَ، وعَن المَجْنُونِ حتَّى يَعْقِلَ). ومن ينغمس في الماء مرارا مثلك ويشك هل اغتسل أم لا فهو بلا شك مجنون).

وعلاج الوسواس الشيطاني في الأمور الآتية:

أولا: أن يعلم المبتلى بذلك أن ما أصابه مرض ابتلاه الله به لحكمة فيصبر على ذلك ويحتسب ويتعاطى الأسباب التي تخففه أو تمنعه بالكلية قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ).﴿٣٠ الشورى﴾

ثانيا: أن يكثر العبد من الاستعاذة بالله من شرور الشيطان وأن يلتجأ بالله ويعتصم به قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).﴿٢٠٠ الأعراف﴾

ثالثا: أن يطلب العون من الله ويحسن التوكل عليه ويوقن أنه لا يمنعه من الشيطان ويقيه إلا الله ومن استعان بالله على أحد من خلقه كفاه شره وعصمه ووقاه منه ويسر أمره قال تعالى: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).﴿٣ الطلاق﴾

رابعا: أن يكثر من الدعاء الصادق لا سيما في الأوقات والأماكن الفاضلة ويطرح بين يدي الله ويدعو دعوة المضطرين بخوف وإنابة وحسن ظن بالله قال تعالى: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ).﴿٦٢ النمل﴾

خامسا: إذا هجم الوسواس عليه قطع التفكير به ولم يستسلم وينقاد له بل إشتغل بأمر آخر ديني أو دنيوي نافع وينبغي له أن يملأ وقته ويومه بكثير من الأعمال والبرامج ولا يبقى فارغا يتسلط التفكير عليه قال رسول الله ﷺ: (يَأْتِي الشَّيْطانُ أحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَن خَلَقَ كَذا وكَذا؟ حتَّى يَقُولَ لَهُ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذا بَلَغَ ذلكَ، فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ). متفق عليه.

سادسا: إذا وجد ذلك في نفسه فليقل: آمنت بالله قال رسول الله ﷺ: (لَا يَزالُ النَّاسُ يَتَساءَلُونَ حَتَّى يُقالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ باللهِ). رواه مسلم. وليكثر من النظر في كتاب الله ودلائل الإيمان وأسماء الله وصفاته وأفعاله الجميلة والجليلة ويتفكر في آيات الله الكونية وقراءة الأحاديث النبوية وسماع كلام أهل الحق والحكمة ومجالس العلم قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ).﴿٤ الفتح﴾

سابعا: أن يتحلى بالثقة بالله وقوة القلب والعزيمة ويوقن ضعف الشيطان وكيده وليعلم أن ارتفاع معنوياته ومستواه النفسي له أثر عظيم و دور كبير بإذن الله في حصول علاجه وتخلصه من




الوسواس قال تعالى: (فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).﴿٧٦ النساء﴾ وقال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).﴿١٣٩ آل عمران﴾

ثامنا: أن يكثر من ذكر الله والتدبر فيه خاصة الفاتحة والمعوذات وسورة البقرة فإن لذكر الله أثر عظيم في طمأنينة القلب وطهارته وذهاب صدأه وقسوته ووحشته من الشبهات المحرقة والشهوات المظلمة قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).﴿٢٨ الرعد﴾

وإذا ثبت أن الوسواس ناشئ عن مرض نفسي فلا بأس في تعاطي العلاج النفسي و الإستعانة بالمختصين وغير ذلك من الأسباب النافعة مع تلاوة القرآن والذكر قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ). رواه أحمد.

وإذا قاوم العبد الشيطان على وسواسه وجاهده على ذلك وصبر على بلائه كان مأجورا على ذلك ولم يؤاخذه الله بما حصل منه وكان ذلك دليلا على كمال إيمانه ونور بصيرته وقد وقع ذلك للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ). رواه مسلم. ومعناه أن مدافعتكم للوساوس والأفكار الشريرة وإنكاركم لها وعدم النطق بها دليل صريح على صحة إيمانكم وصفاء قلوبكم وقوة يقينكم بالله فاثبتوا على الحق ولا تحيدوا عنه طرفة عين وليس المراد أن الوسواس من صريح الإيمان.

والشيطان حريص أشد الحرص على الوسوسة في قلب المؤمن الحق لإفساد نيته والتشويش على عبادته وتشكيكه في إيمانه وتزيين الشهوات له قال تعالى: (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ).﴿٥ الناس﴾. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس). ولن يتمكن من ذلك بإذن الله ما دام العبد متحصنا بذكر الله وطاعته قال تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).﴿٨٣ ص﴾ أما الكافر والمنافق فالشيطان مستغن عن الوسوسة في قلبه ليس بحاجة إليه لأن قلبه مظلم بالكفر والباطل وإنما يزين لهم باطلهم حتى لا ينقطعوا عنه فقد جاء الصحابة لابن عباس وقالوا: إن اليهود يعيروننا بقولهم نخشع في صلاتنا ولا تخشعون في صلاتكم. فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (وماذا يفعل الشيطان بالبيت الخرب). قال ابن تيمية: (والوسواس يعرض لكل من توجه إلى الله تعالى بذكر أو غيره لا بد له من ذلك فينبغي للعبد أن يثبت ويصبر ويلازم ما هو فيه من الذكر والصلاة ولا يضجر فإنه بملازمة ذلك ينصرف عنه كيد الشيطان (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا).﴿٧٦ النساء﴾).

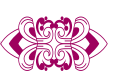



علاج الحسد

الحسد من أخطر الأمراض التي تصيب قلب المؤمن في مقتل ولذلك أرشدنا الله في كتابه إلى الاستعاذة من شر الحسد قال تعالى: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ). ﴿٥ الفلق﴾ والمرء إذا ابتلي بالحسد ضعفت بصيرته وقل إيمانه وذهبت حسناته وساء ظنه بربه وفسدت همته في تحصيل الفضائل واتكأ على الأماني وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد بقوله: (لَا تَباغَضُوا، ولا تَحاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا). متفق عليه.

وحقيقة الحسد أن يمتلأ القلب بمرض تمني زوال النعمة من أخيه المسلم وحب التفوق عليه في أمور الدنيا قال ابن القيم: (وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها فالحاسد عدو النعم وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ليس هو شيئا اكتسبه من غيرها بل هو من خبثها وشرها بخلاف السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى واستعانة بالأرواح الشيطانية). فمن تمنى زوال النعمة من الغير فهو حاسد لأنه كاره حصول النعمة لأخيه وهذا يدل على عدم محبة الخير للمسلمين وفقد النصح الواجب لهم وفي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان قال له: (وَأَنْ تُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهَ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ، وَأَنْ تَقُولَ خَيْرًا أَوْ تَصْمُتَ). رواه أحمد. وقد نهى الله عباده المؤمنين عن أن يتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض وأمرهم أن يسألوه من فضله قال تعالى: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا). ﴿٣٢ النساء﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله فنهى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله).

أما الغبطة في أمور الآخرة وخصال الخير فهذا عمل مرغوب فيه ولا حرج فيه شرعا لقول النبي ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهو يَتْلُوهُ آناءَ اللَّيْلِ، وَآناءَ النَّهارِ، فَسَمِعَهُ جارٌ لَهُ، فقالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ ما أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ ما يَعْمَلُ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالًا فَهُوَ يُهْلِكُهُ فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ). رواه البخاري. فإذا تمنى المؤمن ما عند أخيه من عمل الآخرة من تلاوة القرآن ونشر السنة وتعليم الفقه وكثرة النسك والصدقة والإحسان وغبطه في ذلك مع محبة الخير له وعدم تمني زوال النعمة عنه فهذا خلق حسن لأنه يعلق المرء بالله ويقوي صلته به ويشحذ همته في الصالحات ويحببه لعمل الآخرة والنفوس السليمة تتأثر بمشاهدة القدوات وتنشط في الخير قال الحسن البصري: (إذا رأيت الرجل ينافسك




في الدنيا فنافسه في الآخرة). وقال وهيب بن الورد: (إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل).
وقال ابن رجب: (وينبغي للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من فوقه وأن يتنافس في طلب ذلك جهده وطاقته كما قال تعالى: (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ). ﴿٢٦ المطففين﴾ ولا يكره أن أحدا يشاركه في ذلك بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه ويحثهم على ذلك وهذا من تمام أداء النصيحة للإخوان فإذا فاقه أحد في فضيلة دينية اجتهد على لحاقه وحزن على تقصير نفسه وتخلفه عن لحاق السابقين لا حسدا لهم على ما آتاهم الله بل منافسة لهم وغبطة وحزنا على النفس لتقصيرها وتخلفها عن درجات السابقين). وقد كان الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتنافس مع الصديق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فعل الصالحات والمسابقة في الخيرات وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسبق قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن يفعل فإنه سباق بالخيرات ما استبقنا خيرا قط إلا سبقنا إليه أبو بكر).

ومنشأ الحسد أن الحاسد انطوى قلبه على سوء الظن بالله في تقسيم الأرزاق وتفضيلها بين العباد فاعترض على القدر وتسخط على قضاء الله ولم يسلم لحكمته ولم يقنع بما آتاه الله فالقلب إذا أضمر اعتقادا فاسدا نشأ عنه فساد وأذى في الظاهر.

والحسود باغ ومعتدي على عباد الله وقد حرم الله الظلم والبغي بغير حق قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ). ﴿٣٣ الأعراف﴾ وقال رسول الله ﷺ: (اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). رواه مسلم. والحسود يقتله الحسد وتعذبه ناره فيعيش في شقاء ونكد قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ليس في خصال الشر أعدل من الحسد فإنه يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود). والحسود لا يسود الناس ولا تعلو منزلته في أعين الخلق بل يعاملونه بالعداوة ولا يصلح للإمامة إلا من كان يحمل قلبا سليما عفيفا عن المظالم. والحاسد يستر المحامد والفضائل وينشر المعائب والفضائح. والحاسد ينشر الكراهية والبغضاء في المجتمع ويقطع أواصر المحبة بين المسلمين. والحاسد لا يوفقه الله في مسعاه ولا يجد راحة في حياته ولا يبقى له أصحاب وخلان إلا على شاكلته. والحاسد محروم لا يتنعم في النعم التي وهبها الله له ولا يستمتع بها لأن قلبه متجه لنعمة المحسود متشوف لزوالها مما يجعله يزدري نعمته التي بين يديه وتهون في عينه فهو عدو لجميع النعم.

وينشأ من نفس الحاسد الخبيثة العين التي تهلك الأنفس وتفسد الأموال والأحوال وتكون سببا في تعاسة وشقاوة الآخرين وتعطل مصالحهم حتى تصبح حياتهم جحيما لا يطاق وقد أخبر النبي ﷺ عن خطر العين وقوة أثرها فقال ﷺ: (الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا




اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا). رواه مسلم. وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَأْمُرُنِي أَنْ أَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ). وكل عائن حاسد وليس كل حاسد عائن فالحسد أعم من العين وله صور متعددة قال ابن القيم: (والمقصود أن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد ولهذا والله أعلم إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد وليس كل حاسد عائنا فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته).

وينبغي للمؤمن إذا رأى شيئا يعجبه أن يبرك عليه ويذكر الله حتى لا يصيبه بعين وأذى لأن ذكر الله يطرد الشيطان وهمزاته وبطفئ نار الحسد ويذهب بالعين ويبطل مفعولها قال تعالى: (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ). ﴿٣٩ الكهف﴾ قال بعض السلف: (من أعجبه شيء من ماله أو ولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله). وقال رسول الله ﷺ: (عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ). رواه أحمد.

والحسد من أخلاق اليهود وخصالهم الذميمة منذ القديم وهم مشهورون بذلك وقد علموا صدق نبوة نبينا محمد ﷺ لكنه لم يقروا به حسدا وبغيا من أنفسهم لأنهم يكرهون أن تكون النبوة في غيرهم قال تعالى منكرا عليهم: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا). ﴿٥٤ النساء﴾ قال عبد الرحمن بن زيد: (يهود لم يمنعهم أن يؤمنوا به إلا حسدهم). وقد بلغ حسد كثير من أهل الكتاب في رغبتهم في أن يرتد المسلمون عن دينهم ويلحقوا بدين الكفار ويتبعوا ملتهم مع أنهم يعرفون الحق ولكن حجدوا به بغيا وحسدا قال تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ). ﴿١٠٩ البقرة﴾ والحسد من شيم اللئام قال أبو حاتم: (الحسد من أخلاق اللئام وتركه من أفعال الكرام ولكل حريق مطفئ ونار الحسد لا تطفأ).

وعلامة الحاسد أن يغتم ويستاء عند حدوث نعمة أو تجدد فرحه لأخيه المسلم ولا يفرح له ويكون ذلك ثقيلا على قلبه ويفرح ويشعر بارتياح عند نزول مكروه به قال تعالى: (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا). ﴿١٢٠ آل عمران﴾ وعلامة النصح والمحبة أن يفرح لحصول الخير لأخيه المسلم ويحزن لمصابه.






وهناك أمور تبعث على الحسد منها:

(١) وجود العداوة والكراهية.

(٢) المنافسة بين الأقران في أي مجال كان.

(٣) الفخر بالجاه والمنصب والمال فيكره أن يكون أحد يساويه من طبقة أقل منه.

(٤) حب الرياسة والشهرة والافتتان بسماع الثناء فيتمنى سقوط من يتميز في محيطه وقد يتمنى موته.

وليس كلام العالم السني المنصف في المبتدع والطعن في مذهبه وتحذير الناس من بدعته من باب حسد الأقران كما يروجه المتأخرون ممن لم يذعن لطريقة السلف الصالح أو مال إلى طريقة أهل الكلام ليضعفوا الغيرة على السنة في قلوب العامة.

وقد أثنى الله على الأنصار لخلو قلوبهم من الحسد فقال تعالى: (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ).﴿٩ الحشر﴾ قال الحسن البصري: (حسدا في صدورهم).

ومن سعادة المؤمن وراحة باله أن يكون سليم الصدر من الغل والحسد والبغضاء لإخوانه المسلمين لا يضمر في قلبه بغضا أو كراهية أو انتقاما لأحد. وسلامة الصدر من صفات أهل الجنة تتنعم به أرواحهم قال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ).﴿٤٧ الحجر﴾ وسلامة الصدر سبب لدخول الجنة فقد أخبر النبي ﷺ بطلوع رجل من أهل الجنة فتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ليتبين خبره فلم ير فيه كبير عمل فسأله عن العمل الذي رفع منزلته وجعله من أهل الجنة فقال الرجل: (مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ؛ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ). رواه أحمد. قال ابن رجب: (فأفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع التي تقتضي الطعن على سلف الأمة وبغضهم والحقد عليهم واعتقاد تكفيرهم أوتبديعهم وتضليلهم ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين وإرادة الخير لهم ونصيحتهم وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وقد وصف الله تعالى المؤمنين عموما بأنهم يقولون: (وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).﴿١٠ الحشر﴾). وسلامة الصدر ثمرة للرضا بالقضاء والتسليم بعطاء الله وحكمته قال ابن القيم: (وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا. وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم. فالخبث والدغل والغش قرين السخط وسلامة




القلب وبره ونصحه قرين الرضا. وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا). فمن سلم صدره من الضغائن محتسبا عاش سعيدا في دنياه ومات حميدا وبعث منعما ومن تدنس قلبه بالضغائن عاش شقيا ومات مذموما وتعرض للعذاب بعد موته.

وإذا ابتلي المؤمن بشيء من الحسد وجب عليه أن يجاهد نفسه في التخلص من هذا الداء العضال ويذكر نفسه بخطره وعظيم عقوبته قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).﴿٦٩ العنكبوت﴾ فإن لم يستطع دفعه وكان قلبه مريضا وجب عليه أن يخفي حسده ويستغفر للمحسود ويدعو له بالبركة والخير ولا يحل له أن يستجيب لداع الحسد ويسترسل في نزواته قال ابن تيمية: (الحسد مرض من أمراض النفس وهو مرض غالب فلا يخلص منه إلا القليل من الناس ولهذا يقال: ما خلا جسد من حسد لكن اللئيم يبديه والكريم يخفيه). وقد قيل للحسن البصري: (أيحسد المؤمن ؟ فقال: ما أنساك أخوة يوسف لا أبا لك ولكن عمه في صدرك فإنه لا يضرك ما لم تعد به يدا ولسانا). فمن وجد في نفسه حسدا لغيره فعليه أن يستعمل معه التقوى والصبر فيكره ذلك من نفسه. فإن استجاب له وأطاعه في الشر فصدر منه قول وفعل في الظاهر لإيذاء المحسود والنكاية به فقد جمع بين الظلم والحسد وكان جرمه عظيما وقد حمل الحسد قابيل على قتل أخيه هابيل لما رأى له من الحظوة عند الله قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).﴿٢٧ المائدة﴾ فالحسد يفعل العظائم بصاحبه ويوصله لحد الجنون قال الخطاب بن نمير: (الحاسد مجنون لأنه يحسد الحسن والقبيح).

ومن أعظم ما يدفع الحسد عن قلب المؤمن زهده في زينة الدنيا الفانية واستحضار أن نعيمها منقطع وأن العبد المرفه غير مخلد فيها وأن سعة الرزق على العبد لا يدل على كماله وفضله وأنه لا غنيمة ولا مزية للغنى واليسار ما لم ينفق في سبل الخير ويستعان به على الطاعة والمعروف قال تعالى: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ).﴿٧٧ النساء﴾ فإذا زهد المؤمن في الدنيا واستحضر انقطاع نعيمها وأن العبد المرفه غير مخلد فيها لم يلتفت قلبه إلى ما في أيدي الناس وانقطع طمعه ورجاؤه عن أموالهم ولم يحسدهم على نعمتهم قال ابن سيرين: (ما حسدت أحدا على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار). وكذلك التفكر في الآخرة وذكر الرحيل من الدنيا يذهب داء الحسد من القلب قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده).



وثمة أمور تطهر القلب من الحسد:

الأول: مـن وجد في قلبه شـيئا من الحسـد فليكثر مـن ذكر الله وتلاوة القرآن فإن ذكر الله يغسل القلب من الحسد ويجعله سليما من الغل والحقد ويذهب قساوته وظلمته قال تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). ﴿٢٨ الرعد﴾

الثاني: أن يسـتحضر المؤمن أن المال والأرزاق والنعم بيد الله وتحت ملكه وتصرفه يعطيها من يشـاء ويمنعها ممن يشـاء وليس لمخلوق عاجز فقير تصرف أو اعتراض في ملك الله قال تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ). ﴿٢٣ الأنبياء﴾

الثالث: أن يتأمل أن الله بمقتضى حكمته وكمال علمه وعدله يوسع الرزق لمن يشاء ويضيق الرزق على من يشـاء فيجعل هذا فقيرا وهذا غنيا ليسـخر الفقراء لخدمة الأغنياء فيبذلون الأموال في مقابل الأعمال فينتفعون جميعا فتسـتقيم الحياة وتتحقق المصالـح وثمة حكم أخرى قد تخفى على العباد ولا يمكن للعبد الجاهل أن يدرك حكمة الله ويحيط بلطفه قال تعالى: (نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُـخْرِيًّا). ﴿٣٢ الزخرف﴾ قال قتادة: (فتلقاه ضعيف الحيلة عي اللسـان وهو مبسـوط له في الرزق وتلقاه شديد الحيلة سليط اللسان وهو مقتور عليه). ومن الخلق من لا يصلح لهم إلا الفقر ومن الخلق من لا يصلح لهم إلا الغنى.

الرابع: أن يوقن بالقضاء والقدر وأن الله أرحم بعباده من أنفسهم وأن الطمأنينة وانشراح الصدر في الرضا بالقضاء قال تعالى: (وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ). ﴿١١ التغابن﴾ قال علقمة: (هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم). ومن لم يرض بقسمة الله له من الرزق ويسخط غنى غيـره فقـد أخل بإيمانه بالقضاء وأسـاء الظن بربه قال الحسـن البصري: (من رضي بما قسـم الله له وسعه وبارك الله له فيه ومن لم يرض لم يوسعه ولم يبارك له فيه).

الخامس: أن يدرك أن السعادة كل السعادة في القناعة بالرزق اليسير والشقاوة كل الشقاوة في الشح والطمع ومن قنع بما آتاه الله لم يتطلع إلى أموال الناس ولم يقع الحسـد في قلبه قال رسـول الله ﷺ: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافـًا، وَقَنَّعَهُ اللّهُ بِمَا آتَاهُ). رواه مسلم. وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنـه: (يـا بني: إذا طلبت الغنـى فاطلبه بالقناعة فإنها مـال لا ينفد. وإياك والطمـع فإنه فقر حاضر. وعليك باليأس فإنك لم تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه).

السـادس: أن يتجه قلبه ورغبته وطلبه إلى الله في سـعة الرزق وقضـاء الحاجات وتفريج الهموم ومن أيقن أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله لم يلتفت قلبه للخلق ولم يحسـد أحدا على غنى لأنه يوقن أن




المعطي والمانع هو الله وحده قال تعالى: (مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). ﴿٢ فاطر﴾.

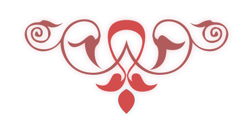
السابع: أن يدرك أن حسده لأموال الناس وإشغال فكره وهمه في دنياهم لا يعود عليه بفائدة فلا يرد عليه دنيا ولا يقيه من مصيبة بل يعيش في شقاء ونكد ويشتغل بالمفاضلة فيما بينه وبين المحسود ويكثر اللوم لنفسه والتأسف على التفريط في أسباب الدنيا والعاقل لا يشتغل أبدا في أمر يجلب له الشقاوة ويطرد عنه السعادة. قال الحسن البصري: (ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد نفس دائم وحزن لازم وغم لا ينفد).

الثامن: أن يتعود على التبريك وذكر الله إذا رأى شيئا يعجبه من ماله ومال غيره كما ورد في السنة الصحيحة فإن ذلك يطرد العين ويبطل أثر الحسد.

التاسع: أن يشغل نفسه على الدوام في الجد والاجتهاد في كسب الرزق والبحث عن الفرص النافعة وترك الأماني ولذلك قال النبي ﷺ: (الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ علَى ما يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجِزْ، وإنْ أَصَابَكَ شيءٌ، فلا تَقُلْ لو أَنِّي فَعَلْتُ كانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَما شَاءَ فَعَلَ، فإنَّ لو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). رواه مسلم. والقلب إذا اشتغل بالنافع انطرد منه الضار.

العاشر: أن يتدبر في نصوص تحريم الظلم وعظم حرمة المسلم وعقوبة البغي في الآخرة وليجتهد في تحصيل الورع عن البغي والحسد بغي خفي قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا). ﴿٥٨ الأحزاب﴾

والتعرف على أسماء الله وصفاته يطهر القلب من الكبر والحسد قال ابن القيم: (لو عرف ربَّه بصفات الكمال ونعوت الجلال وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبَّر ولم يغضب لها ولم يحسد أحدا على ما آتاه الله فإن الحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله فإنه يكره نعمة الله على عبده وقد أحبها الله ويحب زوالها عنه والله يكره ذلك فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته).






علاج الهم

الهم من أخطر الأمور على المسلم ينغص عيشه ويمرضه ويقعده عن العمل ويصيبه بالاكتئاب ويوقعه في الوسواس ويفسد حياته وإذا استرسل مع الهموم وسبح مع الأحزان صارت حياته جحيما لا يطاق.

وأعظم ما يسلي المهموم أن يوقن أن ما أصابه من هم وحزن على ذهاب محبوب أو حصول مكروه مأجور عليه وتكفر به خطاياه قال رسول الله ﷺ: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بها مِنْ خطَايَاهُ). متفق عليه.

ومن نزل به هم فليدعو بهذا الدعاء كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ). متفق عليه. قال الطبري: (كان السلف يدعون به ويسمونه دعاء الكرب). والاستعاذة من الهم تشرح الخاطر قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ). رواه البخاري.

والتفكر في النعم والنظر إلى الأشياء الجميلة يطرد الهموم والأحزان قال عروة بن الزبير لما قطعت رجله ومات ولده: (اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحدا وأبقيت لي ستة وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفا وأبقيت ثلاثة ولئن ابتليت لقد عافيت ولئن أخذت لقد أبقيت). ومن نظر إلى مصيبة غيره العظمى هانت عليه مصيبته الصغرى وزال همه.

ولا يوجد علاج للهم أحسن من قطعه والانشغال عنه بالمسليات النافعة والبرامج المفيدة فالقلب إذا أشغلته بالنافع لم يكن للهم فيه مكان وإذا فرغته من الشواغل سكن فيه الهم. وكلما ابتعدت عن كل ما يسبب الهم ويهيج الحزن سلمت منه. ومن تأمل في استحالة رجوع من فقدهم من الأحباب سهل همه.

ومن تأمل أن الرزق مكتوب والأجل معدود لم يهتم لعيشه ورزقه رأى إبراهيم بن أدهم رجلا مهموما فقال له: (أيها الرجل إني أسألك عن ثلاث تجيبني. قال الرجل: نعم. فقال له إبراهيم: هل يجري في هذا الكون شيء لا يريده الله؟ قال: لا. قال إبراهيم: أينقص من رزقك شيء قدره الله لك؟ قال: لا. قال إبراهيم: أينقص من أجلك لحظة كتبها الله في الحياة؟ قال: لا. فقال له إبراهيم: فعلام الهم إذن؟).

ومن تأمل أن الدنيا زائلة والنعيم المقيم في الجنة لم يكدر خاطره لأجل الدنيا قال تعالى: (يَا قَوْمِ




إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ). ﴿٣٩ غافر﴾ ومن علم أن الدنيا جبلت على الأحزان والهموم وأن الجنة جبلت على السعادة والسلامة من الأحزان والهموم لم يهتم لها قال تعالى: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ). ﴿٣٤ فاطر﴾ قال الزجاج: (أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو لمعاد).

وإذا سهلت الأمر هان وإذا استصعبته عظم فلا تجعل من الحبة قبة فتشقى. ومن الأمور التي تسلي عن الهم وتهونه أن تعلم أن هناك مشاكل دائمة ليس لها حل فليس من العقل والحكمة التفكير بها وإنما السعادة في الرضا بها والتصالح معها وهناك مشاكل طويلة ييسر الله حلها مع مرور الوقت فلا تكترث بها ودعها للجواد الكريم وهناك مشاكل صغيرة تملك حلها وتجاوزها فالعقل والحزم المبادرة بإيجاد الحل لها وإصلاحها من غير تسويف.

ومن اشتغل بيومه وسلا عن هم غده ولم يكدر خاطره بالمستقبل ارتاح قلبه وخفت عليه الهموم قال الحسن البصري: (لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه). ومن حمل هم يومه وهم مستقبله تعب قلبه وزادت عليه الهموم.

ومن كثر همه وعظم حزنه فليقبل على طاعة الله لينشرح صدره ويزول همه قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً). ﴿٩٧ النحل﴾ والصلاة أعظم دواء لعلاج الهم قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ). ﴿١٥٣ البقرة﴾ وفي سنن أبي داود: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى). فالله يجبر القلب الكسير ويسعد القلب المهموم ويصلح ما طرأ عليه من الفساد ولن يجد مخلوق راحة قلبه وسعادة روحه وصلاح أمره ولو كان يملك كنوز الدنيا إلا في طاعة ربه واتباع نبيه قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ). ﴿٢٨ الرعد﴾ قال قتادة: (سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال مالك بن دينار: (خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها. قالوا: وما هو؟ قال: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ). وقال ابن تيمية: (فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه. ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل طعام المسموم: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ). ﴿٢٢ الأنبياء﴾). وقال ابن القيم: (ففي القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله. وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته. وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه...وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا).




وملازمة الاستغفار سبب لتفريج الهم ودفع الكرب روي في سنن أبي داود عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا: (مَنْ لَزِم الاسْتِغْفَار، جَعَلَ الله لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مخرْجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فرجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ تشرح الصدر وتطرد الهم عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟ فَقَالَ: مَا شِئْتَ. قَالَ قُلْتُ الرُّبُعَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ النِّصْفَ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ قُلْتُ فَالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ أَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا؟ قَالَ: إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ). رواه الترمذي.

وحسن الظن بالله والتفاؤل بالأحسن في المستقبل يخفف الهم ويجعل المؤمن يتجاوزه إلى حياة سعيدة بنفس مطمئنة خالية من القلق قادرة على العمل قال رسول الله ﷺ: (لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ قَالَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ). متفق عليه.

ومن الأمور التي تطرد الهم أن يغلق المهموم ماضيه وذكرياته الأليمة ولا يفكر فيه أبدا وينظر إلى حاضره ويشتغل بما ينفعه قال رسول الله ﷺ: (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). رواه مسلم. أما إذا فتح على نفسه التفكير في خسارته في وظيفة أو تجارة أو منصب أو زوجة أو شهادة ولام نفسه على التفريط اشتد حزنه وكثرت همومه وتلاعب به الشيطان والعاقل لا يفتح على نفسه باب الندم لأنه يفسد عليه دينه ودنياه.

والرضا بالقضاء يهدي القلب ويطرد الهم عنه لأنه يوقن أن هذا قدر لا مفر منه قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ۗ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ). ﴿١١ التغابن﴾ فمن رضي بالمصيبة أخلف الله عليه خيرا وبدل حزنه سرورا.

ومما يخفف الهم التأمل والنظر في أن الدنيا لا تدوم على حال وأن الله يغير الأحوال من فقر إلى غنى ومن مرض إلى صحة ومن خوف إلى أمن وهكذا فلا ييأس المهموم من رحمة الله وليبشر بالفرج من الله فإن الفرج قريب قال تعالى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا). ﴿٦ الشرح﴾ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فإنها لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها مخرجا ولن يغلب عسر يسرين).

ومما يبعث الأمل في النفس ويسلي الخاطر ويهون المصاب أن يتواصل المهموم مع أخ ناصح محب عاقل يبث إليه بهمه ويفضفض له ويشركه في أمره ويقبل على موعظته ونصائحه حتى يستريح

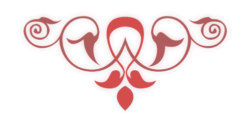



ويعينه على مجاوزة هذه الأزمة الخطيرة التي تعصف به وهذه من ثمرات الصحبة الصالحة.

وتدبر القرآن وإدامة النظر في معانيه وتلاوته شفاء للقلب المهموم لما فيه من النور والهداية والبركة والحكمة قال تعالى: (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ). ﴿٤٤ فصلت﴾ ومن واظب على التلاوة بتدبر نزلت عليه السكينة وغشيته الرحمة فطاب خاطره وصلحت حاله.

ومن أعظم ما يسكن القلب ويطرد الهم أن يوقن المؤمن أن ما نزل به من البلاء هو خير له قدره الله عليه لرفعة منزلته وتكثير ثوابه وصلاح حاله مع الله فالله أرحم به من نفسه وأعلم بمصالحه فلا ينبغي له أن يكره ذلك ويغتم به قال تعالى: (وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ). ﴿٢١٦ البقرة﴾ وقال رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ). رواه مسلم. ومن حمل هم الآخرة كفاه الله هم الدنيا قال ابن القيم: (إذا أصبح العبد وأمسى وليس همه إلا الله وحده تحمل الله سبحانه حوائجه كلها وحمل عنه كل ما أهمه...وإن أصبح وأمسى والدنيا همه حمله الله همومها وغمومها وأنكادها).

ومن أراد أن يعيش حياة طيبة مطمئنة فعليه بخمسة أمور: القناعة وحسن الخلق والورع والتقوى وحسن التوكل على الله قال الشافعي: (خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولبس التقوى والثقة بالله عَزَّوَجَلَّ على كل حال). ومن ترك القناعة شقي في الدنيا ومن ترك حسن الخلق ساءت علاقته بالناس ومن ترك الورع وقع في الحرام ومن ترك التقوى ابتلي بالفجور ومن ترك التوكل خذله الله في الشدائد.






براءة المؤمن من العصبية الجاهلية

قسم الله الأنساب والمراتب بين الناس كما قسم بينهم أرزاقهم وأخلاقهم وحسن صورتهم وغير ذلك قال تعالى: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا). ﴿٣٢ الزخرف﴾ وشرف النسب نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ على بعض عباده وهبها لهم لحكمة أرادها.

ولا حرج على المسلم أن يعتني بنسبه ويعرف مكانة بيته وعشيرته في حدود الشرع إذا لم يترتب على ذلك مفسدة أو ظلم وتعدي على أحد وقد كان الإمام الزهري عنده كتاب جمع فيه نسب آل زهرة من قريش قال قرة بن عبد الرحمن: (لم يكن للزهري كتاب إلا كتاب فيه نسب قومه). وإنما الرزية كل الرزية أن يتعصب المرء لقومه ويتفاخر بهم ولو في سبيل الحق ويحمله ذلك على التعدي على إخوانه المسلمين وازدرائهم وبغضهم بوجه من الوجوه.

والناس في هذا الباب طرفان طرف يغلو فيحتقر الناس وطرف يجفو فيبخس حق عشيرته ووسط بينهما يعرف حق أهل بيته ولا يبغي على أحد وهذا ما جاء به الشرع وكان من هدي النبي ﷺ يراعي حق نسب بيته من غير إفراط ولا تفريط وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: (اسْتَأْذَنَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي هِجَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: فَكَيْفَ بِنَسَبِي؟ فَقَالَ حَسَّانُ: لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرَةُ مِنَ العَجِينِ).

وقد ورد في الشرع ما يدل على تحريم العصبية الجاهلية وذمها أشد الذم قال تعالى: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ). ﴿٢٦ الفتح﴾ ولا تمايز بين الناس في الإسلام بالنسب أو الحسب أو العرق أو اللون إنما التمايز بالتقوى قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ). ﴿١٣ الحجرات﴾ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ). رواه الترمذي. وعن جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ). رواه أبو داود. وقال جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمَّعَهَا اللهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: مَا هَذَا. فَقَالُوا كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَالَلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا




مُنْتِنَـةٌ). متفق عليـه. وقال ابن القيم: (الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعـاء إلى القبائل والعصبية ومثله التعصـب إلى المذاهب والطوائف والمشـايخ وتفضيل بعضهم على بعـض يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي فكل هذا من دعوى الجاهلية).

والتعصب المذموم له صور كثيرة ومتنوعة تارة يكون للجنس وتارة للغة وتارة يكون للعشـيرة والقبيلـة وتـارة يكون للبلد وتارة يكون للمذهـب والطريقة وتارة يكون للشـيخ فكل غلو في الولاء والمحبة والنصرة داخل في معنى التعصب المذموم المنهي عنه شرعا والناس يتفاوتون في ذلك. قال ابن تيمية: (كل ما خرج عن دعوى الإسـلام والقرآن من نسـب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو عزاء الجاهلية).

والتعصب من سـمات الجاهلية التي تتحاكم للعادات والتقاليد والخرافات وتقدمها على الشرع عـن أبـي مالك الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قـال رسـول الله ﷺ: (أَرْبَعٌ فِـي أُمَّتِي مِـنْ أَمْـرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ). رواه مسلم.

ومن مظاهر التعصب الجاهلي الطعن في أنساب الناس والنقيصة منهم بكل سهولة في كل مناسبة على سبيل التشفي والتشهي وهذا أمر شائع والله المستعان. وإنما يسوغ للعاقل التكلم في هذا الباب إذا كان عالما بأنساب الناس منصفا عند رجحان المصلحة ودعاء الحاجة من غير بغي ويكون كلامه متزنا على قدر الحاجة ثم يمسك.

وقد كان الرسـول ﷺ مع شـرف نسـبه وعلو منزلته يتعايش مع الجميع ولا يشعر أحدا بالدونية فيأكل مع الفقراء ويمشي مع المساكين ويسعى في قضاء حاجة الأمة ويتفقد أحوال الضعفاء كخروجه للصـلاة على قبر المرأة التي كانت تقم المسـجد وينتصر للغرباء ويرعى حـق الأخوة الإيمانية ولو كان مـن أبعد الناس نسـبا عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله ﷺ: (انْصُـرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومـًا. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُـولَ اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومـًا، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَـالَ: تَحْجُـزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِـنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِكَ نَصْرُهُ). رواه البخاري. ولما سـب أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا وعيره بأمه أنكر عليه النبي ﷺ وقال له: (إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ). رواه مسـلم. ولم ينقل عنه ﷺ أنه فاخر بنسبه إلا في موطن قتال الكفار بقوله: (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ). متفق عليه.

وكذلك كان السلف الصالح لا يعاملون الناس بناء على العصبية والعنصرية إنما يعاملونهم بناء على منزلة الإيمان والعمل الصالح ولقد كان كثير من الموالي علماء وكانوا محل إجلال وتقدير في المجتمع المسلم.




والفخر في النفوس موجود ومركوز في الفطر وربما أظهرته الخصومة والغيرة والحسد وهو مألوف عند أصحاب النفوس الضعيفة لكن المؤمن يكتم ذلك ويخفيه ويسعى جاهدا في التخلص منه.

وقد يبتلى بعض المنتسبين للعلم والصلاح بداء العصبية فيكون قلبه مشتمل على نوع من التعصب للبلد أو الطريقة أو العشيرة مع ظهور صلاحه ويظهر ذلك منه على فلتات لسانه وتصرفاته في المضايق فلا ينبغي للمؤمن أن يزكي نفسه ويغتر بصلاح الظاهر بل عليه أن يفتش في قلبه ويختبر مخبره ويتبرأ من هذا الداء ولو كان على حساب قبيلته وعشيرته وبلده فإن بعض الصالحين يتبعون الشرع إذا لم يخالف هوى القبيلة والبلد فإذا تزاحم الشرع وتعارض مع تعصبهم اطرحوه وتأولوا وقدموا حميتهم ونصروا أخاهم على الباطل وربما تستروا على جنايته وهذه المحبة تقدح في كمال الإيمان. وكلما رسخ العلم والإيمان في القلب انتفى التعصب واضمحل وإذا ضعف قوي التعصب وغلب على قلب المؤمن والفخر كل الفخر هو إظهار الاعتزاء بالإسلام والسنة دون ما سواه.

والتعصب الجاهلي له أضرار كثيرة على الفرد والمجتمع:

(١) ضعف الإيمان والولاء لله ورسوله ﷺ.

(٢) الوقوع في الظلم لأن المتعصب يستبيح حقوق الآخرين.

(٣) ازدراء المؤمنين ونقيصتهم والحط من قدرهم.

(٤) حصول الفخر والكبر والخيلاء.

(٥) تحقق العداوة والبغضاء بين المسلمين.

(٦) نشوب الفتن وتعطيل مصالح الأمة الكبرى.

ومن أهم روافد التعصب:

الأول: الشعر ولغة القصيدة التي تشبب الناس وتربيهم على التعصب المذموم.

الثاني: مجالس الشعر وعقد المسابقات التي تؤجج نار المنافسة بين القبايل.

الثالث: وضع المسابقات الاجتماعية من مزاين الإبل وغيرها التي تذكي التعصب والفخر.

الرابع: الاجتماعات القبلية التي يكون هدفها الرئيس تمجيد تاريخ القبيلة وتذاكر مفآخرها وليس هدفها بذل الإحسان والصلة وتفعيل التكافل الاجتماعي لدى أفرادها.




وأخطر ما يكرس التعصب لدى الشاب ويربيه عليه لغة الأسرة وثقافة البيت وتربية القبيلة في خطابها الحاد فمن المؤسف أن ترى بعض أولياء الأمور المتعلمين أكاديميا يربي ولده على التفاخر في الجاهلية وانتقاص الناس والطعن فيهم حتى صار بعض أبنائنا يعيش مع هذا المبدأ ويتعامل مع الآخرين وفق ذلك ولا يستطيع أن يتخلص منه في غالب الأحوال.

وللتعصب الجاهلي دور رئيسي في وقوع الفتن ونشوب القتال الداخلي والحروب الأهلية والتاريخ يشهد لكثير من الأحداث والفتن التي كانت العصبية تؤججها وتضرم نارها حتى استغل ذلك طائفة من الحكام على مر التاريخ لأغراضهم السياسية والمذهبية كما وقع في تاريخ الأندلس.

وكذلك الانتماء الفقهي للأئمة الأربعة وغيرهم لما بلغ حد التعصب والغلو وقع التدابر والتهاجر بين الأتباع حتى وصل الأمر إلى الاختلاف والتقاتل والوشاية للحكام وبلغ الذروة في القرن الرابع والخامس وقد كان الأئمة يحذرون من ذلك ويذمون هذا المسلك ذما شديدا.

ولا شك أن التعصب اليوم يلعب دورا سلبيا في إيجاد الفرص الوظيفية واستحقاق الدرجة والرتبة في القطاع الخاص والعام فترى الموظف المجتهد الكفء يحرم من الترقية والتقدير والحوافز وفي المقابل الموظف الكسول المقصر يمنح أعلى الدرجات والأوسمة والثناء بناء على التعصب والنظرة العنصرية وهذا أمر مشهور يعرفه كل منصف.

وأعظم أسلوب وأنجع وسيلة وأهم خطوة في القضاء على التعصب الجاهلي هو تنشئة الطفل وتوجيه أفراد المجتمع إلى القيم والمبادئ الفاضلة التي جاء بها الشرع من تواضع وحلم وعدل وحسن ظن واحترام حقوق الآخرين وغير ذلك من الفضائل.

والاعتزاز بالله ورسوله ﷺ وقوة محبتهما والتشرف بطاعتهما وصرف الولاء لهما واليقين بأن المقياس الصحيح لمعرفة الرجال وكيفية التعامل معهم هو مدى تمسكهم بالشرع والتزامهم بالتقوى وتحقيق العبودية كل ذلك يضعف التعصب الجاهلي والولاء المقيت ويقضي على المبادئ السيئة. فإذا امتلأ القلب بمحبة الله وسعى في تحصيل محاب الله واعتز بالله وآخى أهل طاعته وخاصته هان في قلبه جميع الروابط الإنسانية وازدرى التعصب والغلو فيها.

وهكذا كان مجتمع الرسول ﷺ يعتز بالإسلام ويفتخر بالانتماء إليه ويتعصب لقول الله وقول رسوله ولا يعتز بالجاهلية ولا يتعصب لها عملا بقوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا). ﴿١٠ فاطر﴾






وثمة أمور يخطئ من يظن أنها من التعصب الجاهلي:

الأول: التمسك والاعتزاز بشيم وعادات القبيلة الحسنة من كرم وجود وشهامة وحسن جوار وغيرة على المحارم والحفاظ على القيم الفاضلة في المجتمع لأن ذلك من مكارم الأخلاق التي صانها الشرع ورغب فيها.

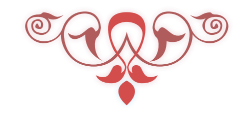
الثاني: الاعتناء بالأنساب والمحافظة عليها ومذاكرتها وحفظها عن الضياع وضبطها لأن الشارع أمر بتعلم الأنساب لصلة الرحم وغير ذلك من المصالح.

الثالث: طلب الكفاءة في النكاح وتخير الزوج الذي يناسب طبقة الزوجة ونسبها وحسبها لأن ذلك أمر مباح أقر به الشارع وعمل به الصحابة واختاره الإمام أحمد وجماعة من أهل العلم.

الرابع: الفخر والخيلاء بالعشيرة والبلد في موطن قتال الكفار ونصرة الدين فهذا عمل حسن لأنه توظيف لهذه الغريزة في سبيل الله في موطن يحبه الله ورسوله ﷺ لما فيه من شحذ الهمم وإذكاء روح المنافسة بين العشائر وأهل الأمصار فمصلحته راجحة لا مفسدة فيه وقد كان رسول الله ﷺ يشجع القبائل ويعقد ألويتهم ويثني عليهم في الجهاد في سبيل الله.

والحاصل أن التعصب الجاهلي بجميع أشكاله وصوره مذموم شرعا وهو داء خطير خفي يصيب المؤمن في مقتله ويحمله على الظلم والتعدي والصد عن سبيل الله والإعراض عن اتباع الحق فيما يخالف الولاء كما يصيب القلب الحسد والرياء وسائر الأدواء والواجب على من ابتلي بذلك أن يطهر قلبه من هذا الداء ويداويه ويتبرأ منه بالكلية ليلقى ربه موحدا في ولائه لله ورسوله وطاعته لهما خاليا من القوادح والشبهات.

أما محبة المرء لقبيلته وعشيرته وبلده حبا معتدلا لا يحمله على الظلم ولا يوقعه في التفريط بحق الله فلا إفراط ولا تفريط ولا يترتب على ذلك مفسدة ظاهرة فهذا حب طبيعي فطري لا حرج فيه ولا يؤاخذ عليه المسلم ولا يسلم منه عاقل وقد كان رسول الله ﷺ يحب عشيرته وبلده.






مقام الإخلاص في الدين

الإخـلاص في الديـن من أعظم المقامـات القلبية التي يتعبـد بها المؤمن والديـن كله قائم على إخـلاص العبادة لله وحده دون ما سـواه قـال تعالى: ﴿وَمَا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِيـنَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَـاء﴾. ﴿٥ البينـة﴾ وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيـنَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾. ﴿٣ الزمر﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. ﴿١٦٣ الأنعام﴾

وقد دلت السـنة على هذا الأصل العظيم قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سـمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ). متفق عليه. وهذا الحديث يدل على أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل لا ثمرة له في الدنيا والآخرة.

وقوله: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) يقتضي الحصر والمعنى إنما الأعمال صالحة أو فاسدة أو مقبولة أو مردودة بالنيات فيكون خبرا عن حكم الأعمال الشـرعية فلا تصح ولا تحصل إلا بالنية ومدارها على النية. وقوله: (وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى). إخبار بأنه لا يحصل للعامل من عمله إلا مانواه به فإن نوى خيرا جوزي به وإن نوى شـرا جوزي به وإن نوى مباحا لم يحصل له ثواب ولا عقاب. وليس هذا تكرير محض للجملة الأولى فإن الجملة الأولى دلت على صلاح العمل وفسـاده والثانية دلت على ثواب العامل وعقابه. والنية معناها في اللغة القصد والعزيمة ومعناها في الاصطلاح قصد العمل تقربا إلى الله وطلبا لمرضاته وثوابه.

والنية هي الأصل الذي يبني عليه عمل الجوارح وتؤثر فيها صحة وفسادا قال ابن القيم: (وإنما هي الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة. وإن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلـة الجسـد والأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات. وكذلك العمـل إذا لم تصحبه النية فحركة عابـث. فمعرفـة أحـكام القلوب أهم من معرفـة أحكام الجـوارح إذ هي أصلها وأحـكام الجوارح متفرعة عليها).






وتطلق النية في كلام العلماء على معنيين:

(١) نيـة المعمـول لـه: أي تمييز المقصود بالعمل هل هو الله وحده لا شـريك بـه أم غيره أم الله وغيـره وهذا المعنى يتكلم فيه أهل العقائد والرقائق في كتبهـم الذين يعتنون بالمقاصد والإيمانيات وهو المقصود غالبا في كلام الله بلفظ النية والإرادة قال تعالى: (مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِـرَةَ). ﴿١٥٢ آل عمران﴾ وكذلك هو المقصود غالبا في السـنة عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَمْ يَنْوِ إِلَّا عِقَالًا فَلَهُ مَا نَوَى). رواه النسائي. وهذا المعنى كثير في كلام السلف قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له).

(٢) نيـة العمل: أي تمييز العمل وهذا المعنى يتكلم فيه الفقهاء في مصنفاتهم. فلا تصح الطهارة بأنواعها ولا الصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع العبادات إلا بقصدها ونيتها فينوي تلك العبادة المعينـة. وإذا كانت العبادة تحتوي على أجناس وأنواع كالصلاة منها الفرض والنفل المعين والنفل المطلـق فالمطلـق منه يكفي فيـه أن ينوي الصلاة وأما المعين من فرض ونفـل فلا بد مع نية الصلاة أن ينـوي ذلـك المعين وهكذا بقية العبـادات. ويدخل في نيـة العمل تمييز العبادة عـن العادة فمثلا الاغتسـال يقع نظافة أو تبردا ويقع عن الحدث الأكبر وعن غسـل الميـت وللجمعة ونحوها فلا بد أن ينوي العامل فيه رفع الحدث أو ذلك الغسـل المسـتحب. وكذلك يخرج الإنسـان الدراهم مثلا للـزكاة أو الكفـارة أو للنذر أو للصدقة المسـتحبة أو للهدية فالعبرة في ذلـك كله على النية. وكذلك صور ومسائل المعاملات العبرة فيها نية العامل وقصده لا ظاهر عمله ولفظه. ويدخل في ذلك جميع الوسائل التي يتوسل بها إلى مقاصدها فإن الوسائل لها أحكام المقاصد صالحة أو فاسدة والله يعلم المصلح من المفسد.

وقد أخبر النبي ﷺ أن من هاجر من دار الكفر إلى دار الإسـلام حبا لله ورسـوله ورغبة في إظهار دينـه حيـث كان يعجـز عن إظهـاره في دار الكفر فهذا هـو المهاجر إلى الله ورسـوله حقا. ومن كان مهاجـرا الغـرض إصابة الدنيا أو نكاح امرأة فهذا مهاجر لأجـل الدنيا وليس لأجل الآخرة ولا يؤجر على ذلك. وفي قوله: (فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ). تحقير لما طلبه من أمر الدنيا واسـتهانة به. وسـائر الأعمـال كالهجـرة في هذا كالجهاد والحج وغيرها ففي الصحيحين عن أبي موسـى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (جَاءَ رَجُـلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَـالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: مَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ).

والإخـلاص يرتكز علـى الصدق مع الله قـال إبراهيم بن أدهم: (الإخلاص صـدق النية مع الله تعالى). وقال ابن القيم: (وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص والصدق والقصد واحد. فقيل: هو إفراد

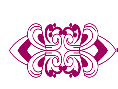



الحق سبحانه بالقصد في الطاعة. وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. والصدق التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص ولا يتمان إلا بالصبر).

وحقيقة الإخلاص أن يقصد المؤمن من فعل الخير وبذل الإحسان وجه الله بحيث يحتسب الثواب من الله ويطلب رضا الله ونعيمه في الآخرة ولا يكون قصده نيل الشهرة والصيت أو نيل الدنيا من مال أو منفعة أو جاه أو منصب قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. ﴿٩ الانسان﴾ قال مجاهد: (أما إنهم ما تكلموا به ولكن علمه الله من قلوبهم فأثنى به عليهم ليرغب في ذلك راغب). فإن قصد شيئا من ذلك والتفت قلبه للمصلحة الدنيوية فقد الإخلاص وصار عمله لغير الله عياذا بالله من الخذلان. والإخلاص يشترط في العبادات فلا تصح إلا به أما العادات التي لا تشوبها العبادة فقد وسع بها الشارع ولم يشترط فيها الإخلاص ولا حرج على العبد أن يقصد بها الانتفاع من الدنيا بأي وجه من الوجوه وهذا من تيسير الله ولطفه بالعباد.

وقد ورد الوعيد في السنة لمن قصد بعمل الآخرة عرضا من الدنيا مريدا به غير وجه الله تعالى فقد أخرج أحمد عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا). وكذلك من قصد بعلمه أو جهاده أو صدقته مراءاة الناس وطلب الشهرة فهو متوعد بالنار كما ورد في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ). رواه مسلم.






وينقسم حكم العمل بالنسبة للرياء إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكـون أصل العمل ريـاء خالصا بحيث لا يراد به إلا مراءاة المخلوقين لغرض دنيوي كحـال المنافقيـن في صلاتهم قـال تعالى: (وَإِذَا قَامُـوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَـالَى يُـرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُـرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيـلًا). ﴿١٤٢ النسـاء﴾ وقال تعالى: (الَّذِيـنَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَـاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُـرَاءُونَ). ﴿٦ الماعـون﴾ قال ابـن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (هم المنافقـون كانوا يراءون النـاس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا). وهذا الرياء الخالص لا يصدر من المؤمن حقا إنما يصدر من المنافق وهذا العمل حابط وصاحبه مستحق للمقت والعقوبة.

الثاني: أن يكون العمل لله ويشاركه الرياء في أصله فالنصوص الصريحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضا ففي صحيح مسـلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنا أغْنَى الشُّـرَكاءِ عَنِ الشِّـرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشْـرَكَ فيه مَعِي غيرِي، تَرَكْتُهُ وشِـرْكَهُ). ولا يعرف عن السلف خلاف بينهم في هذا القسم.

الثالـث: أن يكـون أصل العمل لله ثم يطـرأ عليه نية الرياء فإن كان خاطـرا ودفعه فلا يضره بغير خـلاف وإن اسـتجاب له فهل يحبـط عمله أم لا: الصحيـح أن أصل عمله لا يبطل بهـذا الرياء وأنه يجازى بنيته الأولى وإنما يبطل من عمله ما خالطه الرياء ورجحه الإمام أحمد والطبري.

أمـا إذا خالـط نية العمل نيـة مباحة غير الرياء مثـل أخذ الأجرة للخدمة أو شـيء من المعاوضة في الجهـاد أو التجـارة في الحج نقـص بذلك الأجر ولم يبطـل العمل قال أحمد بـن حنبل: (التاجر والمستأجر والمكاري أجرهم على قدر ما يخلص من نيتهم في غزاتهم ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره).

وليس من الرياء فرح المؤمن بفضل الله ورحمته حين سـماع ثناء الناس على عمله الصالح فإذا استبشـر بذلـك لم يضره قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قِيلَ لِرَسُـولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُـلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عليه؟ قالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ). **رواه مسلم.**

والأعمال الصالحة تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص حتى إن صاحب النية الصادقة إذا عجز عن العمل يلتحق بالعامل في الأجر قال تعالى: (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا). ﴿١٠٠ النسـاء﴾ وفي صحيح البخاري عن أبي موسـى الأشـعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا مَـرِضَ العَبْـدُ، أَوْ سَـافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَـا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا). وفي صحيح مسـلم عن




جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في غَزَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ بِالمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ؛ حَبَسَهُمُ المَرَضُ). وفي رواية: (إِلَّا شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ). وإذا هم العبد بالخير ثم لم يقدر له العمل كتبت همته ونيته حسنة كاملة ففي سنن النسائي عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (مَن أَتَى فِرَاشَهُ وَهوَ يَنْوِي أَن يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ، فَغَلَبَتهُ عَينَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَومُهُ صَدقَةً عَلَيهِ مِن رَبِّهِ، عَزَّوَجَلَّ).

والإخلاص يعظم ثواب العمل اليسير ويقلل ثواب العمل الكبير عند ضعفه أو فقده قال ابن المبارك: (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية). فليست العبرة بكثرة العمل وعظمه إنما العبرة بحسن النية وتحري الإخلاص ولو كان العمل قليلا قال رجل لتميم الداري: (ما صلاتك بالليل؟ فغضب غضبا شديدا ثم قال: والله لركعة أصليها في جوف الليل في سر أحب إلى من أن أصلي الليل كله ثم أقصه على الناس).

والإخلاص له أثر عظيم في قبول العمل الصالح وبركته ونفعه للمؤمن واستمراره على الخير والبذل والإحسان واحتساب الأجر من المنان فمن كان مخلصا في عمله لم ينقطع عمله ولم يلتفت للخلق لأنه يتعامل مع الله فمن علم الله صدق نيته أعانه ووفقه وثبته بالحق وأيده بتأييده وشرح صدره لفعل الخيرات أما من كان ضعيف الإخلاص والاحتساب في أعمال البر فإنه غالبا ينقطع عن الخير ولا يستمر في البر لأنه يرجو ما عند الخلق من الثناء والمكافأة فإذا لم يحصل له ذلك ضعفت همته وقل عزمه وتوقف عن نفع المسلمين ونصيحتهم قال الربيع بن خثيم: (كل ما لا يبتغى به وجه الله يضمحل).

والإخلاص هو ثمرة العمل الصالح والمقصود منه فالله يريد من العبد قصده وتعظيمه ومحبته ورجاءه والتأله له وصدقه في رغبته ورهبته والتجاءه قال تعالى: (لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ). ﴿٣٧ الحج﴾ وقد أدرك هذا المعنى السلف الصالح قال الفضيل بن عياض: (إنما يريد الله عَزَّوَجَلَّ منك نيتك وإرادتك). وقال أبو سليمان الداراني: (والله ما يريد منا أن تيبس جلودنا على عظامنا ولا يريد منا إلا صدق النية). وقال عون بن عبد الله: (فواتح التقوى حسن النية وخواتيمها التوفيق).

والنية الصالحة تجري في المباحات والأمور الدنيوية ويؤجر عليها المؤمن وهذا من كمال فضل الله وجوده فمن نوى بكسبه وعمله الدنيوي الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وحقوق الخلق واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وجماعه انقلبت العادات في حقه إلى




عبادات وبارك الله في عمله وفتح له من أبواب الخير والرزق أمورا لا يحتسبها ولا تخطر له على بال. ومن فاتته هذه النية لجهله أو تهاونه فقد حرم خيرا عظيما ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: (إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ). وقال معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أما أنا فأنام وأقوم فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي). رواه البخاري. وقال زبيد اليامي: (يسرني أن يكون لي في كل شيء نية حتى في الأكل والنوم). وقال ابن القيم: (إن خواص المقربين هم الذين انقلبت المباحات في حقهم إلى طاعات وقربات بالنية فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين بل كل أعمالهم راجحة). ومن فاتته هذه النية لجهله أو تهاونه فقد حرم خيرا عظيما.

وقد كان السلف الصالح يعتنون عناية شديدة في هذا الباب لخطورة الإخلاص وعظم جزائه وأهمية أثره على العمل قال سفيان الثوري: (ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي لأنها تتقلب علي). وقال يحي بن أبي كثير: (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل). وقال هشام الدستوائي: (والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوما قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ). وقال مطرف بن عبد الله: (صلاح القلب بصلاح العمل وصلاح العمل بصلاح النية). وقد كان السلف حريصون جدا على إخفاء أعمالهم قال سفيان: (أخبرتني مرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سرا إن كان ليجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه). وقال حماد بن زيد: (كان أيوب ربما حدث بالحديث فيرق فيلتفت فيتمخط ويقول: ما أشد الزكام؟ يظهر أنه مزكوم لإخفاء البكاء). وقال ابن أبي عدي: (صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله وكان خرازا يحمل معه غداءه من عندهم فيتصدق به في الطريق ويرجع عشيا فيفطر معهم). فالسلف الصالح اعتنوا بإصلاح الباطن وعمارته بالإخلاص والخلف اعتنوا بإصلاح الظاهر وكثرة العمل مع إهمال الباطن وعدم العناية بإخلاص القصد وحسن النية ولذلك ترى كثيرا من أعمالنا مهلهلة ضعيفة البركة قليلة النفع لا تدوم.

فالإخلاص يحتاج من المؤمن مجاهدة ومصابرة ومراقبة لأنه يخالف هوى النفس ويخالف حظوظها ولأن القلب شديد التغير والتأثر بما يطرأ عليه من الفتن والمقاصد الفاسدة قيل لسهل التستري: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: (الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب). وينبغي للمؤمن قبل الشروع في العمل أن يستحضر نيته ويختبر قلبه ويستجمع إيمانه ويحقق إخلاصه فإن تمحض قصده لله مضى في عمله وإن كانت نيته لدنيا ترك العمل لله وإن اشتبه عليه الأمر جاهد نفسه وصفى نيته ثم مضى في عمله ولم يلتفت لما يفسد عليه قال الحسن البصري: (كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت فإن كان لله مضى وإن خالطه شك أمسك). وقيل لنافع بن جبير بن مطعم: (ألا تشهد الجنازة




؟ فقال: كما أنت حتى أنوي ففكر هنيهة ثم قال: امض). وبعض أعمالنا التطوعية عند التحقق تفتقر إلى الإخلاص والصدق مع الله قد فعلناها إما مجاملة للناس أو طلبا للصيت الحسن أو تحقيق مصلحة شخصية أو غير ذلك من الأغراض الفاسدة والله المستعان.

والإخلاص له أثر عظيم في حفظ الأمة ونصرتها وسعة رزقها وتيسير أمورها عن مصعب بن سعد قال: (رَأَى سَعْدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ؟). رواه البخاري. وفي سنن النسائي: (إِنَّمَا يَنْصُرَ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ).

والإخلاص له ثمرات عظيمة:

(١) قبول العمل الصالح قال تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ﴿٢ الملك﴾ قال الفضيل بن عياض: (أي أخلصه وأصوبه). فالعمل الذي يشتمل على الإخلاص يقبله الله والعمل الخالي من الإخلاص يرده الله ولا يقبله لأنه أريد به غير الله.

(٢) مغفرة الذنوب كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (بيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ برَكِيَّةٍ، كادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِن بَغايا بَنِي إسْرائِيلَ، فَنَزَعَتْ مُوقَها فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها بهِ). قال ابن تيمية: (فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها وإلا فليس كل بغي سقت كلبا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض. وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له). وقال ابن القيم: (والله يضاعف ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة).

(٣) كثرة الثواب بالعمل اليسير قال البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بالحَدِيدِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ؟ قالَ: أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ. فأسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ، فَقُتِلَ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: عَمِلَ قَلِيلًا، وأُجِرَ كَثِيرًا). متفق عليه.

(٤) النية الخالصة مع صدق العزيمة تبلغ مبلغ العمل فإن صدقت نية المؤمن آتاه الله الثواب من غير عمل لما ورد في صحيح مسلم عن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِراشِهِ).




(٥) نجاة المؤمن من كيد الشيطان قال تعالى: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).﴿٨٣ ص﴾

(٦) حفظ المؤمن من الفواحش قال تعالى: (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ).﴿٢٤ يوسف﴾

(٧) النصر على الأعداء قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).﴿٤٥ الأنفال﴾

(٨) تفريج الشدائد كما في قصة الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار فتوسل كل واحد منهم ربه بصالح عمله وقال: (إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فخرَجُوا يَمْشُونَ). متفق عليه.

(٩) نيل شفاعة النبي ﷺ لما ورد في صحيح البخاري: (قِيلَ يا رَسولَ اللهِ مَن أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِكَ يومَ القِيَامَةِ؟ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: لقَدْ ظَنَنْتُ يا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيْثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيْثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يومَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ).

(١٠) تطهير النفس من الغل لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لله، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ). رواه الترمذي.

(١١) محبة الله قال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ، الغَنِيَّ، الخَفِيَّ). رواه مسلم.

(١٢) النجاة من النار عن عتبان بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ). متفق عليه.

والمخلص لله تعالى أسعد الناس عيشا وأطيبهم حالا لأنه يتلذذ بالعبادة ويأنس بالله ويسلم بالقضاء ويحتسب البلاء ويرضى بعطاء الله ويزهد فيما عند الخلق وأراح قلبه من عناء الدنيا لأنه مسافر عنها وذلك نعيم المؤمن في الدنيا الذي لا يعرفه أهل الدنيا قال ابن القيم: (المؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة).






وثمة أمور تعين المؤمن على تحري الإخلاص والاستمرار عليه:

الأول: استحضار فضل الإخلاص وعظيم نفعه وبركته وأنه سبب لقبول العمل الصالح.

الثاني: استحضار أن الإخلاص سبب عظيم لزيادة الثواب ورفعة الدرجات في الآخرة.

الثالث: استحضار أن الإخلاص من أعظم أسباب الثبات على دين الله والاستمرار في فعل الصالحات والتطوع بوجوه البر.

الرابع: استشعار عظمة الله وكمال قدرته وعلمه ومراقبته وأنه مطلع في سائر الأحوال على المقاصد والنيات لا يخفى عليه شيء في السر والعلن.

الخامس: التفكر في خطورة الرياء وجرمه وأنه سبب لإحباط العمل وذهاب ثوابه.

السادس: اليقين بأن العباد عاجزون لا ينفعون العبد ولا يضرونه إلا بأمر كتبه الله فالتعلق بهم من دون الله وإرادة نفعهم من أقبح الأمور التي تكون سببا في الهلاك.

السابع: مدارسة حال النبي ﷺ في اعتنائه بالإخلاص وتعلق قلبه بالله وصدقه مع الله وعدم تغير حاله في السر والعلن.

الثامن: التأمل في سير الصحابة وأئمة السلف الصالح والنظر في أقوالهم وأفعالهم وتعظيمهم لمقام الإخلاص سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الصدق والاخلاص؟ فقال: (بهذا ارتفع القوم).

التاسع: سؤال الله ودعائه الإخلاص وحسن النية وطلب العون منه سبحانه فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ). رواه أحمد.

العاشر: الزهد في الدنيا الفانية وحظوظ النفس والرغبة في نعيم الآخرة الباقية.

الحادي عشر: صحبة الصالحين ومخالطتهم قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ). ﴿٢٨ الكهف﴾






وثمة علامات تدل المؤمن على ضعف إخلاصه أو فقده:

الأول: طلب الشهرة بالعمل الصالح بحيث لا ينشط العامل إلا في الأعمال المصاحبة للشهرة والذكر بين الناس أما الأعمال الخفية فلا يهتم لها وقد افتتن خلق في هذا الزمان بوسائل التواصل فصاروا لا يعملون عملا صالحا إلا وثقوه ونشروه. قال إبراهيم بن أدهم: (ما صدق الله عبد أحب الشهرة).

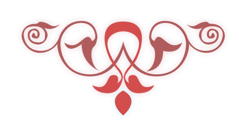
الثاني: طلب الدنيا بالدعوة والتعليم وأعمال البر فإذا كان العمل فيه فائدة نشط واجتهد وإذا خلا من الفائدة لم يشتغل فيه ولم يحرص عليه قال فضيل بن عياض: (لأن أطلب الدنيا بطبل ومزمار أحب إلي من أن أطلبها بالعبادة). قال بشر الحافي: (لأن أطلب الدنيا بمزمار أحب إلى من أن أطلبها بالدين).

الثالث: الغضب والانتقام للنفس إذا قوبل إحسانه بالإساءة ممن أحسن إليه أو لم يكافأ بمعروف أو لم يثن على عمله فإذا تحرك قلبه لهذه الأمور وصدر منه ردة فعل كان ذلك دليلا على ضعف إخلاصه.

الرابع: نصرة الحزب وطلب رضا الناس بحيث يبذل الإحسان ويفعل المعروف ليستميل طائفة من الناس أو ينصر مذهبه وطريقته ويعود عليه بتحقيق مكاسب اجتماعية أو دينية فمن دعا إلى الله أو طلب العلم أو قام بعمل خيري لهذا الغرض لم تكن نيته خالصة لله ولم يخلص في عمله لأنه لم ينصر كلمة الله وإنما نصر عشيرته أو حزبه.

الخامس: طلب الثناء والشكر من الناس قال سفيان الثوري: (بلغني أن العبد يعمل العمل سرا فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه فيكتب في العلانية ثم لا يزال به الشيطان حتى يحب أن يحمد عليه فينسخ من العلانية فيثبت في الرياء).

فينبغي للمؤمن أن يعتني بالإخلاص في جميع أعماله الأخروية ويجدد نيته في كل عمل صالح ويجاهد نفسه في التخلص من جميع النوايا السيئة والأغراض الفاسدة ويصدق مع الله ويعظم رغبته في الآخرة قال أيوب السختياني: (تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال). وقال ميمون بن مهران: (إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل). فنسأل الله أن يعفو عنا ويهلمنا رشدنا ويصحح نياتنا ويطهر قلوبنا من الرياء وإرادة الدنيا ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.






محبة الله تعالى

محبة الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم مقامات العبادة عليها تدور رحى الطاعة والسير إلى الله لأنها تسوق المؤمن إلى القرب وترغبه في الإقبال على الله وتجشم المشقة والعناء في سبيل رضا الله والفوز بجنته. قال تعالى في وصف المؤمنين: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ). ﴿٥٤ المائدة﴾ وفي الصحيحين عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ). فبمحبة الله يذوق بها العبد حلاوة الإيمان قال ابن القيم: (أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تأليهه وبها قامت الأرض والسماوات وعليها فطرت المخلوقات وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذي تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد والعبادة لا تصلح إلا له وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعا لمحبته).

وحقيقة محبة الله هي إيثار محبة الله على ما سواه بالتزام أمره واجتناب نهيه واتباع رسوله ﷺ في كل كبير وصغير والتحزب لأهل محبة الله ونصرتهم ومودتهم وصرف المحبة الإيمانية لكل محبوب لله والبعد عن كل ما يسخط الله وينافي محبته أو يضعفها قال الحسن البصري: (اعلم أنك لن تحب الله حتى تحب طاعته). وقال بشر بن السري: (ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغض حبيبك).

وشرط المحبة لله الإحسان في العمل واتباع الشرع فلا تصح المحبة ولا تقبل الدعوى من أحد إلا بما يوافقها من العمل الصحيح. أما ادعاء المحبة مع عدم التزام بالشرع والسنة فدعوى كاذبة وغرور باطل من جنس أماني أهل الكتاب التي لا تساوي عند الله شيئا قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ﴿٣١ آل عمران﴾ قال بعض السلف: (ادعي قوم على عهد رسول الله أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية). وهذه الآية تسمى عند السلف بآية الامتحان يمتحن بها كل من يدعي محبة الله فإن كان متبعا للسنة كان صادقا في دعواه وإن كان معرضا عن السنة كان كاذبا في دعواه قال يحيى بن معاذ: (ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده).




أما دعوى المؤمن الصادقة لمحبة الله ورسوله فتنفعه بإذن الله ولو قصر في العمل أو منعه عذر ولم يلحق بالمقربين لما ثبت في جامع الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الصَّلَاةِ فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ قَالَ أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ. فَقَالَ الرَّجُلُ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ مَا أَعْدَدْتَ لَهَا. قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ. فَمَا رَأَيْتُ فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ الإِسْلَامِ فَرَحَهُمْ بِهَذَا). وهذا محمول على صدقه وإخلاصه واحتسابه المحبة لله ورسوله واجتماعه معهم في الجنة لا يلزم مشاركتهم في الدرجة والمنزلة.

وأعظم ما يمتحن به العبد في باب المحبة لله ما كان يألفه من دواعي الهوى والنفس الأمارة بالسوء والعوائد السيئة فإن قدمها على محبة الله وأتبع نفسه إياها فقد باء بالخسران وفاته خير عظيم وإن قدم محبة الله عليها واعتزلها وتركها لله فقد فاز وكان من أهل الفلاح ولذلك امتحن الله المؤمنين بتقديم محابهم الثمان على محبته والجهاد في سبيله فقال تعالى: (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ). ﴿٢٤ التوبة﴾ فتارك الصلاة يمتحن بإقامة الصلاة وشارب الخمر يمتحن بترك الخمر والزاني يمتحن بترك الزنا وآكل الربا يمتحن بترك الربا والكذاب المفسد بين الناس يمتحن بترك النميمة والمرأة المتبرجة تمتحن بالحجاب والفنان يمتحن بهجر الغناء وهكذا.

ولا يمكن أن يخلو قلب المؤمن من أصل محبة الله لأن ركن العبادة الركين المحبة فما دام قلبه مشتملا على محبة الله فهو يعبده ويقبل على طاعته ويكفر بما دونه من المخلوقين والمؤمنون يتفاوتون في هذا المقام تفاوتا عظيما قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ). ﴿١٦٥ البقرة﴾ قال ابن تيمية: (من المعلوم أن كل مؤمن فلا بد أن يحب الله ورسوله ولكن في المظهرين للإسلام من هم منافقون فأولئك ملعونون لا يحبون الله ورسوله). فكل مؤمن محب لله ولو كان عاصيا مفرطا في طاعة الله عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلاً، عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ). رواه البخاري.



والمؤمنون في محبة الله ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: كامل المحبة لله تعالى وهو من التزم السنن والواجبات واجتنب المكروهات والمحرمات. وهذا حال الأنبياء والأصفياء من هذه الأمة.

الصنف الثاني: مقتصد المحبة لله تعالى وهو من اقتصد في عمله فواظب على الواجبات وترك المحرمات ولم يتزود من الصالحات. وهذا حال عامة الصالحين.

الصنف الثالث: ناقص المحبة لله تعالى وهو من قصر في فعل الواجبات وارتكاب المحرمات وأسرف على نفسه بالسيئات. وهذا حال أهل الغفلة والهوى من هذه الأمة.

وأما المنافق والكافر فقد خلا قلبه من محبة الله الخالصة وانصرف حبه للآلهة والأنداد من دون الله وساواهم بمحبة الله فأشركهم في محبة الله كما ذمهم الله بذلك بقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ).﴿١٦٥ البقرة﴾ ويدخل في هذا الباب محبة الكفار والشرك والبدع وإشاعة الفاحشة وأهل الفساد.



وثمة أسباب تجلب المحبة لله عَزَّوَجَلَّ:

١- إخلاص القصد لله في العبادة.

٢- تلاوة كلام الرحمن والتدبر في معانيه.

٣- الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار.

٤- الإنفاق وبذل المال في مرضاة الله.

٥- ملازمة حلق العلم ومجالس الإيمان.

٦- مخالفة الهوى وإيثار طاعة الله ورضاه.






ومن أعظم ما يحقق المحبة للمؤمن كثرة التقرب والتطوع بالصالحات لما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِـي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ). فمن أحبه الله رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته فأوجب له ذلك القرب منه والزلفى لديه قال ابن رجب: (فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محا ذلك من القلب كل ما سواه ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره ولا يتحرك إلا بأمره فإن نطق نطق بالله وإن سمع سمع به وإن نظر نظر به وإن بطش بطش به فهذا هو المراد بقوله كنت سمعه الذي يسمع به...).

والمحب لله كثير الذكر لمحبوبه وكلام محبوبه قال بعض السلف: (المحب لله طائر القلب كثير الذكر). وقال خباب بن الأرت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لرجل: (تقرب إلى الله ما استطعت واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه). رواه الحاكم. وقال عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله عَزَّوَجَلَّ). وقال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (من أحب القرآن فهو يحب الله ورسوله). رواه الطبراني. وقال ابن القيم: (منها: كثرة ذكر المحبوب واللهج بذكره وحديثه فمن أحب شيئا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٤٥ الأنفال﴾

وإذا نال العبد محبة الله سدد سمعه وبصره ويده ورجله وأيده بتوفيقه وصانه عن الرذائل فلا يستعمل جوارحه إلا في المباحات قال ابن القيم: (إذا أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته). وإذا أحب الله عبدا حماه من فتنة الدنيا فعلامة التوفيق في العبد إعراضه عن الدنيا وفراره من فتنتها وخشيته من زخرفها وعلامة الخذلان والحرمان للعبد إقباله على الدنيا وفرحه بها وافتتانه بزخرفها والانغماس في ملذاتها. وليس أضر على قلب المؤمن ودينه من حب الدنيا وأهلها والله العاصم والموفق.

والتعرف على صفات الله العلى وأسمائه الحسنى ومحبتها توجب محبة الله ورضاه عن العبد لما روت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (أَنَّ النبيَّ ﷺ بعَثَ رَجُلًا على سَرِيَّةٍ، وكانَ يَقْرَأُ لأَصْحابِهِ في صَلاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بقُلْ هو اللهُ أحَدٌ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذلكَ للنبيِّ ﷺ، فقالَ: سَلُوهُ لأيِّ شيءٍ يَصْنَعُ ذلكَ؟، فَسَأَلُوهُ،




فَقَـالَ: لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَـا، فَقالَ النبيُّ ﷺ: أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ). متفق عليه. فهنيئا للسـني الموحد في أسـماء الله وصفاته الذي يثبت ما أثبته الله لنفسه فهو خليق بمحبة الله وبئس للجهمي المعطل لأسماء الله وصفاته فهو خليق بسخط الله ومقته.



وثمة موانع تمنع المحبة وتضعفها:

١- الرياء وإرادة الدنيا في عمل الآخرة.

٢- هجر كلام الرحمن والجفاء منه.

٣- إضاعة الفرائض والتهاون في فعلها.

٤- الغفلة عن ذكر الله.

٥- الشح بالمال ومنعه عن المحاويج والفقراء.

٦- الاشتغال بالمعاصي والملاهي الموجبة لسخط الله.

٧- مصاحبة أهل الغفلة والفساد.

٨- حب النفس وترك النصح للخلق.

٩- التسخط والتضجر من الرزايا والمصائب.

والله عَزَّوَجَلَّ يحـب من شـاء من عباده ويحب أقوالهم وصفاتهم الحسـنة قال تعالـى: (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِيـنَ). ﴿١٤٦ آل عمـران﴾ وقال تعالى: (وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ). ﴿١٣٤ آل عمـران﴾ فالمحبة صفة فعلية اختيارية ثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به من غير تشبيه ولا تعطيل فهو سبحانه يحب من شاء متى شـاء والسـعيد من نال محبة الله في أرضه وملكوته وفي الصحيحيـن عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فَقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأَحِبَّهُ، قَالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّـمَاءِ فيَقُولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأَحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّـماءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ، وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فيَقُولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فأَبْغِضْهُ، قَالَ فيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في أَهْلِ السَّـمَاءِ إنَّ اللهَ يُبْغِـضُ فُلانًا فأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَـعُ لَهُ البَغْضاءُ في الأَرْضِ). فيا سـعادة مـن فاز بهذه المرتبة الشـريفة التي لا تعدلهـا مرتبة في الدنيا لا مال ولا جاه ولا سـلطان. قال هرم بن حيان: (ما أقبل عبد بقلبه على الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه ودهم).




ومـن كمال محبة الله وتمامهـا المحبة لله فيحب المرء كل الأقوال والأفعال والأعيان والأحوال والأزمنـة والأمكنة التي يحبها الله ويؤثرها على سـائر الأشـياء ولو زهد النـاس فيها فكل عمل ورد فيه ثناء الله عليه ومحبته له في الكتاب والسـنة أحبه ودعا إليه كتحسـين التـلاوة بالقرآن وغيره وكان أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يحب الدباء لما رأى النبي ﷺ يتتبعها في الصحفة قال أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (فَرَأَيْتُ النَّبِـيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيِ القَصْعَـةِ. قَالَ أَنَسٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ). رواه البخـاري. ويكره كل ما يكرهه الله من الأقوال والأفعال والأعيان والأحوال والأمكنة من المعاصي والوسائل الموصلة لها والأمور التي توقع في الغفلة والصد عن ذكر الله فلا تخالف محبته محبته الله ولا تخالف كراهته كراهة الله بل يكون هواه ومحبته تابع لمحبة الله ورضاه وهذا هو مقتضى التوحيد قـال ابـن رجب: (ومن تمام محبته محبة الله ما يحبه وكراهة ما يكرهه فمن أحبّ شـيئا مما كرهه الله أو كره شـيئا مما يحبه الله لم يكمل توحيده وصدقه في قوله لا إله إلا الله وكان فيه من الشـرك الخفي بحسـب مـا كرهه مما أحبه الله ومـا أحبه ممَّا يكرهه الله قال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْـخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ).﴿٢٨ محمد﴾).

ومـن كمـال محبة الله وثمرتها المحبة في الله فيحب الرجل أخـاه ابتغاء مرضاة الله لا يحبه لأجل نسـب أو حسـب أو مـال أو دنيا وقـد ورد في ذلك فضل عظيم في الآخرة عـن معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَعَالَى وَجَبَتْ مَحبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجالِسِـينَ فيَّ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ، وَالمُتَبَاذِلِيـنَ فيَّ). رواه أحمد. وفي صحيح مسـلم عن أبي هريـرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ يومَ القِيامَةِ: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، اليَومَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَومَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي). فمحبة الرجل الصالـح ومودتـه والقيام بحقه والذب عـن عرضه لأجل إيمانه بالله ورسـوله مع كونـه من الأباعد نسـبا وبلدا يدل على امتلاء القلب بمحبة الله وتعظيمه وتوقيره وإيثار ما عنده من النعيم على عرض الدنيا الزائل وسئل المرتعش: بم تنال المحبة. قال: (بموالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه). وكذلك مما يحمد في هذا الباب أن يكون تصرف العبد كله لنيل مرضاة الله ومحبته عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسـول الله ﷺ: (مَنْ أَحبَّ للهِ وَأَبغضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ وَمَنَعَ للهِ فَقَدِ اسـتكْمَلَ الإِيْمَانَ). رواه أبو داود.






وثمة علامات تدل على محبة الله لعبده المؤمن:

الأولى: الإحسان في عبادة الخالق قال تعالى: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).﴿١٩٥ البقرة﴾

الثانية: اتباع الرسول ﷺ والاقتداء بسنته قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).﴿٣١ آل عمران﴾ قال ابن القيم: (فجعل سبحانه متابعة رسوله سببا لمحبتهم له وكون العبد محبوبا لله أعلى من كونه محبا له فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله فالطاعة للمحبوب عنوان محبته).

الثالثة: المواظبة على أداء الفرائض والنوافل عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ). راه البخاري.

الرابعة: مودة المؤمنين وصحبتهم قال ﷺ: (قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتحابِّينَ فِيَّ، والمُتجالِسِينَ فِيَّ، والمُتزاوِرِينَ فِيَّ، والمُتباذِلِينَ فِيَّ). رواه أحمد.

الخامسة: التقوى قال تعالى: (فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).﴿٧٦ آل عمران﴾

السادسة: الإحسان إلى الخلق قال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).﴿١٣٤ آل عمران﴾

السابعة: التوبة والتطهر من الأحداث الحسية والمعنوية قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ).﴿٢٢٢ البقرة﴾

الثامنة: محبة الصالحين للمؤمن عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فيُنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ). متفق عليه.

ومن علامة محبة الله لعبده أن ينزل به البلاء ويبتليه بالمحن ويلهمه الصبر والرضى بها قال تعالى: (وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ).﴿١٤٦ آل عمران﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ). رواه الترمذي. وهذا حال أهل المحبة لله وأصفيائه في هذه الدنيا يعرفون بكثرة البلاء. أما الفجار وأهل الغفلة فيبسط الله لهم الدنيا ويوسع عليهم ويتابع عليهم الخيرات استدراجا وفتنة لهم كما روي في مسند أحمد عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ




اسْتِدْرَاجٌ)، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ).﴿٤٤ الأنعام﴾).

والمحب الصادق لله يغار على محارمه إذا انتهكت أما الذي لا يغار فليس بمحب لله على التحقيق وإن ادعى ذلك قال ابن القيم: (فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهين بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد فكيف يصح لعبد أن يدعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ولا لحقوقه إذا ضيعت...وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره). وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قَالَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتي لَضَرَبْتُهُ بالسَّيْفِ غَيْرُ مُصْفِحٍ عنْه، فَبَلَغَ ذلكَ رَسولَ اللهِ ﷺ، فَقالَ: أَتَعْجَبُونَ مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَواللهِ لأَنا أَغْيَرُ منه، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَواحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنها، وَما بَطَنَ، وَلَا شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذلكَ بَعَثَ اللهُ المُرْسَلِينَ، مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَلَا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، مِن أَجْلِ ذلكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ). فالغيرة على الأهل خلق نبوي كريم حث عليه الشرع يدل على كمال محبة العبد لله وتعظيمه لشرعه ومن لا يغار على محارمه لا خير فيه متهم في دينه ناقص المحبة لله.
والغيرة المحمودة من أخلاق الصحابة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي في الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ قَالُوا: لِعُمَرَ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا. فَبَكَى عُمَرُ، وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللهِ). متفق عليه. وفي الصحيحين قالت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (فَجِئْتُ يَوْمًا والنَّوى على رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسولَ اللهِ ﷺ ومعهُ نَفَرٌ مِنَ الأنْصارِ، فَدَعانِي ثُمَّ قالَ: إخْ إخْ لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فاسْتَحْيَيْتُ أنْ أسِيرَ مع الرِّجالِ، وذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وغَيْرَتَهُ وكانَ أغْيَرَ النّاسِ، فَعَرَفَ رَسولُ اللهِ ﷺ أنِّي قَدِ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضى).
فانظر إلى حياء أسماء وحفظها لزوجها ومراعاتها لغيرته وهذا يدل على الديانة والوفاء وحسن العشرة. ومن غار على نسائه تشبه بأخلاق النبي وصحابته وكان من أهل المروءة والفضل. والغيرة المحمودة التي يحبها الله هي الغيرة في الأسباب الظاهرة التي تدعو إلى الريبة وتتحقق فيها الحماية من الفساد وأهله أما الغيرة الذمومة هي الغيرة بغير ريبة وتحمل على الشك وسوء الظن بلا بينة لما روي في سنن أبي داود عن جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مِنَ الغَيْرةِ ما يُحِبُّ اللهُ، ومنها ما يُبغِضُ اللهُ؛ فأمّا الَّتي يُحِبُّها اللهُ فالغَيْرةُ في الرِّيبةِ، وأمّا الغَيْرةُ الَّتي يُبغِضُها اللهُ فالغَيْرةُ في غيرِ




رِيبةٍ). وقال ابن القيم: (وغيرة العبد على محبوبه نوعان: غيرة ممدوحة يحبها الله. وغيرة مذمومة يكرهها الله. فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة. والتي يكرهها أن يغار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه).

وليس إعطاء الله الدنيا للعبد علامة على محبته له واصطفائه على غيره كما يظنه الجهال ممن لم يعرف حقيقة المحبة قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب فإذا أحب الله عبدا أعطاه الإيمان). وقد اختار الله لنبيه ﷺ الفقر ومنع عنه زينة الدنيا وجعل حياته كفافا قال رسول الله ﷺ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا). متفق عليه. فلا ينبغي للغني أن يفرح بها ويظن أنه من أهل الرضا ولا ينبغي للفقير أن يحزن على فقدها ويظن بربه سوءا. وإنما علامة محبة الله للمؤمن أن يحزن ويغتم لذنوبه وتفريطه وعلامة محبة الدنيا أن يغتم ويكلف بجمعها قال حماد الدباسي: (إذا أحب الله عبدا أكثر همه فيما فرط وإذا أبغض عبدا أكثر همه فيما قسم له).

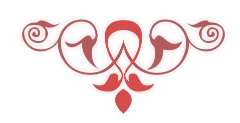
ولا يلام المؤمن أبدا على محبة العشيرة والوطن والولد والزوجة والمال ولا تنافي تلك المحبة محبة الله ورسوله إذا كانت في حدود الشرع ولم يترتب عليها مفسدة لأنها حب فطري غريزي قد فطر الله الإنسان عليه وأباحه الشرع ولم ينه عنه رسول الله ﷺ بل كان يحب بلده وأهله وعشيرته عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (أَنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا). رواه البخاري. وقال تعالى: (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا). ﴿٢٠ الفجر﴾ ويشترط لتلك المحبة أن تكون تابعة للشرع مقيدة بضوابطه ولا تناف مقاصده، أما إذا غلا فيها العبد أو والى وعادى لأجلها أو شغلته عن اتباع الشرع وأوقعته في التعدي على حقوق المسلمين وزينت له المعاصي فحينئذ تكون إثما ويؤاخذ عليها في الآخرة ويلحقه الذم والوعيد لأنه مخالف لشرع الله متبع لهواه لم يلتزم طاعة الله ورسوله قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ). ﴿٥٠ القصص﴾ وقال رسول الله ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ). رواه البخاري.

ومن ساوى بين الله وبين أحد من خلقه في المحبة وتذلل له وعظمه كما يعظم الله فقد أشرك بالله وحبط عمله كعباد الأوثان قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). ﴿١٦٥ البقرة﴾ والمؤمنون أشد محبة لله لإخلاصهم من محبة الكفار لأصنامهم التي يعبدونها من دون الله وهي لا تملك نفعا ولا ضرا فمحبتهم لهم فاسدة مبنية على أوهام لا تغنيهم شيئا.




ويشـرع للمؤمن سـؤال محبة الله تعالى قال النبي ﷺ: (وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَـلٍ يُقَـرِّبُ إِلَى حُبِّـكَ). رواه الترمذي. فينبغي للمؤمن أن يلح في دعائـه في طلب محبة الله والفوز بمرضاته والاتصاف بقربه.

ومحبـة الله منزلـة عظيمة لها فضل عظيم وآثار حسـنة ومزايا نافعة علـى من تحلى واتصف بها. قال فتح الموصلي: (المحب لا يجد مع حب الله عَزَّوَجَلَّ للدنيا لذة ولا يغفل عن ذكر الله طرفة عين). وقال فرقد السبخي: (قرأت في بعض الكتب من أحب الله لم يكن عنده شيء آثر من هواه ومن أحب الدنيـا لم يكن عنده شـيء آثر من هوى نفسـه والمحب لله تعالى أمير مؤمر علـى الأمراء زمرته أول الزمر يوم القيامة ومجلسـه أقرب المجالس فيما هنالك والمحبة منتهى القربة والاجتهاد ولن يسـأم المحبـون من طول اجتهادهم لله عَزَّوَجَلَّ يحبونه ويحبون ذكره ويحببونه إلى خلقه يمشـون بين عباده بالنصائـح ويخافـون عليهم من أعمالهم يوم تبدو الفضائح أولئـك أولياء الله وأحباؤه وأهل صفوته أولئك الذين لا راحة لهم دون لقائه).






خشية الله تعالى

خشـية الله تعالـى من أجل أعمـال القلوب التي تقـوم عليها العبادة وتكـف المؤمن عن ركوب المعاصي واسـتباحة المحرمات والاسـتهانة بشـرع الله وشـعائره وقد أثنى الله علـى عباده تخلقهم بالخشـية فقـال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْـيَةِ رَبِّهِمْ مُشْـفِقُونَ).﴿٥٧ المؤمنون﴾ وقال تعالى: (فَلا تَخْشَـوْهُمْ وَاخْشَـوْنِي).﴿١٥٠ البقـرة﴾ ووالله مـا اسـتعان العبد علـى دينه بمثل الخشـية من الله قال ابن القيم: (الخوف من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب وهي فرض على كل أحد).

وخشـية الله تعنـي انزجار قلب المؤمـن ووجله وخوفـه وهربه من سـخط الله وغضبه وعقوبته ووعيده في الآخرة. قال سعيد بن جبير: (الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عَزَّوَجَلَّ). وقال الفضيـل بن عياض: (من خاف الله تعالى دله الخوف على كل خير). والعبد إذا خاف مخلوقا هرب منـه وإذا خـاف الخالق هرب إليه قال تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللهِ إِنِّـي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ).﴿٥٠ الذاريات﴾ قـال ابـن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (فـروا منه إليه واعملـوا بطاعته). وقـال ابن رجب: (العبـد إذا خاف من مخلـوق هـرب منه وفر إلى غيره وأمـا من خاف من الله فما له من ملجأ يلجـأ إليه ولا مهرب يهرب إليـه إلا هـو فيهرب منه إليه كمـا كان النبي ﷺ يقول في دعائـه: (لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْـكَ إِلَّا إِلَيْكَ). وكان يقول: (أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ)). وقال الفضيل بن عياض: (من خاف الله لم يضره أحد ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد).

ومنشأ الخشية لله تكون من جلال الله واتصافه بالقوة والانتقام والغضب ممن عصاه قال تعالى: (فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).﴿١٣ التوبة﴾ وتكون من عذابه وعقوبته ووعيده في الآخرة قال تعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ).﴿١٥ الأنعام﴾

وكل مؤمـن بـالله مسـتقر في قلبه خشـية الله في الأصـل ولا يمكن خلو قلبه من ذلـك ولكن أهل الإيمان يتفاوتون في درجات الخوف وهم على ثلاثة أصناف:

الأول: كامل الخوف وهو من حمله الخوف على فعل الفرائض والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات واجتنب الشبهات.

الثـاني: مقتصد الخوف وهو من حمله على المحافظة على فعل الفرائض وترك المحرمات ولم يجتنب الشبهات والمكروهات.

الثالث: ناقص الخوف وهو من قصر في فعل الفرائض وارتكب المحرمات وأسرف في الموبقات.




وأهل الخشية والإنابة لله هم من عمر وقته بالطاعات وبالغ في اجتناب المحرمات وخشي من الوقوع في الآثام فبالغ في ترك الشبهات والمكروهات وفضول المباحات خشية الانجرار إلى المحظورات واتباع الخطوات.

والخشية المحمودة شرعا هي الشعور بالتقصير والاعتراف بالذنب والندم الموجب للكف عن ركوب المحرمات وتغيير الحال إلى الأحسن والمبادرة بالتوبة وعمل الصالحات لتكفير السيئات قال رسول الله ﷺ: (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ). رواه الترمذي. أما الخشية التي تقعد العبد عن العمل وتوصله للإحباط وسوء الظن بالله فمذمومة شرعا وليست من العبادة وخور وضعف في البصيرة ويجب على المؤمن إذا ابتلي بذلك أن يتخلص منه ويسعى في توظيف الخشية في غرض صحيح.

وينبغي على العبد أن لا يقتصر في عبادته لربه على مقام الخوف لأن ذلك يوجب له اليأس والقنوط وسوء الظن بالرب وهذا هو مسلك الخوارج وقد ذم السلف ذلك بل عليه أن يقرن بين الخوف بالرجاء ويوازن بينهما ويغلب أحدهما على الآخر إذا اقتضى الحال فإذا كان في حال الصحة وزينت له المعصية غلب الخوف وإذا كان في حال المرض والضعف غلب الرجاء كما هو مقرر في النصوص وكلام السلف قال الفضيل بن عياض: (الخوف أفضل من الرجاء ما دام الرجل صحيحا فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل).

والمؤمنون يتقون الله في الدنيا ويخشون عذابه قال تعالى: (قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ). ﴿٢٧ الطور﴾ أما الكفار والمنافقون فيأمنون عذاب الله في الدنيا ويفرحون ويمرحون بملذات الدنيا ولا يحسبون ليوم الحساب حسابا ولا يقيمون له وزنا قال الحسن البصري: (إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنا).

ومن مقتضى الخشية لله أن لا يخاف أحدا من شياطين الإنس والجن قال تعالى: (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ). ﴿١٧٥ آل عمران﴾ وكذلك تبليغ شرع الله وعدم محاباة أحد في دين الله قال تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا). ﴿٣٩ الأحزاب﴾

وقد ورد فضل عظيم للبكاء والحزن الناشئ عن الخوف من الله لأنه أثر ناشئ عن العبادة فيكون قربة لله قال تعالى: (إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا). ﴿٥٨ مريم﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: (لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي




الضَّـرْعِ وَلَا يَجْتَمِـعُ غُبَـارٌ فِي سَـبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّـمَ). رواه الترمذي. وذكـر النبي ﷺ في حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ). متفق عليه. وكان النبي ﷺ يبكي من خشـية الله قال عبد الله بن الشـخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيـزٌ كَأَزِيـزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُـكَاءِ). رواه أحمد. وقد عرف الصحابة بكثرة البكاء من خشـية الله قالت أمنـا عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ غلبه البـكاء). وكان عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا وقـف علـى قبر يبكي حتى تخضل لحيته من البكاء). وقال أبو رجاء: (رأيت ابن عباس وأسـفل من عينيـه مثل الشـراك البالي من البكاء). وقال عبد الله بن عمـرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لأن أدمع دمعه من خشيه الله عَزَّوَجَلَّ أحب إلى من أن أتصدق بألف دينار). وقال سفيان الثوري: (البكاء عشرة أجزاء جزء لله وتسعة لغير الله فإذا جاء الذي لله في العام مرة فهو كثير).

وقـد كان رسـول الله ﷺ من أشـد الناس خشـية لله وأعظمهم خوفـا منه قال ﷺ: (ما بَـالُ أقْوَامٍ يَتَنَزَّهُـونَ عَـنِ الشَّـيْءِ أصْنَعُهُ، فَوَاللهِ إنِّي لَأَعْلَمُهُمْ باللهِ، وأَشَـدُّهُمْ له خَشْـيَةً). متفق عليه. وكان قلبه معلقـا بالآخـرة حذرا من الذنوب والتعلـق بالدنيا وكان يخاف عذاب الله ويخشـى عقوبته إذا هبت الريح ورأى الكسوف فيظهر ذلك على وجهه ويفزع لربه وينيب له بالصلاة والذكر عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَتِ الرِّيحُ الشَّـدِيدَةُ إِذَا هَبَّتْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ). رواه البخاري. وكان يبكي من خشية الله في صلاته عن عبد الله بن الشخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي وفي صدرِه أَزِيزٌ كأَزِيزِ الرَّحى مِنَ البُكاءِ ﷺ). رواه أبو داود.

وقـد ورد عن السـلف الصالح أفعال وأقوال تـدل على امتلاء قلوبهم بالخشـية وكمال الخوف من الله قالت عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (فوالله لوددت أني كنت نسـيا منسيا). وكان عبد الله بن شداد إذا دخل الفـراش يتقلب على فراشـه لا يأتيه النـوم فيقول: (اللهم إن النار قد أذهبـت مني النوم فيقوم يصلي حتى يصبح). وقال ابن مهدي: (كنت أرمق سفيان الثوري في الليلة بعد الليلة ينهض مرعوبا ينادي: النار النار شـغلني ذكر النار عن النوم والشـهوات). وقال موسى بن سعد: (كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النـار قـد أحاطت بنـا لما نرى من خوفه وجزعـه). ومن خاف أدلج ومن أدلـج بلغ المنزل قال تعالـى: (قَالُـواْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْـفِقِينَ (٢٦) فَمَـنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّـمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ). ﴿٢٨ الطور﴾ وقال المروذي: (سـمعت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل يقول: الخوف منعني أكل الطعام والشـراب فما اشـتهيته وما أبالي أن يراني أحد ولا أراه وإني لأشتهي أن أرى عبد الوهاب قل لعبد الوهاب أخمل ذكرك فإني قد بليت بالشهرة).

وأعظـم الناس خشـية هـم أهل العلم بـالله وأمره ونهيه قـال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَـى اللهَ مِـنْ عِبَادِهِ




الْعُلَمَاءُ). ﴿٢٨ فاطر﴾ فكلما ازداد العلم ازدادت خشيته لله وكلما نقص علمه نقصت خشيته وكل من كان بالله أعرف كان منه أخوف قال بعض الصالحين: (أكثر ما يهلك الصالحين اغترارهم بالطاعات وأكثر ما يهلك المقصرين احتقارهم للمعاصي أو الصغائر ومن عرف الله تعالى حق المعرفة لم يستكثر من طاعة ولم يحتقر صغيرة).

والعلم المورث للخشية والإنابة هو علم الكتاب والسنة وآثار السلف التي تدل عليهما ليس علم المنطق والفلسفة والرأي وعلوم الدنيا فإن هذه العلوم تورث الغفلة والزهد في الآخرة قال تعالى عن الكفار: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ). ﴿٧ الروم﴾

وخشية الله توقد قلب المؤمن وتجعله حذرا من الوقوع في الغفلة والوقوع في الشبهات وتجعل نفسه لوامة على التقصير وتحمله على شدة محاسبة النفس والبعد والهروب من المهلكات والموبقات قال إبراهيم بن سفيان: (إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها).

وإذا خلا القلب من الخشية من الله أظلم وسكنت فيه شياطين الإنس والجن وصار خاويا من الخير لا يسمع الحق ولا ينزجر بالزواجر ويستبيح أقبح الجرائم كشربة الماء قال أبو سليمان الداراني: (أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وكل قلب ليس فيه خوف الله فهو قلب خرب).

ومن أعظم أحوال الخشية خشية الرب في الغيب عند استتار المؤمن من أعين الخلق وخلوته بربه قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ). ﴿١٢ الملك﴾ فخشيته بالسر أجل وأعظم من الخشية بالشهادة لأنها خالية من الرياء لا يشوبها شرك وتصنع للخلق ولا يوفق لها إلا كامل الإيمان.






ولخشية الله أسباب توجبها:

١- ذكر الله قال تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ).﴿٢ الأنفال﴾

٢- التفكر في شدة غضب الجبار وقوة انتقامه قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ).﴿١٠٢ هود﴾

٣- التفكر في الملكين الذين وكلهما الله بكتابة السيئات والحسنات. قال تعالى: (إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).﴿١٨ ق﴾

٤- التفكر في الموت وسكراته وشدة أحواله قال تعالى: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ).﴿١٩ ق﴾

٥- التفكر في عذاب القبر قال تعالى: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ).﴿٤٦ غافر﴾ وروي في سنن ابن ماجه عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِ الْقَبْرِ، فَبَكَى، حَتَّى بَلَّ الثَّرَى، ثُمَّ قَالَ: يَا إِخْوَانِي لِمِثْلِ هَذَا فَأَعِدُّوا).

٦- التفكر في أهوال الموقف وشدة الحساب يوم القيامة. قال تعالى: (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ).﴿٢ الحج﴾ وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٧- التدبر في ندم أهل الإيمان يوم القيامة في تفريطهم في الغفلة وارتكاب الذنوب في الدنيا ومصاحبة البطالين.

٨- التفكر في خطر الجوارح يوم القيامة حيث تشهد على صاحبها في ارتكاب المعاصي وتفضحه على رؤوس الأشهاد. قال تعالى: (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).﴿٢٤ النور﴾

٩- التفكر في خطر سوء الخاتمة قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا). متفق عليه.




١٠- التفكر في خطورة النار وشدتها يوم القيامة والورود عليها قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ). ﴿٦ التحريم﴾ وقال تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا). ﴿٧١ مريم﴾

وثمة موانع لسكون الخشية في القلب:

١- حب الدنيا فإن تعلق القلب بالدنيا وافتتانه بجمعها يطرد الخوف منه.

٢- طول الأمل فإن العبد إذا أحب الخلود في الدنيا لم يخش هول الآخرة وأمن الحساب.

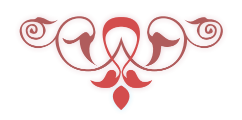
٣- الغفلة وكثرة الذنوب فإن القلب إذا حجب بالظلمات رحل عنه الخوف.

٤- الجهل بشدة عذاب الله وقوة بطشه وانتقامه بمن عصاه فإن جهل العبد بذلك يورثه الاستخفاف بربه ويذهب عنه الخوف.

٥- صحبة الفجار الذين يأمنونه من مكر الله ويجرؤنه على ارتكاب الفواحش فتزول عنه الخشية لله.

٦- تضييع الفرائض والإعراض عن ذكر الله حتى يقسو القلب وإذا قسا القلب زالت عنه الخشية.

ومن خاف الله في الدنيا أمنه الله يوم القيامة ومن أمن عذابه في الدنيا أخافه الله يوم القيامة فلا يجمع الله على عبده أمنين وخوفين. فهنيئا لمن خافه حق الخوف وخشي من عقوبته وغضبه في الدنيا ليفوز بأمنه يوم القيامة والموفق من فتح عليه باب الخشية والإنابة وأغلق عليه باب الأمن والغفلة وطول الأمل.






قلب المؤمن بين الخوف والرجاء

المؤمن يسير إلى ربه في هذه الدنيا لينال ثواب الله ومرضاته ويفوز بالجنة فيعبد الله حق عبادته في سائر حياته حتى يلقاه غير مبدل ولا مفتون. قال تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ). ﴿٩٩ الحجر﴾

وهناك أعمال قلبية ومقامات إيمانية تحدو العبد للعمل وتيسر سيره إلى الله وتحثه على المجاهدة والرباط في الطاعة ومن أهمها مقام الرجاء ومقام الخوف.

والخوف من الله من أجل أعمال القلوب قال تعالى: (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). ﴿١٧٥ آل عمران﴾ وقال تعالى: (وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ). ﴿٤٠ البقرة﴾ وحقيقة الخوف في قلب المؤمن أن ينزعج قلبه ويضطرب من توقع عقوبة الله وغضبه وانتقامه من ارتكاب محرم أو تفريط في واجب أو غفلة عن ذكر الله وأن يشفق من عذاب الله وأن يخاف أن يكون حاله حال أهل النار واستقراره فيهم. والخوف من الله سراج في قلب المؤمن.

والخوف من الله يحمل المؤمن على الكف عن محارم الله وحدوده والحذر الشديد من الوقوع في أسباب سخط الله وغضب الله ولعنة الله فينزجر قلبه عما حرم الله ويتقي بجوارحه من الوقوع في الفواحش والآثام. فالخوف هو السبيل والطريق الذي يمنع المؤمن من الشهوات خشية الوقوع في العقوبة قال تعالى: (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ). ﴿٥٠ الحجر﴾ وقال تعالى: (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا). ﴿٥٧ الإسراء﴾

والخوف المحمود شرعا هو الذي يحث على فعل الصالحات وترك المحرمات أما إذا زاد عن حده وغلا فيه العبد أفضى به إلى اليأس والقنوط من رحمة الله وانقطع عنه الرجاء في الله فغلب على ظنه أنه هالك في الآخرة لكثرة ذنوبه أو أنه منافق لمخالفة فعله قوله في بعض الأحوال أو أن الله لا يقبل توبته لوقوعه في الفواحش وإسرافه على نفسه أو أن توبته لا تصح من الكفر ولا يقبل الله إسلامه وكل هذا مخالف للشرع خارج عن منهج أهل السنة قال تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). ﴿٥٣ الزمر﴾ والقنوط من رحمة الله كبيرة من الكبائر قال تعالى: (قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ). ﴿٥٦ الحجر﴾ وإنما يقع العبد في اليأس من رحمة الله لجهله برحمة الله وسعة عفوه وكرمه وجوده بعباده المؤمنين وجهله بفضل التوحيد وإخلاص العبادة لله وجهله بسنة النبي ﷺ ومذهب السلف الصالح وجهله بفضل التوبة وتكفيرها للآثام ومحوها للسيئات وعدم تحصنه من الشيطان اللعين وعدم حذره من كيده وشبهاته ووساوسه. فاليأس من قنوط رحمة الله حالة شيطانية يغلو فيها




العبد المسرف في الذنوب في الخوف من عذاب الله ويغلق باب الرجاء على نفسه ويسيء الظن بربه ويعطل صفات الرحمة والعفو والمغفرة والعياذ بالله قال ابن القيم: (لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط واليأس من رحمة الله فإن هذا الخوف مذموم وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه وهذا الخوف الموقع في الإياس إساءة أدب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها). ومن تأمل في سعة رحمة الله وعظيم كرمه لم يقنط من رحمته فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (إنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يومَ خَلقَها مِئَةَ رَحْمَةٍ، فأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً، وأَرْسَلَ في خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً واحِدَةً، فلوْ يَعْلَمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ العَذابِ لَمْ يَأْمَن مِنَ النَّارِ). رواه البخاري. ومن القنوط من رحمة الله والتألي على الله أن يحكم على المجتمع بالهلاك كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ، فهُوَ أهْلَكُهُمْ).

وحقيقة الرجاء في قلب المؤمن هو طمعه في نيل رضا الله ومحبته ورحمته وثوابه من نعيم الجنة وطمعه في حال أهل الجنة ودخوله فيهم قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). ﴿٢١٨ البقرة﴾ وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى، إِذْ وَجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِها، فَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ المَرْأَةَ طارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟ قُلْنَا: لا وَاللهِ، فَقالَ: للهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا). متفق عليه.

والرجاء في وعد الله وعطائه يحمل المؤمن على الاستمرار في فعل الطاعات والمسابقة في الخيرات والاجتهاد في استغلال الأوقات فيما يعود عليه بالنفع في الآخرة فقلبه معلق بنعيم الله وما أعده للمتقين في الآخرة وجوارحه مسخرة في الصالحات فهو يطمع أشد الطمع بالفوز بالجنة والرضا. فالرجاء هو السبيل والطريق الذي يسوق المؤمن ويحدوه لفعل الصالحات.

أما الرجاء مع التفريط في العمل فليس برجاء صحيح وإنما هو مجرد تمني لا يسمن ولا يغني من جوع قال ابن القيم: (الفرق بين الرجاء وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها ويأخذ زرعها. والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع فمن عمل بطاعة الله ورجا ثوابه أو تاب من الذنوب ورجا مغفرته فهو الراجي ومن رجا الرحمة والمغفرة بلا طاعة ولا توبة فهو متمن ورجاؤه كاذب).




والمؤمن الطامع في رحمة الله الراجي رضا الله ونعيمه الدائم لا يعتمد على عمله الصالح ولكن يلتفت قلبه إلى سعة رحمة الله وكثرة مغفرته وعظيم إحسانه لأنه يوقن أنه لا يدخل أحد الجنة ولا ينجو أحد في الآخرة من النار إلا برحمة الله كما أخبر النبي ﷺ بقوله: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لا، وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ). متفق عليه. وقال ابن تيمية: (ليس العمل عوضا وثمنا كافيا في دخول الجنة بل لا بد من عفو الله وفضله ورحمته فبعفوه يمحو السيئات وبرحمته يأتي بالخيرات وبفضله يضاعف البركات).

والمؤمن ذو القلب الحي إذا قرأ نصوص الوعيد والعذاب وأحوال الكفار والمعاندين والفساق واتصافهم بخزي الدنيا وعذاب الآخرة أصابه القلق والذعر والخوف الشديد من دخوله فيهم. وإذا قرأ نصوص الوعد والرجاء والنعيم وأحوال الأنبياء والمتقين واتصافهم بالذكر الحسن في الدنيا والفلاح في الآخرة طار قلبه فرحا واشتاق لبلوغ الجنة وسأل الله أن يكون منهم. فالعلم بشدة العقاب يوجب الخوف والعلم بسعة الرحمة يوجب الرجاء ولهذا ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ). وقال ابن القيم: (وللسالك إلى ربه نظران: نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف ونظر إلى سعة رحمة الله وفضله العام والخاص به يفتح عليه باب الرجاء).

وينبغي على المؤمن أن يوازن في نظره بين رحمة الله وبين عقوبته بين خوف الله وبين رجائه فيحمله الخوف من العقوبة والآثام على الكف عن المحرمات والشبهات ويحمله الطمع في الرحمة والثواب على فعل الطاعات والاستكثار من الخيرات فإن دعته نفسه للمعصية تذكر الخوف من الله وإن دعته نفسه لترك الطاعة ذكرها بالرجاء في الله قال تعالى في وصف المتقين: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ). ﴿٥٧ الإسراء﴾ فالصالحون يسابقون في الخيرات وهم يطمعون في رحمة الله ويخافون عذاب الله قال ابن القيم: (القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ومتى قطع الرأس مات الطائر ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر). فالخوف والرجاء للمؤمن بمنزلة الجناحين للطائر إذا فقد أحدهما لم يستطع السير إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

والمؤمن ينبغي له أن يغلب جانب الخوف وقت الصحة والغنى وإقبال الشهوات ويغلب جانب الرجاء وقت المرض واليأس والخروج من الدنيا ويلاحظ ما يطرأ عليه في حياته فليكن طبيب قلبه يغلب الجانب الأصلح لحاله فإن رأى أن نفسه متشوفة لارتكاب الشهوات المحرمة غلب جانب




الخوف فكفها وزجرها عن ذلك وإن رأى أنه مستغرق في الطاعة وأصابه الملل منها غلب جانب الرجاء فحثها على ذلك قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءانَاء ٱلَّيْلِ سَـٰجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ ٱلآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبّه﴾. ﴿٩ الزمر﴾ قال ابن كثير: (أي: في حال عبادته خائف راج ولا بد في العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾. فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه). ومقياس التوازن في قلب المؤمن أن تكون جوارحه ممتثلة لفعل الفرائض والكف عن فعل المحرمات والخلل في ترك أحدهما.

وسير المؤمن بين الخوف والرجاء هو سبيل الأنبياء والسلف الصالح الذين يعبدون الله بالمحبة والخوف والرجاء قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. ﴿٩٠ الأنبياء﴾ قال السفاريني: (حال السلف رجاء بلا إهمال وخوف بلا قنوط ولابد من حسن الظن بالله تعالى). أما الاقتصار في العبادة على مقام الخوف أو الاقتصار على مقام الرجاء أو مقام الحب فيحدث خللا ظاهرا وانحرافا في السلوك وهو مسلك أهل البدع المخالفين للسنة قال مكحول: (من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد سني). فمن شاهد بقلبه محبة الله فقط اجترأ على السيئات وانسلخ من الدين وهذا مذهب الزنادقة. ومن شاهد بقلبه رجاء الله فقط عطل الشرع وأهمل العمل وأعان الفساق على فجورهم وهذا مذهب المرجئة. ومن شاهد بقلبه خوف الله فقط غلا في العبادة وقنط من رحمة الله وضيق على نفسه وغيره وهذا مذهب الخوارج. ومن جمع بين هذه المقامات الثلاثة وشاهدها بقلبه فقد عبد الله حقا وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

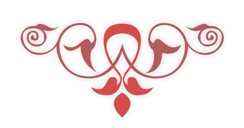
وليس من الفقه ذكر نصوص الرجاء عند أهل الغفلة والمجون من دخول الجنة لمن قال كلمة التوحيد وغير ذلك مما يدل على سعة رحمة الله وعفوه لأن ذلك يجرؤهم على فعل المعاصي والاتكال على رحمة الله فيتركون العمل ويسوفون التوبة فلسان حالهم يقول ما دام أن الله رحيم فافعل ما شئت وفي الصحيحين عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و سلم عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ. قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وما حقُّ العبادِ عَلَى الله؟ قَالَ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهِ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ. فَيَتَّكِلُوا).

وليس من الفقه ذكر نصوص الوعيد والعذاب عند أهل التوبة المقلعين عن المعاصي النادمين على إسرافهم المتحسرين من نار الذنوب لأن ذلك يوقعهم في اليأس والقنوط من رحمة الله فينقطعون




عن التوبة ويسيؤون الظن بربهم كما حصل في قصة الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا ثم أراد أن يتوب وسأل راهبا جاهلا فيأسه من رحمة الله وأغلق عليه باب التوبة كما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ؟ فقالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِئَةً). وكان النبي ﷺ يرفق بالتائبين ويفتح لهم باب التوبة ويبشرهم برحمة الله ويهون عليهم سبيل التوبة.

ومن أخطاء بعض الفساق أنه يسرف على نفسه بالمعاصي فإذا نوصح اتكأ على رجاء رحمة الله وقال إن الله غفور رحيم ونسى وتناسى الخوف من عذاب الله وأن عذابه عذاب أليم ولهذا قال تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ).﴿٥٠ الحجر﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: (أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ): (يعني لمن تاب منهم). فهذه الآية جمعت بين مقام الخوف ومقام الرجاء. وكذلك فعله ليس برجاء لأن تركه للواجبات وإتباعه للشهوات وتمنيه على الله يعد من الأمن من مكر الله فهو يخادع نفسه. وفي المقابل من يشدد في الدين ويضيق على المسلمين ويقع في اليأس والقنوط فإن ذكر اتكأ على خوف الله ونسي وتناسى سعة رحمة الله وعظيم ثوابه.






حمد الله تعالى

عبادة الحمد لله من أشرف العبادات وأعلى مقامات العبد التي لا تطيب حياة المؤمن إلا بها ولا تسكن جوارحه ويخشع قلبه ويطمئن فؤاده إلا بالمداومة عليها قال تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ). ﴿٥٩ النمل﴾ وقال تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً). ﴿١١١ الإسراء﴾ وقال تعالى في ثبوت الحمد له في الدنيا والآخرة: (وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). ﴿٧٠ القصص﴾

والحمد لله هو الثناء الكامل على الله بذكر فضائله وأفعاله الحسنة وأسمائه الحسنى وصفاته العلى مع التذلل والخضوع والمحبة له أما الثناء وذكر الفضائل بلا محبة ولا تعظيم فمجرد مدح للمخلوق ولا يليق بالخالق ولا يترتب عليه الثواب الأخروي قال ابن القيم: (فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مع محبته والرضا عنه؛ فلا يكون المحب الساكت حامدًا، ولا المثني بلا محبة حامدًا، حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيء كانت ثناءً، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدا). والحمد يتضمن إقرار العبد بغنى الله وكماله وافتقاره إلى هدايته ونعمه فقلبه موقن أن المنعم والمتفضل هو الله تعالى.

والحمد لله من أطيب الكلام لحديث سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال ﷺ: (أَحبُّ الكَلامِ إلى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلَهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ. لا يَضُرُّكَ بأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ). رواه مسلم. والله سبحانه يحب المدح عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذلكَ مَدَحَ نَفْسَهُ). متفق عليه.

والحمد لله تعالى يكون بسبب حدوث النعمة وبدونها فهو مشروع في سائر الأحوال وهو خاص بآلة اللسان أما الشكر فمحله عند حدوث النعمة ويكون بالقلب واللسان والجوارح فبين الحمد والشكر عموم وخصوص.

والله تعالى وحده مستحق للحمد المطلق قال تعالى: (الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ). ﴿٤ الفاتحة﴾ لأنه الخالق والمالك والمدبر والرازق حقيقة والمتفضل على أوليائه وأعدائه بجميع أنواع النعم ولأن له الكمال المطلق في جلاله وجماله فهو محمود بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله فلا يقضي سبحانه ولا يقدر ولا يحكم ولا يختار ولا يفضل إلا أمرا محمودا لا نقص فيه ولا عيب بوجه من الوجوه.




والله مـن أسـمائه الحميد لكثرة محامـده وكثرة من يحمده من الخلائق قـال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَـزِّلُ الغَيْـثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُـرُ رَحْمَتَهُ وَهُـوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ).﴿٢٨ الشـورى﴾ فله الحمد حمدا كثيرا بعدد خلق السـموات والأرض وما شـاء ربنا مما لا يحصيه إلا الله والله أهل الثناء والمجد قال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ قَالَ: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءِ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ). رواه مسلم.

وعبادة الحمد مشروعة في جميع الأحوال وتتأكد في أحوال:

١- عند الأكل: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسـول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْـرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا). رواه مسلم. وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنَّ النبـيَّ ﷺ كانَ إذَا رَفَـعَ مَائِدَتَهُ قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غيرَ مَكْفِيٍّ ولَا مُوَدَّعٍ ولَا مُسْتَغْنًى عنْه، رَبَّنَا). رواه البخاري. وهذا يدل على أن حمد الله سبب لنيل رضا الله على العبد.

٢- عنـد النوم والاسـتيقاظ: كما روى حذيفة بـن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كانَ النَّبـيُّ ﷺ إذَا أرَادَ أنْ يَنَامَ قالَ: باسْـمِكَ اللَّهُمَّ أمُوتُ وأَحْيَا، وإذَا اسْـتَيْقَظَ مِن مَنَامِهِ قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أحْيَانَا بَعْدَ ما أمَاتَنَا وإلَيْهِ النُّشُورُ). رواه البخاري. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ إذَا أوَى إلى فِرَاشِهِ، قالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا، فَكَمْ مِمَّنْ لا كَافِيَ له وَلَا مُؤْوِيَ). رواه مسلم.

٣- عند العطاس: كما ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (إذا عَطَسَ أحَدُكُمْ فَلْيَقُل: الحَمْدُ لِلَّـهِ، ولْيَقُـلْ لَهُ أخُـوهُ أوْ صاحِبُهُ: يَرْحَمُـكَ اللهُ، فإذا قالَ لَـهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَلْيَقُـلْ: يَهْدِيكُمُ اللهُ ويُصْلِحُ بالَكُمْ).

٤- عند لبس الثوب الجديد: لما في سـنن أبي داود: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوْبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ إِمَّا قَمِيصًا أَوْ عِمَامَةً ثُمَّ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ كَسَـوْتَنِيهِ أَسْـأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صُنِعَ لَهُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ).

٥- عند ركوب الدابة: كما ورد: (الحمدُ للهِ ثمَّ قالَ (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبونَ). ثمَّ قالَ الحمدُ للهِ ثلاثَ مرَّاتٍ ثمَّ قالَ اللهُ أكبرُ ثلاثَ مرَّاتٍ ثمَّ قالَ سـبحانَك إنِّي ظلمتُ نفسِـي فاغفِر لي فإنَّهُ لا يغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ). رواه أبوداود. وقال تعالى: (لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْـتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُـبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ).﴿١٣ الزخرف﴾ وهذا الذكر عام في مراكب البر والبحر والجو.




٦- في مواطن الصلاة: كما ثبت في الأحاديث الصحيحة فيقول في الاستفتاح: (اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا). وفي الركوع والسجود: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي). وفي الرفع من الركوع: (رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، مِلْءِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءِ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ، اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ).

٧- دبر الصلوات المكتوبات: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ: تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ). رواه مسلم.

٨- في تلبية الحج: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لكَ لَبَّيْكَ، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لكَ والمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ). رواه البخاري.

٩- في استفتاح صلاة التهجد: كما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: (اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ).

١٠- عند ابتداء الخطبة والموعظة: لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (لَمَّا فَتَحَ اَللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مَكَّةَ، قَامَ رَسُولُ اَللهِ ﷺ فِي اَلنَّاسِ، فَحَمِدَ اَللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ). متفق عليه. وقال ابن القيم: (وكان لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله).

١١- عند ابتداء الدعاء: لقوله ﷺ: (إِذَا صَلَّى أَحدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ اللهِ والثَّناءِ عَلَيهِ ثُمَّ لَيُصَلِّ عَلَى النَّبيِّ ﷺ ثُمَّ لَيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ). رواه الترمذي.

والحمد لله لها فضائل عظيمة لا يحصيها إلا الله فهي تملأ الميزان كما في صحيح مسلم: (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ). والحمد لله حبيبة للرحمن وثقيلة في الميزان كما في الصحيحين: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ). وهي أفضل الدعاء وأفضل الذكر كما ورد في جامع الترمذي وهي غراس الجنة من الشجر كما ورد في جامع الترمذي ومن قالها كتبت له حسنات ومحيت عنه خطيئات كما في مسند أحمد: (ومَنْ قَالَ: الحَمدُ للهِ ربِّ العالَمِينَ، من قِبَلِ نَفْسِهِ كُتِبَتْ لهُ ثلاثُونَ حَسَنةً وحُطَّ عنْهُ ثلاثُونَ خَطيئَةً). وقال الحسن: (ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها). وذلك لأن الدنيا فانية والحمد باقية من الباقيات الصالحات. وأهل




الجنـة يختمون كلامهم بالحمد قال تعالى: (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). ﴿١٠ يونس﴾ وقد أخبر النبي ﷺ عنهم بأنهم: (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والْحَمْدَ، كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ). رواه مسلم. والتلفظ بالحمد يبارك للعبد في الأمور وييسرها عليه لأن بركة الله تنال بذكره وتمجيده.

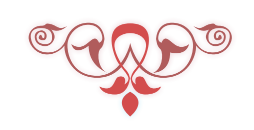
والمؤمن إذا حمد الله في السـراء والضراء شـعر برضا ويقين في روحه واستسـلام مطلق لله لأنه فوض أمره لله ورضي بقضائه وقدره واعترف وأقر أن النعم من الله ليست منه ولا حول له ولا قوة في حصولها لأنه فقير إلى الله وعاجز عن الإحاطة بالنعم وجاهل بجميع أسباب النعم.

وقـد كان النبـي ﷺ كثير الحمد لربه ولذلك سـمي أحمد لكثرة حمده لربـه فقد كان يثني على الله بما هو أهله في سـائر الأحوال لكمال معرفته بأسـماء الله وصفاته وأفعاله وفضله وعدله ورحمته ولما كان ﷺ أحمد الخلائق بالله وأعظمهم قياما بحمده أعطي لواء الحمد يوم القيامة قال: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَـوْمَ القِيَامَـةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِـوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ). رواه الترمذي. وقال محمد بن كعب: (كان نوح عليه السلام إذا أكل قال الحمد لله وإذا شرب قال الحمد لله وإذا ركب قال الحمد لله فسماه الله عبدا شكورا).

وكان الحسن البصري إذا جلس مجلسا يقول: (اللهم لك الحمد بالإسلام ولك الحمد بالقرآن ولك الحمد بالأهل والمال بسـطت رزقنا وأظهرت أمتنا وأحسـنت معافاتنا ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنـا فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا وصرفت شـرا كثيرا فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد الحمد لله رب العالمين).

فينبغـي للمؤمـن أن يكون من الحمادين لله في السـراء والضراء في السـر والعلـن ليفوز بالثواب وصحبـة النبـي ﷺ ويدخل الجنة قال سـعيد بن جبيـر: (أول من يدعى إلى الجنـة الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء).

فالحمـد لله رب العالمين حمدا كثيـرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنـا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهـه وعـز جلاله حمدا يملأ السـموات والأرض وما بينهما وما شـاء ربنا من شـيء بعد بمجامع حمـده كلهـا ما علمنـا منها وما لـم نعلم على نعمه كلهـا ما علمنا منهـا وما لم نعلم عـدد ما حمده الحامدون وغفل عن ذكره الغافلون وعدد ما جرى به قلمه وأحصاه كتابه وأحاط به علمه.






شكر الله تعالى

شكر الله تعالى فيه حياة للمؤمن لأنه يحاول أن يوفي شيئا يسيرا من حق الله عليه وهو من شيمة أهل الوفاء والشهامة والمروءة قال تعالى: (بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ).﴿٦٦ الزمر﴾

والدين تدور رحاه على مقام الصبر ومقام الشكر والعبد في الدنيا له حالان إما حال تسره فيقابلها بالشكر وإما حال تسوءه فيقابلها بالصبر عن صهيب الرومي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ). رواه مسلم. وقال المغيرة بن عامر: (الشكر نصف الإيمان والصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله).

والشكر سببه حصول النعم واندفاع النقم فإذا وقع ذلك شرع في مقابل ذلك شكر العبد لله تعالى قال تعالى: (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ).﴿١١٤ النحل﴾ ولذلك يشرع للعبد سجود الشكر إذا حصلت له نعمه أو تجددت كما ثبت في السنة.

والشكر هو المجازاة على الإحسان بالثناء على المحسن وحقيقة الشكر شرعا أن يعترف المؤمن بحصول النعمة من المنعم ويقر بذلك بلسانه ويستعمل تلك النعمة في طاعة الله قال ابن القيم: (الشكر وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا وعلى قلبه شهودا ومحبة وعلى جوارحه انقيادا وطاعة).

والشكر له ثلاثة أركان لا يصح إلا بها:

الأول: أن يشهد بقلبه بنسبة النعمة للمنعم الحق مع المحبة والخضوع له قال تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ).﴿٥٣ النحل﴾ فالله عَزَّوَجَلَّ هو المتفرد بالعطاء والإحسان.

الثاني: أن يثني على الله بلسانه وينسب الفضل لله وحده ويتبرأ من حوله وقوته قال تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).﴿١١ الضحى﴾ قال أبو نضرة: (كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها). وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك).

الثالث: أن يستعمل النعمة ويسخرها في طاعة الله ولا يستعملها في سخط الله ومعاصيه قال تعالى: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).﴿١٣ سبإ﴾ قال مخلد بن حسين: (كان يقال: الشكر ترك المعاصي).

وينبغي للمؤمن العاقل أن يفقه الفرق العظيم بين التحدث بنعمة الله والفخر بها فالتحدث بنعمة الله




معناه الثناء على الله وتنبيه الخلق لشكر الله وإظهار الافتقار لله فحقيقته التذلل والخضوع لله أما الفخر بالنعمة فمعناه التباهي بها والاستطالة على الخلق وإظهار العلو عليهم والخيلاء بالنفس فحقيقته الكبر قال ابن القيم: (الفرق بين التحدث بنعم اللّه والفخر بها أن المتحدث بالنعمة مخبر عن صفات وليها ومحض جوده وإحسانه فهو مثن عليه بإظهارها والتحدث بها شاكرا له ناشرا لجميع ما أولاه مقصود بذلك إظهار صفات اللّه ومدحه والثناء وبعث النفس على الطلب منه دون غيره وعلى محبته ورجائه فيكون راغبا إلى اللّه بإظهار نعمه ونشرها والتحدث بها. وأما الفخر بالنعم فهو أن يستطيل بها على الناس ويريهم أنه أعز منهم وأكبر فيركب أعناقهم ويستفيد قلوبهم ويستميلها إليه بالتعظيم والخدمة).

والشكر سبب عظيم لثبوت النعم وزيادتها قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ). ﴿٧ ابراهيم﴾ وقال عمر بن عبد العزيز: (قيدوا نعم الله بشكر الله). وقال ابن القيم: (ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ لأنه يحفظ النعم الموجودة والجالب لأنه يجلب النعم المفقودة). فكلما شكر العبد زاده الله في نعمته وأحدث له نعمة أخرى حسية أو معنوية.

أما إذا جحد العبد النعمة بقلبه ولم يعترف بأنها من الله أو أنكر بلسانه أو استعملها واستعان بها في معصيته لم يكن شاكرا لله بل كان كافرا بنعمة الله واقعا في الكفر الأصغر قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ). ﴿١٥٢ البقرة﴾

وكفر النعم وجحودها سبب عظيم لزوال النعم قال تعالى: (وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ). ﴿٧ ابراهيم﴾ وقال تعالى مبينا حال تلك القرية العظيمة التي كانت ترفل بالنعم والأمن ثم كفرت بنعم الله: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). ﴿١١٢ النحل﴾ وكم زالت النعم والأمن وحل الهلاك والخوف والجوع ووقع التشرذم والتفرق وسقطت الدول في كثير من بلدان المسلمين عبر التاريخ لما كفروا بالنعم وأظهروا الفواحش وركنوا إلى الدنيا وبدلوا شرع الله وأمنوا مكر الله وفرحوا بطرا كذهاب دولة الأندلس وغيرها من ممالك المسلمين.

والذين ينسبون نجاحهم وتفوقهم لذكائهم وجهدهم أو ينسبون تجارتهم لحذقهم وصبرهم والذين يستعملون نعم الله في المعاصي في شرب الخمور والفواحش والربا واستعباد الأحرار كل هؤلاء ليسوا من الشاكرين للنعم بل داخلون في كفر النعم وجحودها ويشملهم الوعيد وفعلهم مذموم شرعا قال تعالى: (فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ). ﴿٤٩ الزمر﴾ قال قتادة: (على خير عندي).




ومن كمال شكر الله شكر المخلوق إذا أسدى نعمة لغيره فيشكره لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (لَا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ). رواه أحمد. لكن الشكر المطلق يكون لله لأنه هو المنعم حقيقة وهو الذي سخر المعطي لخدمة أخيه المؤمن ووهبه النعم قال تعالى: (وَاشْكُرُواْ للهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ).﴿١٧٢ البقرة﴾

وأعظم المخلوقين الذين يسدى لهم الشكر الوالدان قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ).﴿١٤ لقمان﴾ قال سفيان بن عيينة: (من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما). وذلك لعظيم حقهما بما بذلاه من الإحسان والعناء وتجشمها المشاق الكثيرة في سبيل تربية الولد ومن ترك شكرهما كان جاحدا كافرا بنعمة الله ولو أحسن لجميع الناس.

ومن اعترف لله بقلبه وأثنى عليه بلسانه أتى بشكر يرضي ربه قال ابن رجب: (قال سليمان التيمي: إن الله أنعم على العباد على قدره وكلفهم الشكر على قدرهم حتى رضي منهم من الشكر بالاعتراف بقلوبهم بنعمه وبالحمد بألسنتهم عليها كما خرجه أبو داود والنسائي من حديث عبدالله بن غنام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: من قال حين يصبح اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر فقد أدى شكر ذلك اليوم ومن قالها حين يمسي أدى شكر ليلته).

وإذا داوم العبد على الفرائض وأقبل على الله بالنوافل وكثرة الذكر والدعاء والمناجاة واستعمل جوارحه فيما يرضي الله وحمد الله في السراء والضراء كان عبدا محققا لكمال الشكر موصوفا بالعبد الشاكر داخل في نصوص الشكر وفي الصحيحين عن أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حتَّى تتفطَرَ قَدمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ، لِمْ تصنعُ هَذَا يَا رسولَ اللهِ، وقدْ غفرَ الله لَكَ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنبِكَ وَمَا تأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عبْداً شكُوراً؟).

وأسباب تقصير العبد في شكر المنعم كثيرة من أهمها الغفلة عن إدراك النعم التي يرفل فيها وعدم التأمل في تغير أحواله السابقة إلى الأفضل والغرور والإعجاب بقدراته الخاصة وجاهه وأخطر أمر على قناعة المؤمن أن يرفع بصره ويتطلع بقلبه إلى من فضله الله عليه في الدنيا ووسع عليه في زينتها فيؤدي ذلك إلى ازدراء النعمة التي هو فيها ويزهد في النعمة التي بين يديه ويشتغل قلبه بالطمع عن القيام بشكر الله وهذا هو حال كثير من الناس اليوم والله المستعان وقد نهانا النبي ﷺ عن ذلك كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ). رواه مسلم.




ومن أسـماء الله الشاكر قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.﴿١٥٨ البقرة﴾ والشكور قال تعالى: ﴿وَاللهُ شَـكُورٌ حَلِيـمٌ﴾.﴿١٧ التغابن﴾ فـالله عَزَّوَجَلَّ من عظيم كرمـه يعطي الكثير من الأجر على العمل اليسـير ويغفر الكثير من الذنب ويضاعف الأجور أضعاف مضاعفه ولذلك شـكر للزانية على سـقيها الكلب فأدخلها الجنة وشـكر للرجل الذي أزال عن الطريق الغصن وغفر له وإحسانه عظيم وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (مَن تَصَدَّقَ بعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْـبٍ طَيِّبٍ، ولا يَصْعَدُ إلى اللهِ إلَّا الطَّيِّبُ، فإنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُها بيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيها لِصاحِبِهِ، كما يُرَبِّي أحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ).

وثمة أمور تعين على أداء الشكر لله:

١- الدعـاء عـن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أَنَّ رَسُـولَ اللهِ ﷺ، أَخَذَ بِيَـدِهِ وَقَالَ: يَا مُعَـاذُ واللهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ، ثُـمَّ أُوصِيـكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُـكْرِكَ، وَحُسْـنِ عِبَادَتِكَ). رواه أبو داود. والأقرب أن هذا الدعاء يقال في آخر الصلاة قبل السـلام لأن النبي ﷺ قال بعد التشـهد: (ثُمَّ لْيَتَخَيَّرْ بَعْدُ مِنَ المَسْـأَلَةِ مَا شـاءَ). رواه مسـلم. وإن دعا به بعد الفراغ من أذكار الصلاة فحسن. فيحسن بالمؤمن أن يكثر الدعاء بتيسير الشكر في كل الأحوال.

٢- اسـتحضار كمال قدرة الله وغناه المطلق وكمال رحمته ولطفه بالعباد وكمال حلمه وأنه يتفضل على عباده بالنعم ويغمرهم برحمته ويجود عليهم رغم تقصيرهم معه قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْـكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.﴿١٢ لقمان﴾

٣- التفكـر في كثرة النعم التي لا يسـتطيع العبد أن يحصيها من إيمان وعلم وأمن وسـلامة في البدن والمال والأهل والولد وغير ذلك فكل نعمة يتولد منها نعم كثيرة فالتفكر في النعم يورث الشكر قـال تعالـى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَـةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيـمٌ﴾.﴿١٨ النحل﴾ وقال عمر بن عبد العزيز: (تذاكروا النعم فإن ذكرها شـكر). ومن أراد أن يعرف قدر النعم فلينظر في أضدادها قـال ابن الجوزي: (والله ما يعرف قدر النـوم إلا من طرقه الألم بالليل ولا يعرف قدر العافية إلا مـن ألم بـه ألم فالعجب لمن أصبح سـليم البدن معافى من ألم صحيح الخلقـة عنده قوت يومه كيف لا يجد في الشكر).

٤- التفكـر في أنه لا يسـتطيع أحـد أن يعبد الله حق عبادتـه ولا يقوم بحقوقه لعجـزه وغفلته وجهله فيجتهد في تحقيق الشكر على حسب وسعه.

٥- التأمـل في عظيم جزاء الشـكر في الآخرة وثوابه العاجل في الدنيـا والتأمل في عذاب كفر النعم في الآخرة ومحق النعم في الدنيا.




٦- التفكر في عظم السؤال والوقوف بين يدي الله عن شكر النعم التي أسداها الله لعباده قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ). ﴿٨ التكاثر﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير النعيم: (النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم).

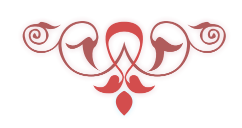
وقال مجاهد: (عن كل لذة من لذات الدنيا).

٧- النظر إلى أحوال الفقراء والمساكين والمتضررين الذي أنزل منه فيدرك قلبه عظيم النعم التي هو فيها فيحدث ذلك شكرها لتثبت وتزيد.

والمؤمن إذا شاهد نعمة تذكر حق المولى عليه وأحدث ذلك في نفسه شكر عظيم لمولاه كما حصل للنبي سليمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لما سمع كلام النملة فاستشعر عظيم نعمة الله عليه بسعة ملكه وتسخير البهائم له ومعرفته منطقهم فشكر الله في الحال وخضع قلبه لله قال تعالى: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ). ﴿١٩ النمل﴾

وقد أدرك السلف الصالح فضل الشكر وحقيقته ومنزلته في الدين وتنوعت عباراتهم في هذا المقام قال مطرف بن عبد الله: (لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أبتلى فأصبر). وقال الحسن البصري: (إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا). وقال أبو قلابة: (لا تضركم دنيا إذا شكرتموها). وقال عون بن عبد الله: (قال بعض الفقهاء: إني نظرت في أمري لم أرى خيرا إلا شرا معه إلا المعافاة والشكر فرب شاكر في بلائه ورب معافى غير شاكر فإذا سألتموهما فاسألوهما جميعا).

وقال سهل التستري: (الشكر الاجتهاد في ذل الطاعة مع اجتناب المعصية في السر والعلانية).






فضيلة الصبر

الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد فلا إيمان لمن لا صبر له ومقام الصبر من أعظم مقامات الإيمان لأنه يكف عن اجتراح السيئات والوقوع في الشبهات ويحمي العبد عن سلوك قبائح العادات ويقويه على فعل القرب والطاعات ويثبته عند نزول المدلهمات قال تعالى: (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١١٥ هود﴾

والصبر لغة المنع والحبس وهو نقيض الجزع وسمي الصوم صبرا لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح. ومعناه في الاصطلاح هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به المرء من فعل ما لا يحسن ولا يجمل وحقيقته شرعا حبس النفس عن كل ما يسخط الله في القلب واللسان والجوارح قال سعيد ابن جبير: (الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر).

والصبر واجب بإجماع العلماء قال تعالى: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ). ﴿٧ المدثر﴾ ومما يبين أهمية الصبر وعظم منزلته في الدين أن الله ذكره في كتابه في تسعين موضعا على ستة عشر نوع لكل نوع منها فائدة جليلة قال أحمد بن حنبل: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعا).

وقد وصف النبي ﷺ الصبر بأنه ضياء بقوله: (والصَّبْرُ ضِيَاءٌ). رواه مسلم. والضياء هو النور المصحوب بالإحراق كنور الشمس قال ابن رجب: (ولما كان الصبر شاقا على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء فإن معنى الصبر في اللغة الحبس ومنه قتل الصبر وهو أن يحبس الرجل حتى يقتل).

ومما يدل على أهمية الصبر وشدة حاجته أن المؤمن يتقلب في الدنيا بين حالين إما السراء فيشرع له الشكر أو الضراء فيشرع له الصبر فإذا أنعم عليه أحسن وإذا ابتلي حبس نفسه عن القول والفعل المحرم وكل ذلك خير لأنه ممتثل لعبادة يحبها الله مناسبة للحال التي نزلت به وقد قال رسول الله ﷺ: (عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ). رواه مسلم.

وقد كان رسول الله ﷺ سيد الصابرين في القيام بالفرائض واجتناب النواهي والصبر على الشدائد وكان من أصبر الناس عند نزول البلاء وضرب أروع الأمثلة في صنوف الصبر وأحواله فصبر على أذى قومه حين جهر بالدعوة وصبر على حصارهم له بالشعب وصبر على هجرته وتركه بلده وقومه وماله في سبيل الله وصبر على مشقة الجهاد وصبر على الزهد والتقلل من ملذات الدنيا




وصبر على الوقيعة في عرض أهله وصبر على أذى المنافقين وورد في الصحيحين قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قَسَمَ النبيُّ ﷺ قِسْمَةً كَبَعْضِ ما كانَ يَقْسِمُ، فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ: واللهِ إنَّها لَقِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بها وجْهُ اللهِ، قُلتُ: أمَّا أنا لَأَقُولَنَّ للنبيِّ ﷺ، فأتَيْتُهُ وهو في أصْحابِهِ فَسارَرْتُهُ، فَشَقَّ ذلكَ على النبيِّ ﷺ وتَغَيَّرَ وجْهُهُ وغَضِبَ، حتَّى ودِدْتُ أنِّي لَمْ أكُنْ أخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قالَ: قدْ أُوذِيَ مُوسَى بأَكْثَرَ مِن ذلكَ فَصَبَرَ). وكان ﷺ في ذلك محتسبا الأجر من الله مفوضا أمره لله لم يشكو حاله لمخلوق ممتثلا قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ).﴿٣٥ الأحقاف﴾ فصلوات الله وسلامه عليه.

وقد أوصى أئمة السلف بالصبر وحثوا عليه قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان). وقال الحسن البصري: (وجدت الخير في صبر ساعة). وقال عمر بن عبد العزيز: (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاض مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرا مما انتزعه).

والصبر له فضائل وفوائد عظيمة:

(١) الثواب العظيم في الآخرة قال تعالى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ). ﴿١٠ الزمر﴾ قال سفيان الثوري: (إنما الأجر على قدر الصبر). وقال الأوزاعي: (لا تكال الأجور للصابرين ولا توزن وإنما تغرف لهم غرفا).

(٢) محبة الله قال تعالى: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ).﴿١٤٦ آل عمران﴾

(٣) الجنة لمن صبر على البلاء في الدنيا قال عطاء بن أبي رباح: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ألَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلَى، قالَ: هذِه المَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أتَتِ النبيَّ ﷺ، قالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ وإنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ لِي، قالَ: إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يُعَافِيَكِ قالَتْ: أصْبِرُ، قالَتْ: فإنِّي أتَكَشَّفُ فادْعُ اللهَ أنْ لا أتَكَشَّفَ فَدَعَا لَهَا). متفق عليه. وقال سفيان بن عيينة: (لم يعط العباد أفضل من الصبر به دخلوا الجنة).

(٤) تحقق معية الله للصابرين قال تعالى: (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).﴿٤٦ الأنفال﴾ قال ابن القيم: (ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله فإن الله مع الصابرين ومحبته لهم فإن الله يحب الصابرين ونصره لأهله فإن النصر مع الصبر وأنه خير لأهله: (وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ).﴿١٢٦ النحل﴾ وأنه سبب الفلاح: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).﴿٢٠٠ آل عمران﴾).




(٥) خير عطاء من الله للمؤمن كما ورد في الصحيحين قال النبي ﷺ: (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ).

(٦) لذة الإيمان وحلاوته لمن صبر على ترك المعاصي قال ابن تيمية: (وكذلك ترك الفواحش يزكو بها القلب وكذلك ترك المعاصي فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع).

(٧) للصابر ثلاث بشائر بشر الله بها في كتابه فقال تعالى: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). ﴿١٥٧ البقرة﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (نعم العدلان ونعمت العلاوة فالعدلان الصلاة والرحمة والعلاوة الهداية).

(٨) من صبر على المصيبة محتسبا عوضه الله خيرا منها عن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: (ما مِن مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيَقولُ ما أمَرَهُ اللَّهُ: (إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وأَخْلِفْ لي خَيْرًا مِنْها، إلَّا أخْلَفَ اللَّهُ له خَيْرًا مِنْها، قالَتْ: فَلَمَّا ماتَ أبو سَلَمَةَ، قُلتُ: أيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِن أبِي سَلَمَةَ؟ أوَّلُ بَيْتٍ هاجَرَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إنِّي قُلتُها، فأخْلَفَ اللَّهُ لي رَسولَ اللهِ ﷺ، قالَتْ: أرْسَلَ إلَيَّ رَسولُ اللهِ ﷺ حاطِبَ بنَ أبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي له، فَقُلتُ: إنَّ لي بنْتًا، وأنا غَيُورٌ، فقالَ: أمَّا ابْنَتُها فَنَدْعُو اللَّهَ أنْ يُغْنِيَها عَنْها، وأَدْعُو اللَّهَ أنْ يَذْهَبَ بالغَيْرَةِ). رواه مسلم.

ومن أعظم فوائد الصبر الاستقامة على شرع الله والثبات على الدين والحذر من سوء الخاتمة والوقاية من الانحرافات والسلامة من الشرور.

والصبر ثلاثة أنواع:

الأول: الصبر على طاعة الله بحيث يحتسب الأجر في فعلها ويصبر على مشقتها ويؤديها على الوجه المشروع ويداوم على فعلها قال تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ). ﴿١٧ لقمان﴾ وقد كان النبي ﷺ يصبر على مشقة قيام الليل قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: (قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا). متفق عليه.

الثاني: الصبر عن معصية الله بحيث يجاهد هواه والشيطان ويصبر على مشقة ترك المألوف واجتناب الفساد وأهله قال الله سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ). ﴿٢٢ الرعد﴾




وقد صبر النبي يوسف عليه السلام عن ارتكاب الزنا حين أغرته امرأة العزيز واجتمعت له دواعي الشهوة مع تيسر فعلها وغاب عنه الرقيب فصبر صبرا عظيما لقوة إيمانه واستحضاره مراقبة الله واستحيا من الله أن يعصيه وآثر السجن على فعل المعصية فعصمه الله من الوقوع في الفاحشة وحماه من الرذيلة قال تعالى: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ). ﴿٣٣ يوسف﴾

الثالث: الصبر على قضاء الله وقدره بحيث يصبر على مشقته والآثار المترتبة عليه ويتجنب جميع الأقوال والأفعال التي تسخط الرب قال تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). ﴿١٥٧ البقرة﴾ وقال النبي ﷺ: (إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ). رواه الترمذي. ولا يؤجر المؤمن على صبره إلا إذا احتسب الأجر من الله بأن يوقن أن الله قدر عليه هذه المصيبة لحكمة بالغة ليبتليه ويختبر إيمانه ويرفع درجته ويكفر سيئاته وأنه إذا صبر عليها جازاه الله بالثواب في الآخرة قال ابن القيم: (وهو ثلاثة أنواع صبر على فرائض الله فلا يضيعها. وصبر عن محارمه فلا يرتكبها. وصبر على أقضيته وأقداره فلا يتسخطها. ومن استكمل هذه المراتب الثلاث استكمل الصبر ولذة الدنيا والآخرة ونعيمهما والفوز والظفر فيهما فلا يصل إليه أحد إلا على جسر الصبر كما لا يصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خير عيش أدركناه بالصبر)).

والمؤمن لا بد أن يبتلى ليصبر قال ابن القيم: (من خلقه الله للجنة لم تزل تأته المكاره والمؤمن الحازم يثبت للعظائم ولا يتغير فؤاده ولا ينطق بالشكوى لسانه وكتمان المصائب والأوجاع من شيم النبلاء وما هلك الهالكون إلا من نفاد الجلد فخفف المصاب عن نفسك بوعد الأجر وتسهيل الأمر لتذهب المحن بلا شكوى وتذكر دوما أنك ما منعت إلا لتعطى ولا ابتلاك إلا لتعافى ولا امتحنك إلا لتصفى).

ومن الصبر على المصائب ترك الشكوى من البلوى لغير المولى لأن الشكوى للمخلوق مذلة ومناف لمعنى الصبر ونقص في التوكل والنبي أيوب عليه الصلاة والسلام لما ابتلي شكى إلى ربه مع دعائه في دفع الضر عنه بقوله: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ). ﴿٨٣ الأنبياء﴾ وقد أثنى الله عليه بصفة الصبر فقال تعالى: (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا). ﴿٤٤ ص﴾ وقال سفيان الثوري: (ثلاثة من الصبر لا تحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزك نفسك). قال الأصمعي: (نظر الفضيل إلى رجل يشكو إلى رجل فقال: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك).




ويثبت أجر الصبر ويكمل عند نزول البلاء فورا أما إذا جزع المؤمن ثم سلى عن المصيبة مع فوات الوقت فلا ثواب له لخلوه من الاحتساب قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبكي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللهَ وَاصْبِري، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّه النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفكَ، فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى). متفق عليه. وقال ابن القيم: (فإن مفاجئات المصيبة بغتة لها روعة تزعزع القلب وتزعجه بصدمها فإن صبر الصدمة الأولى انكسر حدها وضعفت قوتها فهان عليه استدامة الصبر... وأما إذا وردت عليه بعد ذلك توطن لها وعلم أنه لا بد له منها فيصير صبره شبيه الاضطرار وهذه المرأة لما علمت أن جزعها لا يجدي عليها شيئا جاءت تعتذر إلى النبي كأنها تقول له قد صبرت فأخبرها أن الصبر إنما هو عند الصدمة الأولى).

والصبر على المصيبة واجب قال تعالى: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ).﴿٧ المدثر﴾ أما الرضا بسوء القضاء فمستحب وليس بواجب عند أكثر أهل العلم قال عمر بن عبد العزيز: (أما الرضا فمنزلة عزيزة أو منيعة ولكن جعل الله في الصبر معولا حسنا). وقال ابن تيمية: (الرضا بالمصائب كالفقر والمرض والذل مستحب في أحد قولي العلماء وليس بواجب وقد قيل إنه واجب والصحيح أن الواجب هو الصبر). فالرضا أمر زائد على الصبر بحيث يكون المبتلى منشرح الصدر غير كاره لوقوع المصيبة راض بالقضاء يستوي عنده الأمران البلاء والعافية ليقينه وطمعه بالثواب وأن الخيرة له ما كتبه الله عليه وأنه مشتغل في عبادة الصبر وأن الله يصرف العبد على مايشاء وأن جميع أحواله مخبتة وتابعة لمراد الله وهذا من مشاهد الإخلاص قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).﴿١٦٢ الأنعام﴾ وقد كان النبي ﷺ يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَا). رواه أحمد. قال عمر بن عبد العزيز: (ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر. فقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله).

وقال ابن رجب: (والصبر على الطاعات وعن المحرمات أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة صرح بذلك السلف منهم سعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهما وقد روي بإسناد ضعيف من حديث علي مرفوعا: (إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ يُكْتَبُ بِهِ لِلْعَبْدِ ثَلَاثُمِائَةِ دَرَجَةٍ، وَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الطَّاعَةِ تُكْتَبُ بِهِ سِتُّمِائَةِ دَرَجَةٍ، وَإِنَّ الصَّبْرَ عَنِ الْمَعَاصِي يُكْتَبُ لَهُ بِهِ تِسْعُمِائَةِ دَرَجَةٍ). وقد خرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير الطبري).






والناس في مقام الصبر أربعة أصناف:

الصنف الأول: من يصبر على طاعة الله ويصبر عن معصية الله وهذا أعلى الأصناف وهو حال الأنبياء والصديقين والأولياء قال ابن بطال: (أرفع الصابرين منزلة عند الله من صبر عن محارم الله وصبر على العمل بطاعة الله ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله وصفوته ألا ترى قوله ﷺ: (لَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ)).

الصنف الثاني: من يصبر على طاعة الله فيواظب على الفرائض ولا يصبر عن معصية الله فيرتكب المعاصي فهذا ظالم لنفسه ولا يدخل في الفضل العظيم للصبر.

الصنف الثالث: من يصبر عن المعصية فلا يغشى الفواحش لسمو نفسه عن الرذائل ولا يصبر على الطاعة فيفرط في الفرائض فهذا مسيئ وهو على شفا هلكة وسوء خاتمة.

الصنف الرابع: من لا يصبر على طاعة الله فيترك الفرائض ولا يصبر عن معصية الله فيغشى الفواحش فهذا شر الأصناف وقد باع دينه بعرض من الدنيا وتعرض لسخط الله وعذابه وهذا حال أهل الفجور.

وكثير من الناس يصبر على فعل الطاعات ولكنه لا يصبر عن ارتكاب المعاصي وملازمتها لضعف إيمانه وغلبة الهوى عليه وصحبته لأهل الغفلة وجهله بالمعاني الشرعية وقلة ورعه ومن كان لا يصبر عن إدمان المحرمات فلا يوصف بأنه من الصابرين ولا ينال درجة المجاهدين عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ). متفق عليه. وقال ميمون بن مهران: (الصبر صبران الصبر على المصيبة حسن وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصي).

ومن أعظم صور الصبر الصوم لأنه يجتمع فيه كل أنواع الصبر الثلاثة ففيه صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله من ترك الشهوات المحببة للنفس وصبر على الأقدار المؤلمة من الصبر على مشقة الصوم من الجوع والعطش وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ: الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ مِنْ أَجْلِي). وقد وصف النبي ﷺ شهر رمضان بشهر الصبر بقوله: (صَوْمُ شَهْرِ الصَّبْرِ وَثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صَوْمُ الدَّهْرِ). رواه النسائي. قال ابن رجب: (وأفضل أنواع الصبر الصيام فإنه يجمع الصبر على الأنواع الثلاثة).

وحاجة المؤمن للصبر عظيمة لأن الدنيا جبلت على الهموم والأحزان والمصائب وملئت بالفتن ولا يستطيع المؤمن مواجهة ذلك إلا بسلاح الصبر ولما ابتلي نبي الله يعقوب بفقد فلذة كبده يوسف حزن حزنا شديدا وفقد بصره من كثرة بكائه فلم يجد علاجا نافعا يرفع حزنه ويشفي غليله




ويفـرج همه إلا الصـبر الجميل والشكوى إلى الله قال تعالـى: (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْـتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ). ﴿١٨ يوسف﴾ والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ولا جزع قال تعالى: (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). ﴿٨٦ يوسف﴾

ومن المواطن التي يتجلى فيها الصبر وتعظم فائدته فقد الأحباب فإنه يشق على الإنسان أن يفقد غاليا قد عاشـره زمانا وتعلـق به وألف مودته وكثير من ضعفاء الإيمـان يفقد الصبر في هذه المصيبة ويجزع ولا يكف جوارحه عن الأمور المحرمة من نياحة وصراخ وشق الثياب ولذلك شدد الشارع علـى المؤمـن في هذا الأمـر لأن فيه اعتراضـا على قدر الله وسـوء أدب مع الله وضعـف اليقين عن عبـدالله بن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (لَيْسَ مِنَّا مَـنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَـقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ). متفق عليه.

والمؤمن ينال خيري الدنيا والآخرة بالاسـتعانة بالصبر والصلاة قال تعالى: (وَاسْـتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّـلَاةِ). ﴿٤٥ البقرة﴾ فإذا كف المؤمن عن المحارم وأدى الفرائض نال رحمة الله ومرضاته وتنال المنازل العليا في الدين بالصبر قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا). ﴿٢٤ السجدة﴾ قال سفيان بن عيينة: (لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسا).






وهناك مواطن يتأكد الصبر فيها:

١- الصبر على ترك الشهوات المحرمة قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ). ﴿٤١ النازعات﴾ قال مقاتل: (هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها).

٢- الصبر على الفقر وضيق الحال قال تعالى: (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا). ﴿٧٥ الفرقان﴾ قال محمد بن علي بن الحسين: (بما صبروا على الفقر والفاقة في الدنيا). وقال أحمد بن حنبل: (الصبر على الفقر مرتبة لا ينالها إلا الأكابر).

٣- الصبر على قتال الكفار قال تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ). ﴿٢٥١ البقرة﴾

٤- الصبر على الدعوة إلى الله قال تعالى: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ). ﴿١٢٧ النحل﴾

٥- الصبر على كلام المخالفين من الكفار وأهل البدع والفساق قال تعالى: (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا). ﴿١٠ المزمل﴾

٦- الصبر على الأذى الذي يحصل من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فال تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ). ﴿١٧ لقمان﴾

٧- الصبر على لأواء المدينة وشدتها عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (المَدِينَةُ خَيْرٌ لهمْ لو كانُوا يَعْلَمُونَ، لا يَدَعُها أحَدٌ رَغْبَةً عَنْها إلّا أبْدَلَ اللهُ فيها مَن هو خَيْرٌ منه، ولا يَثْبُتُ أحَدٌ على لَأْوائِها وجَهْدِها إلّا كُنْتُ له شَفِيعًا، أوْ شَهِيدًا يَومَ القِيامَةِ). رواه مسلم.

٨- الصبر عن الكسب الحرام والتورع عنه لا سيما عند انعدام الأمانة وكثرة المغريات.

٩- الصبر عند فقد البصر قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ، فَصَبَرَ؛ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ. يُرِيدُ عَيْنَيْهِ). رواه البخاري.

١٠- الصبر عند فقد الأحبة قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: مَا لِعَبدِي المؤمنِ عِندِي جَزاءٌ إذا قَبضتُ صَفِيَّهُ مِن أَهلِ الدُّنيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إِلَّا الجنةُ). رواه البخاري.




١١- الصبر على مخالطة الناس قال النبي ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنْ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ). رواه أحمد.

١٢- الصبر على المرض قال عطاء بن أبي رباح: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ألا أُرِيكَ امْرَأَةً مِن أهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلتُ: بَلى، قالَ: هذِه المَرْأَةُ السَّوْداءُ؛ أتَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقالَتْ: إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ لِي، قالَ: إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجَنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أنْ يُعافِيَكِ، فَقالَتْ: أصْبِرُ، فَقالَتْ: إنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ لي ألّا أتَكَشَّفَ، فَدَعا لَها). متفق عليه.

١٣- الصبر على سوء خلق المرأة ومرضها قال تعالى: (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا). ﴿١٩ النساء﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في هذه الآية: (هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولدا ويكون في ذلك الولد خير كثير). ومن الصبر الجميل أن تصبر المرأة على فقر زوجها الصالح وتعينه على نوائب الدنيا ترجو ما عند الله من الأجر والمغنم.

١٤- الصبر على تربية الأولاد وتوجيه الأهل لا سيما مع كثرة الفتن وقلة المعين قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ). ﴿١٣٢ طه﴾

وينبغي للمؤمن أن يداوم على الصبر والمصابرة طيلة عمره ويجتهد في التمسك بهذا المقام العظيم ليحافظ على دينه ويسلم من الشبهات والشهوات والفتن ويلقى ربه على دين الإسلام قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٢٠٠ آل عمران﴾ قال الحسن البصري: (أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا رخاء وحتى يموتوا مسلمين وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم).






وثمة أسباب تعين على الصبر وتقويه:

أولا: التفكر في عظم فضل الصبر وكثرة ثوابه في الآخرة قال تعالى: (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ). ﴿٩٠ يوسف﴾

ثانيا: التفكر في شدة العذاب يوم القيامة لمن فرط في الصبر وأتبع نفسه الشهوات قال عبد الرحمن بن محمد القاري: (جلس إلي يوما زيادة مولى ابن عباس فقال لي: يا عبد الله قلت: ما تشاء قال: ما هي إلا الجنة والنار. قلت: لا والله ما هي إلا الجنة والنار. قال: ما بينهما منزل ينزله العباد. فقلت: ما بينهما منزل ينزله العباد. قال: (فوالله لنفسي نفس أضن بها عن النار وللصبر اليوم عن معاصي الله خير من الصبر على الأغلال في نار جهنم).

ثالثا: تقوية الحياء من الله فكيف يعصي العبد سيده الذي خلقه وهداه وأكرمه وميزه عن سائر المخلوقات وكيف يستعمل نعم الله التي وهبها الله له في معاصيه قال ابن القيم: (ذكر للصبر عن المعصية سببين وفائدتين: أما السببان فالخوف من لحوق الوعيد المرتب عليها والثاني الحياء من الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يستعان على معاصيه بنعمه وأن يبارز بالعظائم وأما الفائدتان: فالإبقاء على الإيمان والحذر من الحرام). وإذا أيقن العبد أن الله ينظر إليه ويسمعه ويراقبه استحيا منه.

رابعا: الاستعانة بالله على الصبر عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ). متفق عليه. ومن استعان بالله يسر له الشدائد وهون عليه الأمور وأزال عنه العقبات.

خامسا: دعاء الله وسؤاله تيسير الصبر عند نزول البلاء قال تعالى: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ). ﴿١٢٦ الأعراف﴾ أما حال العافية فيدعو بإتمام العافية والستر ودوام النعمة.

سادسا: محبة الله وخشيته فإن محبة الله تحمل المؤمن على الصبر على الطاعة وخشيته تحمله على الصبر عن المعصية وعلى المصيبة فكلما قويت الخشية والمحبة قوي الصبر قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه). فالمحب الصادق يوافق هوى محبوبه ولا يخالف مراده.

سابعا: التأمل في صبر الأنبياء والصالحين وأخذ العبرة واستنهاض الهمة قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). ﴿١١١ يوسف﴾ فيتأمل في صبر النبي أيوب على البلاء وصبر النبي يوسف عن المعصية وصبر خاتم النبيين محمد على القيام بالدعوة إلى الله وتحمله المشاق والأذى في سبيل الله.




حسن الظن بالله تعالى

حسن الظن بالله عمل قلبي عظيم المنزلة والأثر في الدين وله عاقبة حسنة والعبد مفتقر إليه في سيره لربه ومكابدته لأمور معاشه وتعامله مع صنوف الخلق قال تعالى: (وَأَحْسِنُوا ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).﴿١٩٥ البقرة﴾ قال سفيان الثوري: (أي أحسنوا بالله تعالى الظن). وقال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدِي بِي إِنْ ظَنَّ خَيرًا فَلَهُ وإِنْ ظَنَّ شرًّا فَلَهُ). رواه أحمد. وكان سعيد بن جبير يقول: (اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك). ويروى في جامع الترمذي: (سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسأَلَ وأَفْضَلُ العِبَادَةِ انتظَارُ الفَرَجِ).

وحقيقة حسن الظن بالله أن يظن العبد بالله خيرا ورحمة وإحسانا في معاملته ومكافئته ومجازاته أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة وهذا يتحقق في مواطن:

الأول: إذا دعا ربه أن يقبل ربه دعائه قال تعالى: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ).﴿٦٠ غافر﴾ ويروى في جامع الترمذي: (ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ).

الثاني: إذا تقرب إلى الله بعمل صالح أن يتقبل الله عمله ويرفعه قال تعالى: (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ).﴿١٠ فاطر﴾

الثالث: أن يقبل توبته إذا أذنب وتاب فأناب وقد تضافرت النصوص بهذه الحقيقة قال تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).﴿١٠٤ التوبة﴾ وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله عَزَّوَجَلَّ عبادا يذنبون فيغفر لهم إنه هو الغفور الرحيم). وقرأ ابن عون: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ).﴿١٠٧ الأنبياء﴾ فقال: (إني لأرجو أن لا يعذبكم الله عَزَّوَجَلَّ).

الرابع: أن يوقن بوعد الله ونعيمه الذي أعده الله لعباده الصالحين المستقيمين على طاعته وشرعه وقد تواترت النصوص بذلك. قال تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ).﴿٧ الزلزلة﴾ قال خلف بن تميم: (قلت لعلي بن بكار ما حسن الظن بالله؟ قال: لا يجمعك والفجار في دار واحدة).

الخامس: من مواطن حسن الظن بالله أن يوقن المؤمن بحسن لقاء الله وستره وتجاوزه عنه وهو في سياق موته عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول: (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلّا وَهُو يُحْسِنُ باللهِ الظَّنَّ). رواه مسلم. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إذا رأيتم الرجل قد نزل به الموت فبشروه حتى يلقى ربه وهو حسن الظن بالله تعالى وإن كان حيا فخوفوه




بربه واذكروا له شدة عقابه). وقال إبراهيم النخعي: (كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه عَزَّوَجَلَّ). وقال معتمر بن سليمان: (قال لي أبي عند الموت: يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله تعالى وأنا أحسن الظن به).

السادس: ينبغي للمؤمن أن يحسن الظن بربه ويطمع في الفرج منه عند نزول البلاء وضيق الحال قال بعض السلف: (استعمل في كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ في كشفها فإن ذلك أقرب بك إلى الفرج). وقال ابن القيم: (كلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه فإن الله لا يخيب أمله فيه ألبتة فإنه سبحانه لا يخيب أمل آمل ولا يضيع عمل عامل).

السابع: أن يعظم رجائه وطمعه بثواب الله ونعيم جنته ورضاه ويغلب رحمته على عذابه قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ). ﴿١٥٦ الأعراف﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (جعلها الله لهذه الأمة). وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي). وقال الفضيل بن عياض: (لو أدخلني الله النار فصرت فيها ما أيسته).

وحسن الظن يكون صحيحا من المؤمن إذا كان العبد منيبا إلى الله مقبلا على طاعته محسنا في عمله قال تعالى: (وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ). ﴿٣٣ ق﴾ أما إذا كان العبد مسيئا في عمله متجاوزا لحدود الله في سائر حاله فهذا سيء الظن بالله وإن تظاهر بحسن الظن لأن حسن الظن يحمل على حسن العمل وسوء الظن يحمل على سوء العمل. قال الحسن البصري: (إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وأن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل). ولهذا جاء في الخبر: (حسن الظن من حسن العبادة). رواه أحمد. وقال الخطابي: (إنما يحسن بالله الظن من حسن عمله فكأنه قال أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله فإن من ساء عمله ساء ظنه وقد يكون أيضا حسن الظن بالله من ناحية الرجاء وتأميل العفو والله جواد كريم لا آخذنا الله بسوء أفعالنا ولا وكلنا إلى حسن أعمالنا برحمته). وقال ابن القيم: (ولا ريب أن حسن الظن بالله إنما يكون مع الإحسان فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده ويقبل توبته وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه).

والفاجر الذي يدعي حسن الظن بالله وهو يغشى الكبائر ولم يتب فقد أساء الظن بربه وهرب من إحسان الله وعمل بأسباب مقته وعذابه وهو كاذب في دعواه ولا يسمى عمله حسن ظن بل غرور لأنه طلب الإحسان بالتمني وعمله يكذب قوله وظنه قال أبو سليمان الداراني: (من حسن ظنه بالله عَزَّوَجَلَّ ثم لا يخاف الله فهو مخدوع).




والكافر قد أساء الظن بربه وأفعاله وصفاته فعطل الله عن جماله وجلاله وألحد في أسمائه وصفاته وأشرك معه غيره من المخلوقين وادعى له الولد وجعل الملائكة بنات الله وكذب بنعيمه وعذابه في اليوم الآخر وجحد رسوله محمد ﷺ وادعى أنه لم يبعث أو بعث للعرب خاصة وظن به غير ذلك من مساوئ الظنون قال تعالى: (وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ). ﴿٢٣ فصلت﴾ وقال تعالى فيهم: (أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ). ﴿٨٧ الصافات﴾

وأما المنافق المتستر بنفاقه فيظن أن الغلبة للكفر وأهله والخسارة ودائرة السوء لحزب الإيمان وأن الباطل منتصر على الحق فيظن بالله ظن السوء وقد عاب الله على المنافقين وذمهم حين تركوا محمدا ﷺ وصحبه في غزوة أحد بقوله: (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ). ﴿١٥٤ آل عمران﴾ وقال تعالى فيهم: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ). ﴿٦ الفتح﴾ وكل منتسب لأمة محمد يظن أن الغلبة للكفار في هذا الزمان ويظن أن المؤمنين خاسرون مغلوبون في سائر الأوقات والأحوال ولو عملوا بأسباب النصر أو يظن أن هذا الدين لن تقوم له قائمة فقد أساء الظن بربه وشابه المنافقين في اعتقادهم وبات قلبه على شعبة من شعب النفاق.

ومن سوء الظن بالله أن ييأس العبد ويقنط من رحمة الله ويغلب عذاب الله. ومن سوء الظن أن يعتقد بأن الله يخلف وعده في إثابة المطيع وقبول عمله. ومن سوء الظن أن يعتقد أن ربه يعامل الصالحين معاملة المسيئين فلا يعدل مع العباد. ومن سوء ظنه بريه أنه لا يقبل من دعاه وأناب إليه ولاذ ببابه وارتجى كرمه وستره. فكل ذلك من سوء الظن الذي ينزه عنه الله تعالى وتباركت ذاته وتقدست أسماؤه وصفاته. وبالجملة فكل ظن سيء لا يجوز لقلب المؤمن أن يعتقده وأن يستقر فيه بحال من الأحوال.

ومن سوء الظن بالله أن يدعو الداعي ربه كثيرا فلا يستجاب له فيسيء الظن بربه وينقطع عن الدعاء ولو علم أن الله ربما منع عنه شرا في الدنيا أو ادخر له خيرا في الآخرة بدعائه لما تعجل في سوء الظن وفي الصحيحين: (لا يزَالُ يُسْتَجَابُ لِلعَبْدِ مَا لَم يدعُ بِإثم، أَوْ قَطِيعةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتعْجِلْ قِيلَ: يَا رسُولَ اللهِ مَا الاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ: قَدْ دعَوْتُ، وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَم أَرَ يَسْتَجِيبُ لي، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، ويَدَعُ الدُّعَاءَ). ومن سوء الظن بحكمة الله أن يعمل الرجل بالتقوى واتباع الشرع فيبتلى ويمنع من الدنيا ويرى أهل المعصية قد بسط لهم في الرزق وعجلت لهم طيباتهم فيسيء الظن بربه ويترك العمل الصالح ويطيع الشيطان ولو علم أن الله قضى عليه ذلك لحكمة وأنه لا تلازم بين التقوى وبسط الرزق وأن الله اختار لنبيه الفقر وأن عطاء الله في الآخرة أعظم لما أساء الظن بربه.




ومن سوء الظن بالله المنتشر عند الجهال أن يقول العبد إذا أصابته ضراء ياربي حرام تصيبني بذلك أو أنا ماذا عملت أو أنا لا أستحق هذا البلاء أو يعتقد أن ما أصابه من البلاء إهانة من الله ونحو ذلك من عبارات التسخط والاعتراض على القدر والطعن في حكمة الله والعياذ بالله فمن أضمر سوءا بالله عند نزول البلاء فيخشى عليه أن يكون من الخاسرين قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).﴿١١ الحج﴾ ولو علم هذا المسكين سر القدر في الخلق لما اعترض عليه وكل قول أو فعل سيء مقابل للبلاء فهو داخل في التسخط المنهي عنه شرعا. وما قدر الله بلاء على عبده إلا لحكمة وخير به أراده الله قال تعالى: (لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلونَ).﴿٢٣ الأنبياء﴾ فهو أحكم الحاكمين وأعدل العادلين. فالواجب على المؤمن عند نزول البلاء الصبر والاحتساب وترك التسخط والاعتراض لأنه من سوء الظن بالله ومن ساء ظنه بربه ساء قوله وفعله قال ابن القيم: (فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه. ونفسه تشهد عليه بذلك وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد).

ويجب على المؤمن أن يفتش في قلبه عن سوء الظن بالله بجميع شعبه وصوره وأن يتخلص منه إن وجده ويعالج قلبه بدواء الإيمان ويملأ قلبه بحسن الظن بالله والرجاء واليقين والتوكل لأن كثيرا من الخلق مبتلى بسوء الظن بالله بصورة خفية كامنة تظهر وتقدح في فلتات اللسان وعمل الجوارح عند المحن والمضايق ونزول البلاء.

والتفاؤل بالأسماء والأحوال الحسنة من حسن الظن بالله والتشاؤم بالأسماء والأحوال السيئة من سوء الظن بالله عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ). متفق عليه. وقد ذم الله تعالى الكفار الذين يتطيرون فقال: (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).﴿١٣١ الأعراف﴾ ومن تطير فقد أشرك عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: (الطِّيَرَةُ شِرْك، الطِّيرة شركٌ، الطيرة شِرْكٌ ثلاثًا). رواه أحمد.

ومن كان له صبيان صغار وليس له دنيا تكفيهم فلا يخف من المستقبل وليحسن الظن بربه ويوقن أن الله سيكفيهم رزقهم ويتكفل تربيتهم ويصونهم من الشرور إذا أصلح قصده وعمله وتعاهدهم بالدعاء فصلاح الوالد يعود على الولد بالصلاح والبركة واليمن كما جاء في قصة الولدين الذين ترك




لهم أبوهم كنزا فتولاهما الله وحرسهما. قال تعالى: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ). ﴿٨٢ الكهف﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (حفظا بصلاح أبيهما ولم يذكر لهما صلاح). وقال ابن كثير: (فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم كما جاء في القرآن ووردت به السنة). فلا ينبغي للمؤمن أن يتأثر بطريقة أهل العصر الماديين الذين يبالغون في الخوف على مستقبل أولادهم وينتابهم القلق والوساوس ويؤمِّنون على حياتهم ويتلاعب بهم الشيطان بل يتوكل على ربه وينام قرير العين.

ومن حسن الظن بالله أن ينفق المسلم ماله في سبيل الله ولا يخش الفاقة بل يوقن أن الله سيخلف عليه خيرا وينمي ماله ويبارك فيه فإذا كان العبد محسنا الظن بربه لم يخف الإقلال لأن الله تعالى يقول: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ). ﴿٣٩ سبإ﴾ وفي الصحيحين: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ. وَقَالَ: يَمِينُ اللهِ مَلأَى). وقال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا). متفق عليه. ومن سوء الظن بالله الإمساك ومنع الحقوق قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عَزَّوَجَلَّ). وقال ابن القيم: (الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس ويمده وعد الشيطان).

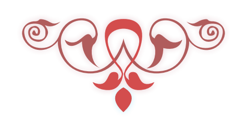
ومن أعظم ما يعين المؤمن على حسن الظن بربه معرفته بواسع رحمة الله وكرمه وجوده وعظيم إحسانه بالخلق مهما أذنبوا وقصروا في طاعته عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً). رواه الترمذي. ومما يعين أيضا النظر في قصص الفرج بعد الشدة ومعية الله ومعونته ونصرته وتوليه لأهل الحسن بالظن بالله. وقد وقع للسلف الصالح في هذا الباب قصص مدهشة فيها عبرة وعظة لمن كان قلبه حاضر ويقينه شاهد ورجاؤه متحقق.

والواجب على المؤمن أن يحسن الظن بأخيه المؤمن ويحمل أقواله وأفعاله على أحسن المحامل ما استطاع إلى ذلك سبيلا لقول النبي ﷺ: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ). متفق عليه. فلا يظن فيه إلا خيرا إن ظهر منه تقصير أو تفريط بحقه ولا يظن به سوءا وهذا محله




إذا كان أخوه ظاهر حاله الستر والسلامة. قال جعفر بن محمد: (ذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره فالتمس له عذرا واحدا إلى سبعين عذرا فإن أصبته وإلا قل لعل له عذرا لا أعرفه). أما إذا كان ظاهر حاله الفسق والمجاهرة بالفواحش والتخلف عن الفرائض ومصاحبة الأشرار أو إظهار البدع فالمشروع في حقه سوء الظن وأخذ الحذر منه ولا يليق أن يظن به خيرا لأنه ليس أهلا لذلك ولذلك قال النبي ﷺ عن رجلين: (مَا أَظُنُّ فُلانًا وفُلانًا يَعْرِفانِ مِن دِينِنا شَيئًا). قال الليث: كانا رجلين من المنافقين. رواه البخاري. وقال الوزير ابن هبيرة: (لا يحل والله أن يحسن الظن بمن ترفض ولا بمن يخالف الشرع في حال).

فينبغي للمؤمن أن يكون حسن الظن بالله عظيم الرجاء به موقنا بحسن جزائه وعطائه وإحسانه وموافاته بالآخرة يسوقه حسن ظنه إلى حسن عمله والاستكثار من العمل بأسباب الرحمة والإحسان والبعد عن معصيته وأسباب مقته وليكن وثوقه بحسن ظنه أعظم من الوثوق بحسن عمله لأنه سيقدم على رب كريم رحيم ودود بعباده واسع العطاء عظيم الصفح والتجاوز رحمته سبقت عذابه ورضاه سبق سخطه. قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والله الذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئا خير من حسن الظن بالله ولا يحسن عبد الظن بالله عَزَّوَجَلَّ إلا أعطاه الله ظنه). وقال سفيان الثوري: (ما أحب أن حسابي علي والدي أحب أن حسابي علي ربي فإن الله أرحم بي من أبي).






التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ

التوكل على الحي القيوم عمل جليل لا يستغني عنه العبد في سائر أحواله وقل من الخلق من يفقه هذا الباب ويعتني ويكلف به. والدين مبناه على التوكل قال سعيد بن جبير: (التوكل على الله نصف الإيمان). والتوكل عمل قلبي ليس من أعمال الجوارح قال أحمد بن حنبل: (التوكل عمل القلب).

وقد أمر الله رسوله ﷺ وعباده المؤمنين بالتوكل فقال: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ). ﴿٢١٩ الشعراء﴾ وقال تعالى: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ). ﴿٣ الطلاق﴾ والله يحب المتوكلين عليه قال تعالى: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ). ﴿١٥٩ آل عمران﴾ وقد ورد في السنة الأمر بالتوكل وفضل منزلته عن عمر بن الخطاب قال: قال ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا). رواه أحمد.

والتوكل على الله معناه في الأصل أن يفوض العبد أمره لله ويسلم حاله له وأن يعتمد على ربه في قضاء حاجته. قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (التوكل هو الثقة بالله وصدق التوكل أن تثق في الله وفيما عند الله فإنه أعظم وأبقى مما لديك في دنياك). وقال أحمد بن حنبل: (وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه والثقة به). فحقيقته هو اعتماد القلب على الله والثقة به قال ابن رجب: (وحقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ووكلت الأمور كلها إليه وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه قال سعيد بن جبير: (التوكل جماع الإيمان) وقال وهب بن منبه: (الغاية القصوى التوكل). قال الحسن: (إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته)).

ومن مقتضى التوكل وشرط صحته العمل بالأسباب النافعة المأذون بها شرعا لأن الشارع الحكيم ربط بين التوكل والعمل بالأسباب النافعة فلا يجزئ التوكل إلا بالأخذ بالأسباب ولا تنافي مطلقا بين التوكل والعمل فالتوكل في مفهوم الشرع هو اعتماد القلب على الله مع تعاطي الأسباب النافعة بالجوارح فهذا هو التوكل المشروع الوارد في الكتاب والسنة قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ). ﴿١٥ الملك﴾ وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ). ﴿٧١ النساء﴾

أما الاعتماد على الله والإعراض عن الأسباب فقدح في الشرع ونقص في العقل وأما الاقتصار فقط على العمل بالأسباب دون الاعتماد على الله فشرك في الأسباب قال ابن تيمية: (الالتفات




إلى الأسباب شرك في التوحيد. ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل. والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع). وقال ابن القيم: (فإن تركها عجزا ينافى التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصولِ ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا).

والناس في باب التوكل ثلاثة أصناف:

الأول: صنف متواكل اعتمد بقلبه على الله وأقبل عليه وترك العمل بالأسباب ولم يبذل جهدا في تحصيل المراد فهذا مسلك مذموم وهو التواكل ليس بالتوكل وهو طريقة الصوفية وقد ذمه السلف وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى). ﴿١٩٧ البقرة﴾). وقد روي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لقي ناسا من اليمن فقال: ما أنتم. فقالوا: متوكلون. فقال: كذبتم أنتم متكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه في الأرض وتوكل على الله عَزَّوَجَلَّ).

الثاني: صنف مشرك بالله تعاطى الأسباب وبالغ فيها ولم يعتمد على الله وفوض أمره إليه فهذا مسلك مذموم مخالف للشرع لأنه جعل الأسباب الحقيقية مؤثرة ومستقلة من جلب الخير ودفع الشر وتناسى خالق الأسباب ومسببها وهذا مسلك أرباب الدنيا وأهل الغفلة والشهوات قال تعالى: (وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). ﴿٢٣ المائدة﴾

الثالث: صنف متوكل على الله جمع في هذا الباب بين الاعتماد على الله وتعاطي الأسباب النافعة وهذا هو مسلك أهل التوحيد والسنة وهو الموافق للشرع وصريح العقل ومقتضى الفطرة السليمة لأن المؤثر حقيقة والمستقل بالنفع والضر هو الله ومن سنة الله أن جعل لكل شيء سببا موصلا إليه فكان تمام الدين وكمال العقل العمل بهما جميعا وهو مذهب السلف الصالح قال تعالى: (وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ). ﴿٢ الأنفال﴾

وقد كان رسول الله ﷺ يفوض أمره لله ويجرد اعتماده لمولاه ومع ذلك يتعاطى الأسباب ولا يتحرج من ذلك فقد كان يأكل ويشرب ويتزوج ويتكسب ويلبس البيضة والدرع وغيره من آلات الحرب يتقي بها بأس الكفار مع أنه سيد المتوكلين. وهذا يدل على أن تعاطي الأسباب النافعة مع الاعتماد على الله من السنة.

وكذلك كان الأنبياء صلوات الله عليهم يباشرون الأسباب ويتكسبون ولا يتكلون كما في صحيح




البخاري: (وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ). وفي صحيح مسلم: (كَانَ زَكَرِيَّا عَلَيهِ السَّلَامُ نَجَّاراً).

ومن ظن أن العمل بالأسباب مخالف للشرع وسبب لنقصان التوكل على الله فانقطع للعبادة وترك طلب الرزق والتكسب فقد خالف هدي رسول الله ﷺ وخرج عن طريقة السلف الصالح سئل الإمام أحمد بن حنبل عن قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون فقال: (هؤلاء مبتدعة). وقد سئل الإمام أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد وقال: لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي فقال: (هذا رجل جهل العلم فقد قال النبي ﷺ: إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي. وقال: لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا. فذكر أنها تغدو وتروح في طلب الرزق. قال: وكان الصحابة يتجرون ويعملون في نخيلهم والقدوة بهم).

وقد أرشد النبي ﷺ في جملة من الأحاديث إلى استعمال الأسباب وبذل الجهد في تحصيل الكسب والمنافع وعدم الركون إلى الكسل والعجز اعتمادا على رحمة الله ونفع الآخرين عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ). رواه مسلم. وعن الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحبُلَهُ، ثُمَّ يَأْتِيَ الجَبَلَ، فَيَأْتِي بحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ؛ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسأَلَ النَّاسَ: أَعْطَوْهُ، أَوْ مَنَعُوهُ). رواه البخاري.

وحسن التوكل على الله مرتبط ارتباطا وثيقا بحياة المسلم في خروجه ومنامه وقضاء حوائجه وفي شأنه كله فلا جلب للنفع ولا دفع للضر ولا قضاء للحاجات إلا عن طريق التوكل على الله. فحسن التوكل له أثر عظيم في سعادة المرء وتحقق مطالبه وحصول الرضا والاطمئنان في قلبه ووقايته من الشرور والفتن قال تعالى: (أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ). ﴿٣٦ الزمر﴾ وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا خرجَ الرَّجُلُ من بَيتِه، فقال: باسمِ اللهِ، تَوكَّلتُ علَى اللهِ، لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، قال: يُقالُ حينئذٍ: هُديتَ، وكُفيتَ، ووُقيتَ، فتَتنحَّى له الشَّياطينُ، فيقولُ شَيطانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَك برَجُلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ؟). رواه أبو داود. وقال رسول الله ﷺ: (يَا فُلانُ إذا أَوَيْتَ إلى فِراشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيْكَ، ووَجَّهْتُ وجْهِي إلَيْكَ، وفَوَّضْتُ أمْرِي إلَيْكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إلَيْكَ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إلَيْكَ، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجا مِنْكَ إلَّا إلَيْكَ، آمَنْتُ بكِتابِكَ الذي أنْزَلْتَ، وبِنَبِيِّكَ الذي أرْسَلْتَ، فإنَّكَ إنْ مُتَّ في لَيْلَتِكَ مُتَّ علَى الفِطْرَةِ، وإنْ أصْبَحْتَ أصَبْتَ أجْرًا). متفق عليه. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاة الليل: (اللَّهُم لَكَ أَسْلَمْتُ وبِكَ آمَنْتُ،




وعليكَ توَكَّلْتُ، وإلَيكَ أَنَبْتُ، وبِكَ خاصَمْتُ. اللَّهمَّ أعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لا إلَـه إلَّا أنْتَ أنْ تُضِلَّنِي أنْت الْحيُّ الَّذي لَا تمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإنْسُ يمُوتُونَ). متفق عليه. فينبغي على المؤمن أن يحافظ على أدعية التوكل ويستحضر معانيها ليقوى توكله على الله ويعينه الله على هذه العمل الجليل ويطرد الشيطان من حياته.

وبعض المسلمين لضعف يقينه بالله مقصر في حسن توكله على الله غافل قلبه عن هذا الأصل العظيم ذاهل عقله عن خطره وعظيم فائدته. فبعض المسلمين اليوم تناسوا في سلوكهم العملي وحياتهم المعيشية التوكل على الله واعتمدوا على الوظائف الراتبة والأجور الثابتة.

ومن ضعف اليقين بالله أن تكون واثقا بالمال الذي بين يديك أكثر من ثقتك بعطاء ربك مع أنه تكفل برزقك ووعد بكفايتك قال تعالى: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ). ﴿٢٢ الذاريات﴾ فإذا نقص مالك أو انقطع رزقك غلب عليك الهلع واليأس وسوء الظن بالله قال الحسن: (إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عَزَّوَجَلَّ). ومن قوة اليقين بالله أن تكون برزق الله وعطائه أوثق منك بما في يدك من المال فإذا نقص رزقك أيقنت أن الله سيرزقك ويغنيك من فضله لأنك محسن ظنك بربك الذي خلقك قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (إن أرجى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق). وقال مسروق: (إن أحسن ما أكون ظنا حين يقول الخادم ليس في البيت قفيز من قمح ولا درهم). وقال الإمام أحمد: (أسر أيامي إلي يوم أصبح وليس عندي شيء).

فالمؤمن الحق عظيم التوكل على الرزاق لقوة يقينه بقدرة الله وعلمه ورحمته وسعة رزقه قال تعالى: (مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ). ﴿٥٨ الذاريات﴾ فالتوكل على الله تابع لليقين كلما زاد اليقين بالله في قلب المؤمن زاد توكله على الرحمن وإذا نقص اليقين بالله نقص التوكل عليه.

وقد انحرف بعض الناس اليوم في باب التوكل فغلوا في الأسباب وركنوا إليها واعتقدوا بها النفع والتفتت قلوبهم عن المسبب والخالق لها حتى صاروا يعتقدون الشفاء بالطبيب الحاذق وحصول الرزق بالوظيفة وحصول الأمن بإجراءات السلامة وحماية الممتلكات بالتأمين وهذا من تأثير الإنصباغ بالحياة المادية والمدنية وقد أبطل الله التعلق بالأسباب قال تعالى: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ). ﴿٣٨ الزمر﴾ وقال تعالى: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ). ﴿١٠٢ البقرة﴾ أما مسلك ترك الأسباب بالكلية والتواكل فقد اندثر بالجملة ولم يبق إلا نزر يسير في الأمة.




والتوكل على الله يتأكد في مواطن:

١- في طلب الرزق قال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ). ﴿٣ الطلاق﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (نجاته من كل كرب في الدنيا والآخرة). وقال الربيع بن خثيم: (يجعل له مخرجا من كل شيء ضاق على الناس). فمن عظم توكله على الله لم يخف الفقر وحسن ظنه بربه ومن ضعف توكله على الله غلب عليه الخوف وسوء الظن بالله قال تعالى: (نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ). ﴿٣١ الإسراء﴾ وفي مسند أحمد: (لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُوا خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا).

٢- عند لقاء العدو قال تعالى: (إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ). ﴿١٦٠ آل عمران﴾ فمن توكل على الله بصدق وطلب النصر من الله منيبا إليه متسلحا بتقواه نصره الله على عدوه ومن توكل على نفسه واغتر بقوته وبارز الله بمعاصيه خذله الله وأظهر عليه عدوه.

٣- عند كيد الكفار قال تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ). ﴿١٧٣ آل عمران﴾ وفي الصحيحين في غزوة نجد قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ رَجُلًا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهو قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ له رَسُولُ اللهِ ﷺ).

٤- عند نزول البلاء قال تعالى: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ). ﴿١٥٧ البقرة﴾ فمن فوض أمره لله عند نزول البلاء واستشعر الثواب ولزم الأدب مع الله نفس الله كربه وفرج همه وعوضه خيرا عظيما.

٥- عند نزول المرض قال تعالى: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ). ﴿٨٠ الشعراء﴾ فمن اعتقد أنه لا شافي ولا رافع للضر إلا الله وأقبل عليه بصدق شفاه الله وسخر له الأسباب النافعة.

٦- عند طلب الزواج قال رسول الله ﷺ: (ثَلاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ). رواه الترمذي. فمن اعتمد على الله عَزَّوَجَلَّ في طلب النكاح بصدق وحسن نية يسر الله له أسبابه وذلل له الصعاب.

٧- عند الدعوة إلى الله قال تعالى: (فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ




الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).﴿١٢٩ التوبة﴾ وليس ثمة أمر يعين على مشـقة الدعوة إلى الله والصبر على أذى المخالفين كالتوكل على الله والاستعانة به.

❁❁❁

وثمة أمور تعين على التوكل على الله وتقوية في قلب العبد:

١- العلم والتعرف على أسماء الله وصفاته وربوبيته وأفعاله.

٢- التفكر والتأمل في كمال علم الله وكمال قدرته وإحاطته بكل شيء.

٣- أن يوقن العبد أن الله وحده هو المتفرد بتدبير شؤون الخلق وتصريف أحوالهم.

٤- أن يتأمل في فضل التوكل وعظيم أثره في تحقق المطالب.

٥- أن يعتقد أن الأسـباب مهما عظمت وكانت نافعة فاءنها لا تنفع ولا تضر اسـتقلالا لأنها مخلوقة ليس بيدها شيء.

٦- أن يحسن الظن بربه ويعظم الرجاء به.



وثمة أمور تنافي التوكل وتضعفه في قلب المؤمن:

١- الجهل بأسماء الله وصفاته وقدرته وعلمه.

٢- الاغترار بما أوتي العبد من مال ومنصب وجاه وعلم فيتكل قلبه على هذه الأمور ويحرم التوكل.

٣- الفتنه بالدنيا والجري وراء الأسباب المادية والمبالغة فيها واعتقاد أنها تحقق المطلوب مطلقا.

٤- الركون إلى الخلق والاعتماد عليهم في قضاء الحاجات.

٥- ضعف وازع الإيمان والإعراض عن طاعة الرحمن.

٦- الإسراف على النفس بالذنوب والإغراق بالشهوات المحرمة.






وإذا اعتمد المؤمن بكليته على الله وأحسن التوكل عليه وبذل وسعه في تعاطي الأسباب تحقق مطلبه بإذن الله ولو كان مقصرا في العمل أو متعاطيا سببا ضعيفا لا يؤثر أثرا كبيرا في العادة. وكثير من فتوحات أهل الإيمان وأحوال الأولياء الصادقين وقصصهم العجيبة تشهد لهذا الأصل ومن ذلك أيضا ما ورد في صحيح البخاري في قصة المقترض من بني إسرائيل الذي جعل الله شهيدا في قرضه فلما حضر الأجل لم يجد مركبا فوضع المال في خشبة وألقاه في البحر وقال: (اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلَا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ). ثم وصلت الخشبة إلى المقرض بإذن الله لعظم ثقته بالله وحسن توكله عليه.

والمتأمل اليوم في حياتنا المعيشية يجد غياب مفهوم التوكل أو ضعفه في بعض الأحوال وهذا يؤذن بشر ويفوت علينا خيرا كثيرا بينما كان التوكل شاهدا وحاضرا في حياة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفي المسند لأحمد: (أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يَسْقُطُ السَّوْطُ مِنْ يَدِهِ فَلَا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِي إِيَّاهُ؛ وَيَقُولُ: خَلِيلِي أَمَرَنِي أَنْ لَا أَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا).

وحسن توكل المؤمن على المولى يورثه كمال الإيمان ويجعله غنيا بالله متعففا عن كسب الحرام وسؤال الخلق لا ينظر إلا ما في أيدي الناس ولا تتطلع نفسه إلى المكاسب الدنيئة والشبهات قال رسول الله ﷺ: (مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ). متفق عليه. وفي جامع الترمذي قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ. قُلْتُ مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ. قَالَ أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ قُلْتُ وَاللهِ لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا).

والمتوكل على الله حق التوكل مطمأن البال ومنشرح الصدر واثقا بالله لا يحزن من واقع حاله ولا يخشى من المستقبل مفوضا أمره لله إن دعي لطاعة أجاب يتصدق من ماله ولو باليسير ويشارك بالخير ويوقن بأن الله سيخلف عليه خيرا ويحسن له العاقبة قال تعالى: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا). ﴿٥٦ هود﴾ أما أهل الدنيا الذين فتنوا بجمع الأموال وضعف توكلهم على الله فتتناوشهم المخاوف ويخوفهم الشيطان بالفقر وتبدد ثرواتهم ويقذف في قلوبهم الوهن والخوف من المستقبل فيبخلون بمال الله ويحرمون أنفسهم من الخير قال تعالى: (هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ). ﴿٣٨ محمد﴾



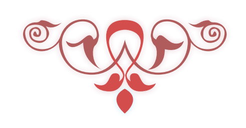

والمتوكل على الله شجاع قوي بالله إن سئل عن علم صدع بالحق ولم يخش إلا الله وفوض أمره لله وأيقن أنه لن يصيبه ضر إلا بأمر كتبه الله عليه فلا يخاف الشيطان وأوليائه متأسيا بتوكل رسول الله حين كاده الكفار. فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ، قالَهَا إبْرَاهِيمُ عليه السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قالوا: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).﴿١٧٣ آل عمران﴾). رواه البخاري.

ومن أعظم فوائد التوكل على الله أنه يطرد الخوف والقلق والتوتر والحيرة من نفس المؤمن ويورثه الثبات واليقين والطمأنينة وقوة العزم قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله ﷺ: (الطِّيرَةُ شِركٌ، ثَلَاثًا، وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللهَ يُذهِبُهُ بالتَّوَكُّلِ). رواه أبو داود.

والطيرة وسوء الظن سبب لوقوع المكروه وحسن التوكل على الله والثقة به سبب لدفع الشر ونزول الخير قال ابن القيم: (وقد يجعل الله سبحانه تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول المكروه به كما يجعل الثقة والتوكل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير به. وسر هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله تعالى والخوف من غيره وعدم التوكل عليه والثقة به فكان صاحبها غرضا لسهام الشر والبلاء فيتسرع نفوذها فيه لأنه لم يتدرع من التوحيد والتوكل بجنة واقية. وكل من خاف شيئا غير الله سلط عليه كما أن من أحب مع الله غيره عذب به ومن رجا مع الله غيره خذل من جهته وهذه أمور تجربتها تكفي عن أدلتها).

والمتوكلون على الله حقا في الدنيا هم من السبعين ألفا في الآخرة الذين يدخلون الجنة بغير حساب وعذاب كما ورد في صحيح البخاري قول النبي ﷺ: (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ...فَقَالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ وَلا يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

فينبغي على المؤمن أن يحسن التوكل بالله في حله وترحاله في خوفه وأمنه في فقره وغناه في صحته وسقمه في خلوته وجلوته في طاعته وعبادته ونسكه وجهاده وأن يكون حسن الظن بالله مستوثقا بالله يائسا بما في أيدي الخلق بل ثقته بالله أعظم بما في يده من الأسباب موقنا تمام اليقين أن ما كتب له من أجل ورزق وسعادة وشقاوة وسرور وغم ويسر وضر واقع عليه لا محالة.






مراقبة الله في السر

مراقبة الله في السر من الأعمال الجليلة التي تنشأ عن اتصاف المؤمن بكمال الإيمان وكمال النصح فكلما زاد إيمان العبد زادت مراقبته لله قال تعالى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).﴿٢٢٠ الشعراء﴾ وقال تعالى: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ).﴿١٩ غافر﴾ قال ابن كثير: (يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله حق الحياء ويتقوه حق تقواه ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر). وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنْتَ). رواه الترمذي. ومراده: اتق الله في السر والعلانية وراقبه في سرك وفي خلوتك كما تراقبه في علانيتك مع الناس.

وهذا العمل الجليل ينفرد به خاصة أهل الإيمان الذين قدروا الله حق قدره وعظموه حق التعظيم وشاهدوا بقلوبهم قدرة الله عليهم وإحاطته بهم ورؤيته لهم وعلمه بحالهم وشدة عذابه ووعيده في الآخرة واستحضروا معية الله لهم في كل الأحوال قال تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).﴿٤ الحديد﴾ وقال تعالى: (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً).﴿١ النساء﴾ وقال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ).﴿٢٣٥ البقرة﴾

وإذا أيقن العبد أن الله مطلع على سائر أحواله لا يخفى عليه شيء من حاله يعلم سريرته كما يعلم علانيته ولا يحجزه ساتر من رؤيته لفعله وسمعه لكلامه وعلمه بنيته مهما استخفى عنه أوجب له ذلك مراقبة الله في السر وخشيته كمال الخشية كما فعل النبي يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حين روادته امرأة العزيز في كمال غناها وجمالها وهو غلام عندها وفي سن الشهوة وخلوتهما محكمة بلا رقيب وهو تحت الوعيد والتهديد فامتنع وعصمه الله من الفاحشة مع كثرة الدواعي والمهيجات لشدة مراقبته لربه وقوة يقينه قال تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).﴿٢٣ يوسف﴾

وحقيقة مراقبة لله أن يستحضر المؤمن مشاهدة الله له في هذا الموقف وقربه له فينزجر عن فعل المعصية ويقبل على الطاعة ويتزين له بحسن العمل ظاهرا وباطنا كما يتزين المرء عند لقاء الأمير والله أجل وأعظم قال ابن المبارك لرجل: (راقب الله تعالى. فسأله عن تفسيرها فقال: كن أبدا كأنك ترى الله عَزَّوَجَلَّ).




ومراقبة الله في السر توجب للعبد الإخلاص والخلاص من الكبائر كما ورد في الصحيحين: (وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ). والنصح في العبادة قال رسول الله ﷺ: (إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى). رواه مسلم. وتورث القلب خشية وخشوعا وبكاء كما في الصحيحين: (وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ). ومن قدر على معصية الله في سره ثم راقب الله فتركها خوفا من الله فله ثواب عظيم وينفرج همه وينفس كربه كما ورد في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الصحيحين: (وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عن نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي، فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ ومِئَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ).

ومن راقب الله في السر حسن عمله وعظم يقينه ووجد حلاوة الإيمان واطمأن قلبه وقذف الله نورا في قلبه وضياء في وجهه ووجد سعة في رزقه وبركة في أهله وألفة ومحبة فيما بينه وبين الخلق وانعكس ذلك على حياته بالتوفيق والرضا والسعادة وهذا هو حقيقة مشهد الإحسان قال تعالى: (وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٩٥ البقرة﴾ وفي حديث جبريل: (قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). متفق عليه.

وعبادة السر من أجل الطاعات لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم ولذلك أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ). ﴿٢٧١ البقرة﴾ وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ). ونص أهل العلم على أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية وفي سنن أبي داود: (الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمُسِّرُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِّرِ بِالصَّدَقَةِ). وهذا يدل على أن الإسرار بقراءة القرآن أفضل من الجهر به للبعد من الرياء. ولذلك كان السلف الصالح يستحبون أن يكون للرجل عمل صالح يخفيه عن سائر الخلق ويستحبون إخفاء النوافل من صوم وقيام وتلاوة وصدقة قال الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ). وكان أيوب السختياني يقوم الليل كله ويخفي ذلك فإذا كان عند الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.




وقال محمد بن واسع: (لقد أدركت رجالا كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالا يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جانبه).

وفي المقابل من أخفى الكفر والبدعة في السر مخادعة لله ولم يراقبه فقد توعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة وقد ذم الله المنافقين وعاب عليهم هذا المسلك الخبيث بقوله: (إِنَّ الْمُنافِقِينَ يَخادِعُونَ اللهَ وهو خادِعُهُمْ).﴿١٤٢ النساء﴾ وقال تعالى: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ).﴿١٠٨ النساء﴾ وقد سلكوا هذا لسوء ظنهم بالله واعتقادهم أن الله لا يطلع على سرائرهم ويخفى عليه حالهم قال تعالى: (وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ).﴿٢٣ فصلت﴾ ومن الخداع التلاعب بحدود الله وأحكامه جاء رجل إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: (إن عمي طلق امرأته ثلاثا أيحلها له رجل فقال: من يخادع الله يخدعه). وقال ابن القيم: (مخادعة الله تعالى حرام والحيل مخادعة لله). فكل من تحايل على ارتكاب المحرمات وإسقاط الواجبات فقد خادع الله تعالى قال أيوب السختياني في المحتالين: (يخادعون الله كما يخادعون الصبيان فلو أتوا الأمر عيانا كان أهون علي).

والذين يعصون الله في السر صنفان:

الصنف الأول: من يلازم فعل المعاصي والخبائث وترك الفرائض في السر استهانة بالله ومخادعة له عَزَّوَجَلَّ واستخفافا بعذابه وهربا من إنكار المؤمنين عليه وهذا حال المنافقين الذين جعلوا خلوتهم خيانة وفجورا وعلى هذا الصنف يحمل ما ورد من الوعيد في انتهاك الحرمات في الخلوات قال تعالى: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ).﴿١٠٨ النساء﴾. ولا يطبع المؤمن على تلك الحال لكن إذا غلب على حاله الفجور في الخلوة صار فيه شبه من المنافقين قال بلال بن سعد: (لا تكن وليا لله في العلانية وعدوه في السر ولا تكن عدو إبليس والنفس والشهوات في العلانية وصديقهم في السر).

الصنف الثاني: من يكون مبتلى ببعض الذنوب ولكنه يخفي ذنبه ولا يجاهر به أمام الناس تعظيما لحرمات الله وطلبا للستر مع شعوره بالتقصير واعترافه بالذنب والانكسار من الله فهذا حال المؤمنين المذنبين ولا يلحق بالصنف الأول لأنه داخل في قول النبي ﷺ: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا المُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ). متفق عليه من




حديث أبي هريرة. ومعصيته سرا أخف جرما من المجاهرة بالمعصية وقد روي في الخبر المرسل في مستدرك الحاكم: (اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَةَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِلْنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ). ولا تكون خلوة المؤمن المفرط كلها فجورا وخيانة بل فيها عمل صالح وتكون عادته الإحسان والتوبة بعد الإساءة.

ومما يحيي المراقبة في قلب المؤمن أن يجتهد على التعرف على أسماء الله وصفاته ليتصور عظمة الرب وسعة علمه وسمعه وبصره وإحاطته بأحوال الخلق فيتولد عنده ويتجدد معنى الحياء والخوف والتعظيم والتوقير لله. وكذلك كثرة الذكر باللسان يشعر المؤمن بقرب الرب ومراقبته. وكذلك التفكر في آيات الله يشعر بقرب الرب سبحانه للعبد. ومما يزيد في المراقبة لله العلم والتأمل في فضل وثواب الخشية والطاعة في الغيب والسر. وكذلك التفكر في شدة الحساب وأحوال الموقف بين يدي الرب يوم الآخرة يوجب شدة المراقبة. ومما يقوي المراقبة زهد القلب في الدنيا وترك الترف وكثرة الملذات والإقبال على الطاعات واغتنام الأوقات بالأعمال الفاضلات. ومن الوسائل المهمة التي تشحذ الهمة على المراقبة مذاكرة أحوال أهل المراقبة من الأنبياء والصديقين وأحوال السلف الصالح مليئة بالعبرة والعظة في هذا الباب.

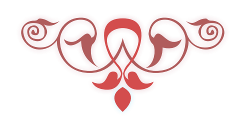
وسريرة العبد لها أثر عظيم في صلاح علانيته ونجاته في الآخرة فمن كان مصلحا لسريرته صلحت علانيته ومن اعتنى بعلانيته وهجر سريرته كانت علانيته مظهرا أجوف كالجسد بلا روح وكانت ثمرتها ناقصة وخشي عليه من الانتكاسة والندامة يوم القيامة لأن إصلاح السريرة من أعظم أسباب الثبات على الإيمان قال سفيان بن عيينة: (كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات: من أصلح سريرته أصلح اللّه علانيته ومن أصلح ما بينه وبين اللّه أصلح اللّه ما بينه وبين الناس ومن عمل لآخرته كفاه اللّه أمر دنياه). قال تعالى: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ).﴿٩ الطارق﴾ قال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (يبدي اللّه يوم القيامة كل سر خفي فيكون زينا في الوجوه وشينا في الوجوه). وقال قتادة: (إن هذه السرائر مختبرة فأسروا خيرا وأعلنوه إن استطعتم ولا قوة إلا بالله). وقال الربيع بن خثيم: (السرائر السرائر اللاتي يخفين من الناس وهن لله بواد التمسوا دواءهن. ثم يقول: وما دواؤهن إلا أن تتوب ثم لا تعود).

ولذلك من كان قلبه مدمن على دسيسة خبيثة راض بها فيُخشى أن تغلب عليه عند موته فيختم له بسوء والعياذ بالله قال ابن رجب: (وإن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت). ومن كانت له سريرة سوء أظهرها الله للخلق في الدنيا ولو بالغ في إخفائها عقوبة له وربما أخرها ثم




فضحه على رؤوس الخلائق في الآخرة قال عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله عَزَّوَجَلَّ على صفحات وجهه وفلتات لسانه).

ومع انفتاح العالم وشدة الغزو الثقافي وتنوع وسائل التقنية والتواصل الاجتماعي الشباب والفتيات مهددون بأخطار عظيمة وشرور جسيمة ولا عاصم لهم من هذه الفتن إلا بمراقبة الله في السر فينبغي على الشاب المسلم والفتاة المسلمة أن يعتنوا عناية فائقة بهذا العمل القلبي ويجتهدوا في التخلق به والتربي عليه واستحضاره في سائر الأحوال ليعصموا أنفسهم ويسلموا من الفتن. وعلى أمور الأولياء والمؤسسات التعليمة والتربوية والجهات المسئولة واجب عظيم في دلالة الأبناء لهذا الخلق وإيقاظه في نفوسهم وزرعه في ضميرهم عن طريق الحوار والنصيحة والقصة المؤثرة وبيان فضله وآثاره الحسنة في المجتمع.






خلق الورع

من الأخلاق الفاضلة التي تحفظ المؤمن في دينه عن الخوض في الفتن والشبهات وينال به الدرجات العلى في الإيمان خلق الورع قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ).﴿٥١ المؤمنون﴾ وقال تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ).﴿٤ المدثر﴾ قال ابن القيم: (قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكنى عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك والشعبي والزهري والمحققين من أهل التفسير قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا تلبسها على معصية ولا غدر). وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: (فضل العلم خير من فضل العمل وخير دينكم الورع). وقال عمر بن عبد العزيز: (أرى أفضل العبادة اجتناب المحارم وأداء الفرائض). وقال الحسن البصري: (ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه). وقال الحسن البصري: (أفضل العبادة التفكر والورع). وقال سعيد بن المسيب: (العبادة الورع عما حرم الله والتفكر في أمر الله).

وحقيقة الورع أن يترك المؤمن ما حرمه الله ويترك أيضا الأمر خشية الوقوع في الحرام ويفعل الواجب ويفعل ما كان وسيلة إليه فيترك كل ما يضره في الآخرة من المحرم والوسيلة إليه فكل ما يشك المؤمن فيه يتركه وينتقل إلى مالا يشك فيه قال رسول الله ﷺ: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيْبَةٌ). رواه الترمذي. قال الخطابي: (كل ما شككت فيه فالورع اجتنابه). وقال إبراهيم بن الأشعث: (سألت الفضيل عن الورع فقال: اجتناب المحارم). وقال ابن تيمية: (وأما الورع فإنه الإمساك عما قد يضر فتدخل فيه المحرمات والشبهات لأنها قد تضر فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه. وأما الورع عما لا مضرة فيه أو فيه مضرة مرجوحة لما تقترن به من جلب منفعة راجحة أو دفع مضرة أخرى راجحة فجهل وظلم وذلك يتضمن ثلاثة أقسام لا يتورع عنها المنافع المكافئة والراجحة والخالصة كالمباح المحض أو المستحب أو الواجب فإن الورع عنها ضلالة). وقال ابن القيم: (وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال: (مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ). فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة فهذه كلمة شافية في الورع). فالورع عام في كل قول وفعل وعلم وعمل وعبادة ومعاملة وعادة وعلاقة وليس خاصا في باب أو مسألة.

والورع عمل قلبي يفتقر إلى الإخلاص ولا يصح بلا إخلاص ومن ترك شيئا تحرزا منه لمخالفته لطبعه أو لعادة قومه ولم يحتسب الثواب من الله فلا يصح ورعه ولا يكون متورعا قال ابن تيمية: (واعلم أن الورع لا ينفع صاحبه ويكون له ثواب إلا بفعل المأمور به من الإخلاص).




والورع قسمان:

الأول: ورع واجب: وهو ترك المحرمات وفعل الواجبات.

الثاني: ورع مستحب: وهو ترك ما يشتبه في تحريمه وفعل ما يشتبه في وجوبه.

قال ابن تيمية: (فأما الورع المشروع المستحب الذي بعث الله به محمدا ﷺ فهو اتقاء ما يخاف أن يكون سببا للذم والعذاب عند عدم المعارض الراجح ويدخل في ذلك أداء الواجبات والمشتبهات التي تشبه الواجب وترك المحرمات والمشتبهات التي تشبه الحرام وإن أدخلت فيه المكروهات قلت: نخاف أن تكون سببا للنقص والعذاب. وأما الورع الواجب: فهو اتقاء ما يكون سببا للذم والعذاب وهو فعل الواجب وترك المحرم والفرق بينهما فيما اشتبه أمن الواجب هو أم ليس منه؟ وما اشتبه تحريمه أمن المحرم أم ليس منه؟ فأما ما لا ريب في حله فليس تركه من الورع وما لا ريب في سقوطه فليس فعله من الورع).

ومنشأ خلق الورع من الخوف والخشية من الله فهو ثمرته وفائدته وكل ما زاد الخوف في قلب المؤمن كلما زاد ورعه وتوقيه مما يضره في الآخرة وكلما نقص الخوف في قلب المؤمن نقص ورعه وخاض في المحرمات وتساهل في أسبابها قال أبو عبد الله الأنطاكي: (من خاف صبر ومن صبر ورع ومن ورع أمسك عن الشبهات).

ولا يسلم المؤمن من الحرام حتى يعمل بالورع قال ميمون بن مهران: (لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال). والورع سهل على أهل الديانة قال سفيان الثوري: (ما رأيت أسهل من الورع ما حاك في نفسك فاتركه).

ويدخل في معنى الورع ترك الشبهات في أمور الدنيا التي يختلط فيها الحلال والحرام ولا يمكن تمييزها فيخشى متعاطيها من الوقوع في الحرام كما في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ). وقد نهى الله تعالى عن الاقتراب من المحرمات بقوله: (تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا). ﴿١٨٧ البقرة﴾ وقال إبراهيم بن أدهم: (الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات). وقال ابن رجب: (فهذا الذي اشتبه عليه إن اتقى ما اشتبه عليه حله وحرمه واجتنبه فقد استبرأ لدينه وعرضه بمعنى أنه طلب لهما البراءة مما يشينهما، وهذا معنى الحديث الآخر: (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ). وهذا




هو الورع وبه يحصل كمال التقوى). ويدخل في المتشابهات المال المختلط بالحرام من مسروق وربوي ومغشوش والعقار المشتبه فيه والطعام المشتبه في حرمته واللباس المشتبه في تحريمه والمعاملات المالية المشتبه فيها والنكاح المشتبه فيه وغير ذلك من أمور الدنيا التي يختلف الفقهاء في حرمتها وحلها والفاصل فيما اشتبه الناس في حكمه في المسائل النازلة وكثر فيه الاختلاف من غير مرجح شرعي قلب المؤمن الصادق مع ربه المتبصر في دينه فيعمل بالورع المتين ويستفتي قلبه فما اطمأن في إباحته فعله وما شك في حرمته وتحرج منه تركه طاعة لله ولم يلتفت لآراء المجيزين له عن وابصة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: جِئْتَ تَسأَلُ عَنِ الْبِرِّ؟، قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا حاكَ في النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ). رواه أحمد. وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، عَنِ البِرِّ والإِثمِ فَقالَ: البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإِثْمُ ما حاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه النّاسُ). وقال ابن القيم: (لا يجوز العمل بمجرد فتوى المفتي إذا لم تطمئن نفسه وحاك في صدره من قبوله وتردد فيها لقوله ﷺ: استفت نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك). فالبر أن تركن إلى اليقين الذي تطمأن إليه نفسك وتترك الأمر المشكوك فيه الداخل في الشبهات إذا لم يتبين لك بوضوح إباحته وخلوه من المحذور ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه. أما المسائل التي ورد فيها نص بعينها وأفتى العالم فيها بمقتضى الدليل فيجب على المستفتي قبولها ولا يلتفت إلى انشراح صدره قال ابن رجب: (فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي فالواجب على المستفتي الرجوع إليه وإن لم ينشرح له صدره وهذا كالرخص الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال فهذا لا عبرة به).

وعلامة الورع المتين ترك الشبهات والبعد عن مواطن الفتن وعلامة التجاسر وقلة الورع استباحة الشبهات والخوض في الفتن بلا خوف من الله قال سفيان بن عيينة: (لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحلال وحتى يدع الإثم وما تشابه منه). ومن ابتعد عن الشبهات واتقاها حفظ دينه من النقص بتعاطي الحرام وحفظ عرضه من الذم والسمعة السيئة أما من خاض في الشبهات وتجرأ عليها فقد عرض نفسه للخطر وتسبب لنفسه الوقوع في الحرام والاستخفاف في الشبهات يوقع في الكبائر.

وأما استباحة العظائم والتحرز من الصغائر والتشديد في إتيانها فهذا ورع بارد سامج مخالف للشرع سأل رجل من أهل العراق ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن دم البعوض أنجسٌ هو؟ فقال: (سبحان الله تقتلون ابن بنت رسول الله ﷺ الحسين بن علي وتسألون عن دم البعوض؟). فلا يسأل عن الصغائر




إلا من تحرز من العظائم أما من رق دينه واستهان بالكبائر فليس من أهل الورع ولا ينبغي له سلوك طريقهم والتحلي بزيهم قال ابن رجب: (وهاهنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع فأما من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبه فإنه لا يحتمل له ذلك بل ينكر عليه وهذا حال بعض المتكلفين المرائين يسلك هذا المسلك).

ومن الانحراف في باب الورع الاعتقاد أن الورع خاص بتوقي الحرام ولا يدخل في فعل الواجب قال ابن تيمية في بيان الغلط في الورع: (أحدها: اعتقاد كثير من الناس أنه من باب الترك فلا يرون الورع إلا في ترك الحرام لا في أداء الواجب وهذا يبتلى به كثير من المتدينين المتورعة ترى أحدهم يتورع عن الكلمة الكاذبة وعن الدرهم فيه شبهة لكونه من مال ظالم أو معاملة فاسدة ويتورع عن الركون إلى الظلمة من أجل البدع في الدين وذوي الفجور في الدنيا ومع هذا يترك أمورا واجبة عليه إما عينا وإما كفاية وقد تعينت عليه من صلة رحم وحق جار ومسكين وصاحب ويتيم وابن سبيل وحق مسلم وذي سلطان وذي علم وعن أمر بمعروف ونهي عن منكر وعن الجهاد في سبيل الله إلى غير ذلك مما فيه نفع للخلق في دينهم ودنياهم مما وجب عليه أو يفعل ذلك لا على وجه العبادة لله تعالى بل من جهة التكليف ونحو ذلك).

ومن الورع المظلم أن يتحرز المؤمن من أشياء تساهل فيها العرف ولم يشدد فيها الناس في العادة قال الأنماطي: (كنت عند أحمد بن حنبل وبين يديه محبرة فذكر أبو عبد الله حديثا فاستأذنته بأن أكتبه من محبرته فقال لي: اكتب يا هذا فهذا ورع مظلم). فمن استعمل الورع في غير محله فورعه مظلم من نور الشرع.

والناس في باب الورع على ثلاثة أصناف:

الأول: من كان تاركا للورع في الجملة جريئا على انتهاك الحرمات مجاهرا بالفواحش كحال الفجار المفسدين في الأرض قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ). ﴿١٩ النور﴾

الثاني: من كان عاملا بالورع في الجملة حريصا عليه لكنه تاركا للورع في خصلة واحدة فتراه ملازما للشرع غالبا لكنه يتساهل في باب الأموال أو باب النساء أو الخوض في الفتنة أو يتورع في الكبائر ولا يتورع عن الصغائر فهذا يرجى له خير لكنه لم يحقق الورع ويجب عليه أن يتنبه لخطر تساهله في بعض الأمور ويسارع في التوبة ويلزم الشرع ويدرك أنه على خطر قال ابن المبارك: (لو أن رجلا اتقى مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعا).




الثالث: من كان ملازما للورع في سائر أحواله مواظبا على اتباع الشرع متورعا في الكبائر والصغائر فارا بدينه عن الفتن متبعا للسنة تاركا للشبهات فهذا كحال الأولياء الصادقين قال رسول الله ﷺ: (فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ). متفق عليه.

ومن المواطن العظيمة التي يجب فيها الورع الخوض في دماء المسلمين والمعاهدين ممن حرم الله دمائهم وأعراضهم وأموالهم قال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا).﴿٩٣ النساء﴾ وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا). وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله). وقد كان السلف الصالح يتورعون عن الخوض في الدماء المعصومة ويتجنبون القتال في الفتن قال بشير بن عقبة: قلت ليزيد بن عبد الله بن الشخير: (ما كان مطرف يصنع إذا هاج في الناس هيج قال: يلزم قعر بيته ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي لهم عما انجلت). والمؤمن حقا من كف يده عن انتهاك حرمة الدماء المعصومة ولم ينساق وراء الفتن. والتساهل في دماء المسلمين والخوض في الفتن مسلك الخوارج المخالفين للسنة الذين ذمهم النبي ﷺ وأنكر أئمة السنة مذهبهم لأنهم يغلون في العبادات ويكفرون من خالفهم ويستبيحون دماء المسلمين وأموالهم ويخرجون عن السلطان ويفرقون جماعة المسلمين قال النبي ﷺ فيهم: (يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاتَكُمْ مع صَلاتِهِمْ، وصِيامَكُمْ مع صِيامِهِمْ، وعَمَلَكُمْ مع عَمَلِهِمْ، ويَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجاوِزُ حَناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ). متفق عليه. فعندهم خلل عظيم في مفهوم الورع يتورعون في باب الفرائض ولا يتورعون في باب المحرمات ويتورعون عن نكاية الكفار ولا يتورعون عن حرب أهل الإسلام فشرهم وفتنتهم وبلاؤهم منصب على المسلمين كما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إنَّ مِن ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقْتُلُونَ، أَهْلَ الإسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأوْثَانِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسْلَامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ). ففهمهم للدين مقلوب ونظرهم للنصوص أعور وهم وإن كانوا يتظاهرون بالديانة والورع إلا أنهم في الحقيقة فاقدون للورع مستخفون بشعائر الله منتهكون لحقوق الخلق قطع الله دابرهم وطهر بلاد المسلمين منهم.

ومن مواطن الورع الكف عن أعراض المسلمين وعدم الخوض في نقائصهم وعيوبهم الشخصية والتفكه بذلك في المجالس قال تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ).﴿١٢ الحجرات﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (حرم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن




بشيء كما حرم الميتة). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). رواه مسلم. وقد دلت السنة الصحيحة على أن الغيبة من كبائر الذنوب وقد فسر النبي ﷺ الغيبة بقوله: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ). رواه مسلم. وقال الفضيل بن عياض: (أشد الورع في اللسان). وقال يونس بن عبيد: (إنك لتعرف ورع الرجل في لسانه). والمؤمن يخاف أن يزل لسانه بكلمة خبيثة مسخطة للرب تهوي به في النار عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ). متفق عليه.

ومن الأبواب العظيمة التي أعمل فيها السلف الصالح الورع باب الفتوى والقول على الله بلا علم فقد كان أئمة العلم يتورعون عن الفتوى بلا علم ولا تثبت ولا نظر في العواقب لا سيما في مسائل الدماء والفروج والفتن وكانوا كثيرا ما يستروحون بكلمة (لا أعلم) قال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والله إن الذي يفتي الناس في كل ما يسألونه لمجنون). وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله). وقال سحنون: (أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علما). وقال سفيان الثوري: (أعلم الناس في الفتيا أسكتهم عنها وأجهلهم بها أنطقهم).

وقد كان رسول الله ﷺ سيد أهل الورع كافا عن المحرمات التي حرمها ربنا مبالغا في ترك الشبهات فلا يدخل جوفه إلا حلالا ولا يطعم أهله إلا من الكسب الطيب شديد التورع عن كل ما يخشى منه كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَخَذَ الحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَمْرَةً مِن تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا في فِيهِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: كِخْ كِخْ. لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ). وكان ﷺ عفيفا متورعا في الدماء معظما لحرمات المعصومين في دمائهم وكان ﷺ عف اللسان متورعا عن الخوض في أعراض الناس لا يتكلم إلا بكلام طيب ولفظ حسن.

والورع الصحيح يفتقر إلى العلم الشرعي والتبصر في الدين لأن الجاهل قد يبني ورعه على العاطفة والفهم الخاطئ للدين فيترك الواجب ظنا منه أنه يضر دينه وتخفى عليه المسائل في الأمور المشكلة ويشدد على نفسه وعلى غيره في مسائل رخص فيها الشرع سئل ابن عيينة عن الورع فقال: (الورع طلب العلم الذي يعرف به الورع وهو عند قوم طول الصمت وقلة الكلام وما هو كذلك إن المتكلم العالم أفضل عندي من الجاهل الصامت). وقال سهل التستري: (إذا عمل بالعلم دله على الورع فإذا تورع صار القلب مع الله). وقال ابن تيمية: (تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها




وإلا فمن لم يوازن مافي الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات ويرى ذلك من الورع كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعا).

والورع الشرعي ما كان موافقا للسنة على هدي النبي ﷺ ومنهج أصحابه رضي الله عنهم. أما الورع المخالف للسنة فمحدث غير مشروع وهو ورع أهل البدع كمن يكف عن المباحات ويشدد على نفسه ومن يمتنع عن صلاة الجمعة خلف المبتدع ممن بدعته ليست بمكفرة ومن يترك السمع والطاعة للولاة الظلمة ويخرج عليهم أو يحرض على الخروج عليهم ومن يهجر والديه لاختلاط مالهما وكل ذلك ورع باطل لا يؤجر عليه ومن خالف السنة فقد الورع المشروع الصحيح قال الأوزاعي: (ما ابتدع رجل بدعة إلا سلب الورع). وقال ابن تيمية: (فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس تورعوا عن الظلم وعما اعتقدوه ظلما من مخالطة الظلمة في زعمهم حتى تركوا الواجبات الكبار من الجمعة والجماعة والحج والجهاد ونصيحة المسلمين والرحمة لهم). ومن قله فقه المبتدع وضعف بصيرته أن تجده ورعا في أمر الدنيا متنزها عن المكاسب المشتبهة لكنه منحرف في باب اتباع السنة لا يتوقى قبول البدع والخرافات عن الأصاغر ويبني مذهبه على الروايات الواهية والقصص المنكرة لا يتحرى لدينه كما يتحرى لدنياه.

ومن الورع المحدث المخالف لمنهج السلف الصالح السكوت عن أهل البدع ومداهنتهم في الباطل وإكرامهم قيل للإمام أحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ قال: (إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل). وكانوا يعدون ذلك من الجهاد في سبيل الله قال محمد بن يحيى الذهلي: (سمعت يحيى بن معين يقول: الذب عن السنة أفضل من الجهاد في سبيل الله فقلت ليحيى: الرجل ينفق ماله ويتعب نفسه ويجاهد فهذا أفضل منه؟ قال: نعم بكثير). وقد كان أئمة السنة مع صدقهم وزهدهم ومتانة دينهم لا يتورعون عن الطعن في رؤوس أهل البدع والتحذير من مذاهبهم صيانة للسنة ونصيحة لعموم المسلمين وكانوا يحتسبون الأجر في القيام بهذا الأمر. وقد دلت الأحاديث الصحيحة وآثار الصحابة وفتاوى الأئمة المعتبرين على أن الكلام في الأعيان وبيان حالهم لمصلحة راجحة لا يعد من الغيبة المنهي عنها شرعا بل هو من النصيحة الجائزة عند أهل العلم قال الإمام أحمد: (إذا كان الرجل معلنا بفسقه فليست له غيبة). وقال الحسن البصري: (من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة فيه). أما إذا كان الرجل مخفيا لفجوره ولا يدعو للفجور فيستر عليه فقد سئل الإمام أحمد عن الرجل إذا علم منه الفجور أيخبر به الناس؟ (فقال: لا بل يستر عليه إلا أن يكون داعية).

والورع يعصم المؤمن من الوقوع في الفتن الخاصة والعامة قالت عائشة رضي الله عنها في حديث




الإفك: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْأَلُ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: (يَا زَيْنَبُ، مَا عَلِمْتِ ؟ مَا رَأَيْتِ ؟)، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عائشة: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللهُ بِالوَرَعِ). متفق عليه. وترك الورع يغرق المؤمن في المعاصي قال سهل التستري: (أيما عبد لم يتورع ولم يستعمل الورع في عمله انتشرت جوارحه في المعاصي وصار قلبه بيد الشيطان وملكه). وعمل قليل مع الورع خير من عمل كثير بلا ورع قال يوسف بن أسباط: (يجزئ قليل الورع عن كثير من العمل).

ومن فقه السلف الصالح أن الورع عن الشبهات خير من كثرة النوافل مع التخليط قال الحسن البصري: (مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة). وقال ابن المبارك: (ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف فلس أتصدق بها). وقال النضر بن محمد: (نسك الرجل على قدر ورعه).

والورع مع القيام بالفرائض يدل على التدين الصحيح والعبودية لله وليس كما يظن الجهال أن العبودية الحقة تنال بكثرة النوافل قال حبيب ابن أبي ثابت: (لا يعجبكم كثرة صلاة امرئ ولا صيامه ولكن انظروا إلى ورعه فإن كان ورعا مع ما رزقه الله من العبادة فهو عبد لله حقا). ولذلك كثير من الناس يقوى على الفضائل وقليل منهم من يقوى على الورع.

ومما يعين المرء على خلق الورع أن يستحضر خطر الوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ ومسائلته يوم القيامة قال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ). ﴿٢٨١ البقرة﴾ وأن يستحضر شدة عذاب الله ومقته لمن اجترأ على المحرمات وخاض في مظالم الناس واستخف بحقوقهم عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا). رواه البخاري. وأن يتذكر أن النجاة يوم القيامة والتخفيف في الحساب مرتبط بورعه وكفه عن الشهوات والشبهات في الدنيا قال سفيان الثوري: (عليك بالورع يخفف الله حسابك ودع ما يريبك إلى ما لا يريبك وادفع الشك باليقين يسلم لك دينك).

والاشتغال بعيوب النفس عن عيوب الناس والتوبة من الذنب يثبت الورع في القلب سئل إبراهيم بن أدهم: بم يتم الورع؟ قال: (باشتغالك عن عيوب الخلق بذنبك وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جليل فكر في ذنبك وتب إلى ربك يثبت الورع في قلبك). ومما يذهب الورع




وينقصه تتبع عورات المسلمين والطعن في أعراضهم وإظهار معائبهم وهذا داء خطير قد يبتلى به بعض أهل الديانة قال ابن القيم: (أذا أراد الله بعبد خير جعله معترفا بذنبه ممسكا عن ذنب غيره جواد بما عنده زاهد فيما عند غيره محتملا لأذى غيره وأن أراد به شرا عكس ذلك عليه).

ومن الانحراف في باب الورع أن يقصر المؤمن ورعه في المنكرات والمكاسب ولا يتورع لسانه عن الاستطالة في الأعراض قال ابن القيم: (وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفري فى أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى مايقول وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله: (قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان فقال الله عَزَّوَجَلَّ من ذا الذي يتألى علي إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك). فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله).

والتقلل من الفضول يزيد في الورع قال سهل التستري: (من اشتغل بالفضول حرم الورع). وكثرة الجدال يذهب الورع قال الأوزاعي: (ما خاصم ورع قط). وإذا سكن حب الدنيا في القلب رحل عنه الورع قال أبو جعفر المحولي: (حرام على قلب محب للدنيا أن يسكنه الورع الخفي). والورع لا يساكن اليسار وكثرة المال إلا نادرا قال سفيان الثوري: (ما رأيت ورعا قط إلا محتاجا). فالمحتاج قانع والغني طامع نسأل الله غنى النفس والسلامة من الشح.

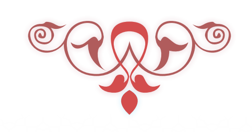
وقد كان السلف الصالح يعتنون بخلق الورع ويولونه اهتماما شديدا ويتعلمونه من مشائخهم ويطبقونه في حياتهم قال الضحاك: (لقد رأيتنا وما يتعلم بعضنا من بعض إلا الورع). وكان عبد الرحمن بن القاسم إذا جاءه بعض الشبان يطلبون الحديث عليه قال لهم: (تعلموا الورع). وقال الحسن البصري: (طلب الحلال أشد من لقاء الزحف). وقال ابن المبارك: (لأن أرد درهما من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف). وقال مسلم بن يسار: (إني لأكره أن أمس فرجي بيميني وأنا لأرجو أن أخذ بها كتابي). وقال يحيى بن أبي كثير: (يقول الناس فلان الناسك فلان الناسك إنما الناسك الورع). وقال هشام: (كنا قعودا ومعنا يونس بن عبيد وذكرنا شيئا فتذاكروا أشد الأعمال فاتفقوا على الورع فجاء حسان بن أبي سنان فقالوا: قد جاء أبو عبد الله فجلس فأخبروه بذلك، فقال حسان: إن للصلاة لمؤنة وإن للصيام لمؤنة وإن للصدقة لمؤنة وهل الورع الا إذا رابك شيء تركته).

ومن صور الورع فيمن قبلنا ما قصه علينا رسول الله ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: (اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ، فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ فِي عَقَارِهِ




جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ، فَقَالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرَى العَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ، وَقَالَ الَّذِي لَهُ الأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الأَرْضَ وَمَا فِيهَا، فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ، فَقَالَ: الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ، وَقَالَ الآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ، قَالَ: أَنْكِحُوا الغُلَامَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا). فالمؤمن الورع لا يستحل مالا إلا من طريق حلال بيقين أما ما اشتبه فيه وتردد في حله فيمتنع عن حيازته ولو كان مالا عظيما وهو في غاية الحاجة إليه.

ومن صور الورع في حياة السلف الصالح قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كان لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي أكلت منه فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه). رواه البخاري. وعن نافع: (أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف في أربعة وفرض لابن عمر ثلاثة آلاف وخمس مائة فقيل له: هو من المهاجرين فلم نقصته من أربعة آلاف؟ فقال: إنما هاجر به أبواه. يقول: ليس هو كمن هاجر بنفسه). رواه البخاري. وقال قزعة: (رأيت على ابن عمر ثيابا خشنة أو جشبة فقلت له: إني قد أتيتك بثوب لين مما يصنع بخراسان وتقر عيناي أن أراه عليك. قال: أرنيه. فلمسه وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا إنه من قطن. قال: إني أخاف أن ألبسه أخاف أكون مختالا فخورا والله لا يحب كل مختال فخور). وقال هشام بن حسان: (أن ابن سيرين اشترى بيعا من منونيا فأشرف فيه على ربح ثمانين ألفا فعرض في قلبه شيء فتركه). قال هشام: ما هو والله بربا. وقال الحسن بن عرفة: (قال لي ابن المبارك: استعرت قلما بأرض الشام فذهبت على أن أرده فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي فرجعت إلى الشام حتى رددته على صاحبه). ومن ورع سفيان الثوري أنه تورع عن أكل رطبة واحدة لما اشتغل بحراسة بستان قال ابن مهدي: (قدم سفيان البصرة والسلطان يطلبه فصار إلى بستان فأجر نفسه لحفظ الثمار صار ناقورا حارسا يحفظ الثمار فمر به بعض العشارين الذين يأخذون أجزاء الثمار للوالي فقال: من أنت يا شيخ؟ قال: من أهل الكوفة. فقال: أرطب البصرة أحلى من رطب الكوفة؟ قال: لم أذق رطب البصرة. قال: ما أكذبك! البر والفاجر والكلاب يأكلون الرطب الساعة). وقال وكيع: (خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا).






فضل الزهد في الدنيا

الزهد في الدنيا من فضائل الأعمال التي لا يقوى عليها إلا خاصة الأولياء الذين ملئت قلوبهم بذكر الله وكمال الرغبة في نعيم الآخرة فهانت الدنيا في نفوسهم واستحقروها وأعرضوا عن زينتها وتقللوا منها قال تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا). ﴿٢٨ الكهف﴾ وقال تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ﴿٢ الملك﴾ قال سفيان الثوري: (أحسن عملا أزهدهم فيها). وقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: (كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ). وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: (إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ). رواه البخاري. وجاء رجل لمحمد بن واسع فقال: (أوصني، قال: أوصيك أن تكون ملكا في الدنيا والآخرة. قال: كيف؟ قال: ازهد في الدنيا).

ومعنى الزهد الإعراض عن زينة الدنيا والاستخفاف بشأنها والرضا بالقليل منها قال ابن رجب: (ومعنى الزهد في الشيء الإعراض عنه لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه يقال: شيء زهيد أي قليل حقير وقد تكلم السلف ومن بعدهم في تفسير الزهد في الدنيا وتنوعت عباراتهم عنه). والزهد الوارد في الشرع هو ترك ما لا ينفع في الآخرة مما يكون ضار للدين أو يشغل عن طاعة الله قال ابن تيمية: (والزهد المشروع هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع). فالمؤمن الزاهد لا تشغله دنياه عن آخرته بل يجعلها مطية لآخرته ولا يفرط بآخرته لأجل دنياه.

وحقيقة الزهد في الدنيا قصر الأمل في القلب بحيث يستحضر المؤمن أنه عابر سبيل في الدنيا راحل عنها عن قريب وليس الاقتصار على بعض مظاهر التخشن مع طمع القلب فيها قال سفيان الثوري: (الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء). وقال ابن المبارك: (الزهد أن تزهد في الدنيا بقلبك). وسئل الزهري عن الزاهد فقال: (من لم يغلب الحرام صبره ولم يشغل الحلال شكره). وقال أحمد بن حنبل: (الزهد في الدنيا قصر الأمل واليأس مما في أيدي الناس). وإذا قصر أمل المؤمن في الدنيا نتج عنه ترك فضول الدنيا واقتصر على بلغته ولم يفتتن بلذاتها وكمالياتها وألوانها وفنونها وإذا طال أمل المؤمن في الدنيا افتتن بزينتها وأكثر من جمعها ونسي هم الآخرة. ويدخل في الزهد الزهد في أموال الناس وعدم التطلع لها ويروى في سنن ابن ماجه: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا




يُحِبَّـكَ اللهُ، وازهَدْ فِيْمَا عِنْـدَ النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ). وقال الفضيل بن عياض: (علامة الزهد في الدنيا الزهد في الناس).

ومـن المفاهيم الخاطئـة في باب الزهد اعتقاد أن الزهد ملازم للفقر ولا يجتمع مع الغنى أبدا قال ابـن تيميـة: (وصار المتأخرون كثيـرا ما يقرنون بالفقر معنـى الزهد والزهد قد يكـون مع الغنى وقد يكون مع الفقر ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير). وسئل الإمام أحمد عمن معـه مال هل يكون زاهـدا قال: (إن كان لا يفرح بزيادته ولا يحزن بنقصه فهو زاهد). ومصداق ذلك في كتـاب الله قوله تعالى: (لِّكَيْلَا تَأْسَـوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُـوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).﴿٢٣ الحديد﴾ فمن لم يحزن على نقص الدنيا ولم يفرح بزيادتها فقد سكن الزهد في قلبه.

أمـا الزهد في التكسـب وتملـك الأموال والرضا بالفقـر والحاجة للناس فليـس ذلك من الزهد المشـروع قال يونس بن ميسـرة: (ليـس الزهادة في الدنيـا بتحريم الحلال ولا إضاعـة المال ولكن الزهـادة في الدنيـا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يـدك وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لـم تصب بها سـواء وأن يكون مادحك وذامك في الحق سـواء). قال ابن رجب: (ففسـر الزهد في الدنيـا بثلاثة أشـياء كلها من أعمال القلـوب لا من أعمال الجوارح ولهذا كان أبو سـليمان يقول لا تشـهد لأحد بالزهد فإن الزهـد في القلب). وقال ابن القيم: (والذي أجمـع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه في منازل الآخرة وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد كالزهد لعبد الله ابن المبارك وللإمام أحمد ولوكيع ولهناد بن السري ولغيرهـم ومتعلقه ستة أشياء لا يستحق العبـد اسـم الزهد حتى يزهـد فيها وهي المال والصور والرياسـة والناس والنفـس وكل ما دون الله وليس المراد رفضها من الملك).

والزهد درجتان:

الأولى: الزهد في زخرف الدنيا وهذا المعنى العام للزهد قال تعالى: (وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).﴿٦٠ القصص﴾

الثانية: الزهد في ثناء الناس وحسن الصيت والرياسة وهذه الدرجة لا يوفق لها إلا من أخلص الله قلبه لهـم الآخرة وإرادة وجه الله وقال يوسف بن أسباط: (الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا). وقال ابن رجب: (الزاهد حقيقة هو الزاهد في مدح نفسه وتعظيمها ولهذا يقال الزاهد في الرياسة أشد منه في الذهب والفضة فمن أخرج من قلبه حب الرياسة في الدنيا والترفع فيها على الناس فهو الزاهد حقا وهذا هو الذي يستوي عنده حامده وذامه).




وبعض الصالحين يزهد في زينة الدنيا لكنه لا يزهد في الشهرة لخلل في إخلاصه وضعف في يقينه وهذه شهوة خفية يبتلى بها بعض المنتسبين للعلم والدعوة قال سفيان الثوري: (ما رأيت زهدا في شيء أقل منه في الرياسة ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرياسة تحامى عليها وعادى).

وقال أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين).

والزاهد حقا من أتته الدنيا منقادة فطلقها ورغب ما عند الله وأعرض عنها أما زهد من عجز عنها ولم تفتح عليه فأمر سهل يحسنه كل أحد قال مالك بن دينار: (الناس يقولون: إني زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها). قال ابن عبد الحكم: (لما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا ورفض ما كان فيه وترك ألوان الطعام). وبعض الناس يظهر الزهد حال فقره فإذا تولى المناصب وفتحت عليه الدنيا هجر الزهد وصار من المترفين.

وقد كان النبي ﷺ سيد الزاهدين في الدنيا مع قدرته على جمعها وكان ينفقها في وجوه الخير ولا يمسك منها إلا قدر حاجته عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، لَسَرَّنِي أَنْ لَا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِنْدِي مِنْهُ شَيءٌ إِلَّا شَيءٌ أُرْصِدُه لِدَينٍ). متفق عليه. وفي الصحيحين قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهو مُضْطَجِعٌ على حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فأدْنَى عليه إزَارَهُ وليسَ عليه غَيْرُهُ، وإذَا الحَصِيرُ قدْ أثَّرَ في جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي في خِزَانَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا أنَا بقَبْضَةٍ مِن شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا في نَاحِيَةِ الغُرْفَةِ، وإذَا أفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قالَ: ما يُبْكِيكَ يا ابْنَ الخَطَّابِ قُلتُ: يا نَبِيَّ اللهِ، وَما لي لا أَبْكِي وَهذا الحَصِيرُ قدْ أَثَّرَ في جَنْبِكَ، وَهذِه خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى في الثِّمَارِ وَالأنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَصَفْوَتُهُ، وَهذِه خِزَانَتُكَ، فَقالَ: يا ابْنَ الخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلتُ: بَلَى). ومن كمال زهده ﷺ كان لا يتكلف شيئا من متاع الدنيا إن وجده استمتع به ولم يمتنع عنه وإن فقده لم يحزن على فقده قال ابن تيمية: (فرسول الله ﷺ إمام الزهد كان لا يرد موجودا ولا يتكلف مفقودا بل إن حضر لحم دجاج أكله أو لحم غنم أكله أو حلواء أو عسل أو فاكهة أكله. وإن لم يجد شيئا لم يتكلفه. وكان إذا حضر طعاما فإن اشتهاه أكله وإلا تركه ولا يتكلف ما لا يحضر. وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع. وقد كان يقيم الشهر والشهرين لا يوقد في بيته نار).

وكانت مجالس السلف الصالح مجالس زهد في الدنيا قال أبو داود: (كنت أجالس أحمد وكانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا ما رأيته ذكر الدنيا قط).




ولا يكون المرء إماما للناس حتى يزهد في الدنيا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾.﴿٢٤ السجدة﴾ قال قتادة: (لما صبروا عن الدنيا). وقال سفيان: (هكذا كان هؤلاء ولا ينبغي للرجل أن يكون إماما يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا).

والزهد له فوائد عظيمة على المؤمن من سلامة القلب من الحسد والبغي ومحبة الخلق والسعادة في الدنيا قال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.﴿٩ الحشر﴾ والزهد يهون المصايب على قلب المؤمن قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات). والزهد يدل على الحكمة قال مالك: (بلغني أنه ما زهد أحد في الدنيا واتقى إلا نطق بالحكمة). ويذوق به المؤمن حلاوة الإيمان قال الفضيل بن عياض: (حرام على قلوبكم أن تصيب حلاوة الإيمان حتى تزهدوا في الدنيا). والزهد راحة للمؤمن من الهموم والأحزان قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الزهد في الدنيا راحة القلب والبدن). وإذا ارتاح المؤمن تفرغ للعبادة. والزاهد لا ينازع الناس في دنياهم ولا يحزن على مافاته من الدنيا قال الفضيل بن عياض: (لا يسلم لك قلبك حتى لا تبالي من أكل الدنيا). والزهد يرغب المؤمن في محبة لقاء الله في الآخرة قال بشر بن الحارث: (ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت ومن زهد فيها أحب لقاء مولاه). والزهد في الدنيا يورث محبة الله ومحبة الخلق كتب أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بعض إخوانه: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم والسلام). ومن زهد في الدنيا وتخفف منها خف حسابه يوم القيامة ولم يطل وقوفه عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ). متفق عليه.

والزهد التام له علامات:

الأولى: التواضع وحب الخمول والبعد عن الشهرة.

الثانية: عدم الحزن والهم على فوات الدنيا والفرح بكثرتها قال مالك بن دينار: (بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك).

الثالثة: القناعة بما قسم الله من الرزق قال الفضيل بن عياض: (أصل الزهد الرضا عن الله عَزَّوَجَلَّ).

الرابعة: عدم منافسة الخلق في الدنيا والتطلع لما في أيديهم.

الخامسة: الورع عن الحرام والشبهات قال أبو سليمان الداراني: (الورع أول الزهد كما أن القناعة أول الرضا).




وتحقيق اليقين بالله يحدث في قلب المؤمن الزهد في الخلق والزهد في الدنيا وغنى النفس قال ابن رجب: (فمن حقق اليقين وثق بالله في أموره كلها ورضي بتدبيره له وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفا ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة ومن كان كذلك كان زاهدا في الدنيا حقيقة وكان من أغني الناس وإن لم يكن له شيء من الدنيا كما قال عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كفي بالموت واعظا وكفي باليقين غني وكفي بالعبادة شغلا). وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اليقين أن لا ترضي الناس بسخط الله ولا تحمد أحدا على رزق الله ولا تلم أحدا على ما لم يؤتك الله عَزَّوَجَلَّ فإن الرزق لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهية كاره فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بقسطه وعلمه وحلمه جعل الروح والفرج في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)).

وأعظم ما يعين المؤمن على الزهد استحضار حقيقة الدنيا قال تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ). ﴿١٨٥ آل عمران﴾ قال سعيد بن جبير: (متاع الغرور لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة. ومن اشتغل بطلبها فله متاع بلاغ إلى ما هو خير منه). وإذا أيقن المؤمن أن الدنيا زائلة وكل نعيمها صائر إلى الهلاك زهد فيها وحرص على الآخرة قال الأوزاعي: (من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ومن علم أن منطقه من عمله قل كلامه). وكلما أوقظ المؤمن في قلبه هم الآخرة خبت نار الدنيا في قلبه قال أبو سليمان الداراني: (لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة). ومن أعظم ما يفطن المؤمن لمقام الزهد ويرغبه فيه ذم الله للدنيا وتزهيد الخلق فيها قال تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ). ﴿٩٦ النحل﴾ قال الأوزاعي: سمعت بلال بن سعد يقول: (والله لكفى به ذنبا أن الله عَزَّوَجَلَّ يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها فزاهدكم راغب ومجتهدكم مقصر وعالمكم جاهل).

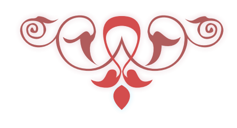
وكيف لا يزهد المؤمن في الدنيا والنبي ﷺ يبين لنا حقارتها وزوالها وأن العيش التام والخالد في الآخرة بقوله ﷺ: (اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ). متفق عليه.

ومن أكثر التدبر في كلام الله أورثه الزهد في نعيم الدنيا قال ابن القيم: (والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قلبه شاهدا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار).

وإذا تعلقت نفسك بنعيم الدنيا وفتنت بزخرفها فتأمل قوله تعالى: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ). ﴿١٣١ طه﴾ فكفى بها واعظة وزاجرة عن التعلق بنعيم ناقص مكدر منقطع لا يدوم.




وقد سبق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من بعدهم من التابعين بالزهد في الدنيا قال عبد الرحمن بن بزيد: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر جهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم. قالوا: لم يا أبا عبد الرحمن؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة). وأخبارهم في الزهد مشهورة فقد بعث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرة بمائة ألف درهم فما أمست حتى فرقتها فقالت لها خادمتها: لو اشتريت لنا منهم بدرهم لحما؟ فقالت: ألا قلت لي؟. وأخرج ابن أبي شيبة عن طارق بن شهاب قال: (لما قدم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشام أتته الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة وأخذ برأس بعيره يخوض الماء فقالوا له يا أمير المؤمنين تلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذا الحال قال: فقال عمر: إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلن نتلمس العز بغيره). ودخل رجل على أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعل يقلب بصره في بيته فقال له: يا أبا ذر أين متاعك؟ فقال: إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا. قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ها هنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه. وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من أراد الآخرة أضر بالدنيا ومن أراد الدنيا أضر بالآخرة ياقوم فأضروا بالفاني للباقي).






فوائد الاستغفار

أرشـد الله عباده إلى الاسـتغفار بقوله تعالى: ﴿وَاسْـتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. ﴿١٩٩ البقرة﴾ والاسـتغفار له أثر عظيم في صلاح العبد وسـعادته واسـتقامة أحواله وتخلصه من الآثام والشـرور والفتـن ولذلـك كان رسـول الله ﷺ يواظب على الاسـتغفار مائة مـرة في اليوم والليلـة كما ثبت في صحيح مسلم عن الأغر المزني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّه لَيُغَانُ علَى قَلْبِي، وإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ، فِي اليَومِ مِئَةَ مَرَّةٍ). قال ابن تيمية: (والغين حجاب رقيق أرق من الغيم فأخبر أنه يستغفر الله استغفارا يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء).

والمؤمن محتاج للاستغفار في الليل والنهار لعظيم فضله وكثرة ثوابه وحسن أثره وتعدد فضائله قال ابن تيمية: (الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب ومن العمل الناقص إلـى العمـل التام ويرفـع العبد من المقـام الأدنى إلى الأعلى منـه والأكمل فإن العابـد لله والعارف بـالله في كل يـوم بل في كل سـاعة بـل في كل لحظة يزداد علما بـالله وبصيرة في دينـه وعبوديته بحيث يجـد ذلك في طعامه وشـرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله ويرى تقصيـره في حضور قلبه في المقامات العاليـة وإعطائها حقها فهو يحتاج إلى الاسـتغفار أناء الليل وأطـراف النهار بل هو مضطر إليه دائما في الأقوال والأحوال في الغوائب والمشـاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرات وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية واليقينية الإيمانية).

والاستغفار يقوي صلة العبد بربه ويجدد العهد مع الله ويحقق عبوديته لأن حقيقته يقول العبد أنا عبـدك يا ربي قد أذنبت وقصرت في حقك فاغفر لي ذنبي واسـترني وتجاوز عني قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ﴿١٦ آل عمران﴾

والاسـتغفار يتضمـن اعـتراف العبـد بفقره لمـولاه وحاجته لرحمته وإحسـانه ولذلـك جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سـمع رسـول ﷺ يقـول: (أَذنَب عبْدٌ ذَنْبًا فقـالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِـي ذَنْبِـي، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِم أَنَّ لَهُ رَبًّـا يَغفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَـبَ، فَقَـالَ: أَيْ ربِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِرْ لِي ذَنبي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، قد غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ).

والاستغفار يمحو الذنوب ويسترها ويطهر العبد من الخطايا والرزايا كما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسـول الله ﷺ عن ربه تعالى: (يا عِبَادِي إِنَّكُـمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ).




والاستغفار يحقق للعبد الرضا والطمأنينة وراحة البال لأن القرب من الله يورث العبد ذلك قال تعالى: (وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى). ﴿٣ هود﴾ وقال ابن تيمية: (إن من أسباب راحة البال استغفار ذي الجلال).

والاستغفار يطرد الهم ويزيل الغم ويوسع الرزق ويجعل روح المؤمن في سعادة وسرور وحبور ويكسبها خشوع وسكينة وهدوء لأنه يطهر القلب من الأدران ويطرد الشيطان عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ). رواه أبو داود.

والاستغفار طريق لمحبة الله والفوز بمرضاته لأن الله يحب التوابين قال تعالى: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِين). ﴿٢٢٢ البقرة﴾ وإذا استشعر المؤمن هذا المقام أكسبه ذلك سعادة وفرحة وبهجة لا يحيط بها وصف ولا تفسرها كلمات.

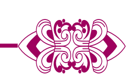
والاستغفار يهذب النفس ويزكي الروح ويكسبها خشوعا وسكينة وهدوء لأنه يطهر القلب من الأدران ويطرد الشيطان ويصقل الروح ويطيب الخاطر ومن واظب عليه عاش لحظات سعيدة من عمره قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ). ﴿١٣٥ آل عمران﴾

والاستغفار يورث القلب انكسارا والجوارح تواضعا ويخلص العبد من الكبر والخيلاء لأن المستغفر يشعر بحسرة الذنب قد كسرت قلبه المعصية ويطلب الستر وهو مطأطئ الجناح وهذا المقام ينافي الكبر ويقتضي الإخبات.

وكثرة الاستغفار يحفظ اللسان من الآثام والعين من الخيانة والجوارح من الذنوب لأنه يزيد في الإيمان ويطرد سلطان الشهوة ويبعث في النفس تعظيم الله وتوقير حدوده.

والاستغفار أعظم دواء وشفاء لمن أسرف على نفسه بالسيئات وصار أسيرا للشهوات وأراد أن يحرر نفسه ويعتقها من عبودية الشيطان وفي صحيح مسلم: (يا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ). قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم فأما داؤكم فالذنوب وأما دوائكم فالاستغفار).

والاستغفار يحمل العبد على رحمة الخلق ولين الجانب معهم والتجاوز عن زلاتهم لأن المستغفر يطلب التجاوز والرحمة من المولى فلا يليق بالمستغفر أن يؤاخذ غيره ممن أخطأ في حقه وينزل به العقوبة ولا يسامحه عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (الرَّاحِمُونَ



يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ. ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللهُ). رواه الترمذي. ومن طمع في رحمة الله ومغفرته فليرحم الخلق لتتنزل عليه الرحمات والنفحات.

وكثرة التوبة والاستغفار ولزومه يحل الأزمات ويرفع البلاء وينفس الكرب ويحقق الفرج بعد الشدة قال ابن رجب: (فالمؤمن إذا أصابه في الدنيا بلاء رجع إلى نفسه باللوم ودعاه ذلك إلى الرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار وفي المسند وسنن أبي داود عن النبي ﷺ قال: (إن المؤمن إذا أصابه سقم ثم عافاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل من عمره وإن المنافق إذا مرض وعوفي كان كالبعير عقله أهله وأطلقوه لا يدري بما عقلوه ولا بما أطلقوه)).

والاستغفار يجلب الرزق ويبارك فيه ويوسع على العبد في دنياه وله أثر عظيم في تيسير الأمور قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١١) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً).﴿١٢ نوح﴾

والاستغفار سبب عظيم بإذن الله لرزق العبد نعمة الولد قال تعالى: (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً).﴿١٣ نوح﴾ ومن كان عقيما أو عنده مشكلة في الإنجاب فليكثر من الاستغفار.

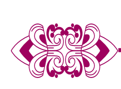
والاستغفار يزيد المؤمن قوة في بدنه وماله وولده وأهله ويقيه من الآفات والعلل قال تعالى: (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ).﴿٥٢ هود﴾

والاستغفار يحل الصعاب ويوضح المشكل ويكشف الفتن ويفتح مغاليق العلم قال ابن القيم: (وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجوء إليه واستنزال الصواب من عنده والاستفتاح من خزائن رحمته فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدا وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ).

والاستغفار يمنع من نزول العقوبة على العبد في الدنيا ويدرأ عنه العذاب في الآخرة قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).﴿٣٣ الأنفال﴾ قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أمانان كانا على عهد رسول الله ﷺ رفع أحدهما وبقي الآخر).

واستغفار الولد لأبويه يرفع منزلتهما في الجنة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ). رواه أحمد.






ويستحب الاستغفار للمؤمن في كل ساعة ويتأكد في مواطن:

١- وقت السحر قال تعالى: (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ).﴿١٧ آل عمران﴾ عن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: (سمعت رجلا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: رب أمرتني فأطعتك وهذا سحر فاغفر لي فنظرت فإذا ابن مسعود).

٢- حال الركوع والسجود لما ورد في الصحيحين قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ سَبحانَكَ اللَّهمَّ وبحَمدِكَ اللَّهمَّ اغفر لي يتأوَّلُ القرآن).

٣- عند الفراغ من العبادة في الصلاة كما ثبت في صحيح مسلم عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اِسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا). والفراغ من مناسك الحج قال تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).﴿١٩٩ البقرة﴾ ليغفر الخلل والتقصير الوارد في العبادة.

٤- عند الوقوع في الذنب قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيمًا).﴿١١٠ النساء﴾

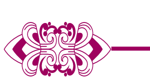
٥- في ختام المجلس لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِس فكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذَلِكَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ في مَجْلِسِهِ ذَلكَ). رواه الترمذي.

٦- عند حصول الغفلة والتعرض للشبهات والشهوات قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ).﴿٢٠١ الأعراف﴾

٧- عند الخروج من الخلاء لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ قَالَ: غُفْرَانَكَ). رواه أبو داود والترمذي.

٨- في أذكار الصباح والمساء عن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (سَيِّدُ الِاسْتِغْفارِ أنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أنْتَ رَبِّي لا إلَهَ إلَّا أنْتَ، خَلَقْتَنِي وأنا عَبْدُكَ، وأنا علَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِن شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وأَبُوءُ لكَ بذَنْبِي فاغْفِرْ لِي، فإنَّه لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ قالَ: ومَن قالَها مِنَ النَّهارِ مُوقِنًا بها، فَماتَ مِن يَومِهِ قَبْلَ أنْ يُمْسِيَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ، ومَن قالَها مِنَ اللَّيْلِ وهو مُوقِنٌ بها، فَماتَ قَبْلَ أنْ يُصْبِحَ، فَهو مِن أهْلِ الجَنَّةِ). رواه البخاري.

٩- عند النوم لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ




إلى فِراشِـهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بها فِرَاشَـهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ، فإنَّه لا يَعْلَمُ ما خَلَفَهُ بَعْدَهُ على فِرَاشِـهِ، فَـإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ على شِـقِّهِ الأيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُـبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إنْ أَمْسَـكْتَ نَفْسِـي، فَاغْفِرْ لَهَا، وإنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بما تَحْفَظُ به عِبَـادَكَ الصَّالِحِينَ. وفي روايةٍ: بهذا الإِسْنَادِ، وَقالَ: ثُمَّ لْيَقُلْ: باسْـمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، فإنْ أَحْيَيْتَ نَفْسِي، فَارْحَمْهَا).

١٠- عند الكسـوف والخسـوف لما في الصحيحين قال أبو موسـى الأشـعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (خَسَـفَتِ الشَّمْسُ، فَقامَ النبيُّ ﷺ فَزِعًا، يَخْشَى أنْ تَكُونَ السَّاعَةُ، فأتَى المَسْجِدَ، فَصَلَّى بأَطْوَلِ قِيامٍ ورُكُوعٍ وسُـجُودٍ رَأَيْتُـهُ قَطُّ يَفْعَلُهُ، وقالَ: هذِه الآياتُ الَّتي يُرْسِـلُ اللهُ، لا تَكُونُ لِمَـوْتِ أحَدٍ ولا لِحَياتِهِ، ولَكِنْ يُخَوِّفُ اللهُ به عِبادَهُ، فإذا رَأَيْتُمْ شيئًا مِن ذلكَ، فافْزَعُوا إلى ذِكْرِهِ ودُعائِهِ واسْتِغْفارِهِ).

والاستغفار الوارد في النصوص نوعان كما بينه ابن القيم وأوضح معناه:

الأول: الاسـتغفار المفرد كقول نوح لقومه: (اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١١) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً). ﴿١٢ نوح﴾ وهو بمعنى التوبة متضمن طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره وليس معناه مجرد الستر كما يظنه بعض الناس فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ). ﴿٣٣ الأنفال﴾

الثاني: الاسـتغفار المقرون بالتوبـة كقوله تعالى: (اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَـنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَـمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْـلٍ فَضْلَهُ).﴿٣ هود﴾ ويكون معنى الاسـتغفار هنا: طلب وقاية شـر الذنوب الماضية والتوبة: طلب وقاية شـر الذنوب المسـتقبلية وتتحقق بالعزم على الترك وعدم الرجوع إليها مطلقا فيجتمع في قلب المؤمن ندم على الماضي وعزم على الترك في المسـتقبل وهذه حقيقة الرجوع إلى الله والفرار من المعصية للطاعة.

والاستغفار يجزئ بأي صيغة تتضمن طلب المغفرة والستر من الرحمن كقولك: أستغفر الله أو أستغفر الله وأتوب إليه وقد ورد في النصوص بصيغ متنوعة ومن أفضل الصيغ ما ورد في حديث سيد الاسـتغفار المخرج في صحيح البخاري عن شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وكذلك ما ورد في الصحيحين عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: (قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِـي ظُلْمًـا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِـنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ). وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ

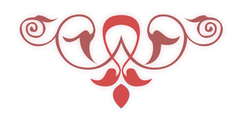



اغْفِرْ لي خَطِيئَتي وَجَهْلِي، وإِسْرافِي في أَمْرِي، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذلكَ عِندِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وَما أَخَّرْتُ، وَما أَسْرَرْتُ وَما أَعْلَنْتُ، وَما أَنْتَ أَعْلَمُ به مِنِّي، أَنْتَ المُقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ). متفق عليه.

فينبغي للمؤمن أن يغتنم فراغه بالاستغفار ويعود لسانه على المواظبة عليه ويستكثر منه بالليل والنهار قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا). وقال بكر بن عبدالله المزني: (إنكم تستكثرون من الذنوب فاستكثروا من الاستغفار وإن الرجل إذا أذنب ذنبا ثم رأى إلى جنبه استغفارا سره مكانه). وقال الحسن البصري: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة). وقال مالك بن مغول: سمعت أبا يحيى يقول: شكوت إلى مجاهد الذنوب، قال: أين أنت من الممحاة؟ يعني: من الاستغفار. وقال أبو المنهال: (ما جاور عبد في قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير).

ومن كمال الإحسان وسلامة الصدر الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات قال ابن جريج: (قلت لعطاء: أستغفر للمؤمنين والمؤمنات؟ قال: نعم قد أمر النبي ﷺ بذلك فإن ذلك الواجب على الناس قال الله لنبيه ﷺ: (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ).﴿١٩ محمد﴾ قلت: أفتدع ذلك في المكتوبة أبدا؟ قال: لا. قلت: فبمن تبدأ بنفسك أم بالمؤمنين؟ قال: بل بنفسي كما قال الله: (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)). رواه عبدالرزاق.

ويحرم الاستغفار للمشرك ولو كان من أقرب الناس لما ورد في الصحيحين عن المسيب بن حزن رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنْه. فَنَزَلَتْ: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ).﴿١١٣ التوبة﴾).






التفكر في خلق الله

الله عَزَّوَجَلَّ تعبدنا بأنواع العبادات الظاهرة والباطنة والفعلية والقولية والبدنية والمالية والعامة والخاصة فشرع هذا التنويع ليتحقق كمال التأله لله ويندفع السآمة عن المكلف ويتجدد الشوق والرغبة في العمل.

ومن هذه العبادات النافعة عبادة التفكر التي تتعلق بالقلب ولا يستعمل فيها اللسان وباقي الجوارح فهي عبادة صامتة جليلة لها ثمار عظيمة قال ابن القيم: (التفكر من أفضل أعمال القلوب وأنفعها حتى قيل: تفكر ساعة خير من عبادة سنة. فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم).

وقد ورد في التفكر فضل عظيم في الكتاب والسنة والآثار قال تعالى في سياق مدح المؤمنين: (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ). ﴿١٩١ آل عمران﴾ قال ابن جرير: (فإنه يعني بذلك أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء ومن هو مالك كل شيء ورازقه وخالق كل شيء ومدبره ومن هو على كل شيء قدير وبيده الإغناء والإفقار والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والشقاء والسعادة). وفي الإسرائيليات روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: (طوبى لمن كان قيله تذكرا وصمته تفكرا ونظره عبرا). وقال عمر بن عبد العزيز: (الكلام بذكر الله عَزَّوَجَلَّ حسن والفكرة في نعم الله أفضل العبادة).

وقد اعتنى السلف الصالح بهذه العبادة الجليلة وكان لهم فيها أحوال حسنة قال أبو سليمان الداراني: (إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة). وقال الحسن البصري: (تفكر ساعة خير من قيام ليلة). وقال الفضيل بن عياض: (الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك). وقال وهب بن منبه: (ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم وما فهم إلا علم وما علم إلا عمل). وقال سفيان بن عيينة: (الفكرة نور يدخل قلبك).

والتفكر معناه في الشرع إعمال العقل في أسرار ومعاني الآيات الشرعية والآيات الكونية عن طريق التأمل والتدبر وملاحظة وجه الكمال والجمال ومشاهدة الدقة وحسن التنظيم والسنن الكونية والتماس الحكمة والعبرة والعظة من وراء ذلك للاستدلال إلى مقام التوحيد ومشهد الإخلاص وأوصاف الرب وفضل الهداية والحكمة من الخلق.

وقد خاطب الله الكفار وحثهم على التفكر في ملكوت السماوات والأرض ليعرفوا تفرده واستحقاقه للحمد فيخلصوا العبادة له وتخبت قلوبهم وتخضع له وتكفر بما سواه من الشركاء العاجزين قال تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ). ﴿١٨٥ الأعراف﴾

وقد خاطب الله المؤمنين الصادقين بأن يتفكروا ويعتبروا في مصير اليهود حين خالفوا الله ورسوله ونقضوا العهد وخانوا الأمانة كيف عاقبهم الله بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ). ﴿٢ الحشر﴾ قال ابن كثير: (أي: تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم). وفي زوال ملك المسلمين في الأندلس عبرة عظيمة وموعظة بليغة كيف هانوا على الله وتفرق وصلهم وذهبت دنياهم لما عصوا أمره واستخفوا بشرعه وركنوا إلى الدنيا وطلبوا العزة من أعدائهم.

وأهل التفكر هم العالمون الذين يتدبرون في الآيات ويعتبرون بالمواعظ قال السعدي: (والعالمون هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما أن ذلك دال على عظمة سلطان اللّه وكمال اقتداره الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة وكمال حكمته لما فيها من الإتقان وسعة علمه لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) ﴿١٤ الملك﴾ وعموم رحمته وفضله لما في ذلك من المنافع الجليلة وأنه المريد الذي يختار ما يشاء لما فيها من التخصيصات والمزايا وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحد لأنه المنفرد بالخلق فيجب أن يفرد بالعبادة فكل هذه أدلة عقلية نبه اللّه العقول إليها وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها).



ومجالات عبادة التفكر في الأمور الآتية:

(١) آيات الله الكونية بأن يشاهد المرء جمال روعة الجبال والبحار والأشجار والأنهار والسهول والطبيعة الخلابة ويلاحظ تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر وفق نظام بديع لا يتخلف ولا يضطرب على مر الزمان قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا). ﴿٦٢ الفرقان﴾

(٢) الآيات الشرعية في آي القرآن بأن يلاحظ بلاغة القرآن وفصاحته وحسن تنظيم الكلام ومناسبته لأغراض الكلام ومقام السياق وإعجازه وحسن عرضه لقضايا التوحيد والتشريع والسلوك والآداب قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). ﴿٤٤ النحل﴾ ويتدبر في معانيه ويقف على حكمه ومواعظه وأخباره وزواجره قال تعالى: (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا). ﴿٢٤ محمد﴾ قال ابن القيم: (تدبر القرآن هو تحديق ناظر القلب إلى معانيه وجمع الفكر على تدبره وهو المقصود بإنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر).

(٣) تكوين الإنسان بأن يشاهد تنوع الأعضاء وحسن تنسيقها وبديع صنعها ودقتها وكبير فائدتها وانسجامها في العمل فيتأمل في القلب والشرايين والأعصاب ووظائف العقل وإعجاز حاسة النطق والسمع والبصر واللمس والذوق وما يجري في هذه النفس من الدم والماء والإنزيمات التي تضمن حياته وتؤثر على تصرفاته قال تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ). ﴿٢١ الذاريات﴾ ويتفكر في اختلاف الألسن واختلاف الألوان واختلاف الطبائع قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ). ﴿٢٢ الروم﴾

(٤) طبيعة النفس البشرية بأن يتأمل في نزعات النفس والرغبات التي خلقه الله عليها من حب الدنيا والرياسة والتملك وحب الاعتداء والاستيلاء على ملك الغير وحب الخلود. ويتأمل في غريزة حب العمارة فلو كان جميع الخلق زاهدا لما عمرت الأرض قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا). ﴿٧٢ الأحزاب﴾

(٥) التفكر في كفاية الكائنات الحية حيث خلقها الله وجعلها تعيش وفق نظام دقيق وعام وشامل حيث أنشأها على اختلاف أنواعها وتنوع طبيعتها وتكفل برزقها وتسييرها وهداها لمصالح عيشها وكفايتها فلم يعجزه ذلك مع كثرتها وتنوعها. وكلما زادت أحدث الله سببا جديدا في




الـرزق. فلا تغتر ولا يهولنـك كلام الكفار عباد الدنيا من نقـص الأرزاق في الأرض ونفاد الماء وخشـية هـلاك العالم فهـذا الكلام يصـدر ممن لم يعرف عظـم الخالق وكمـال علمه ورحمته ولطفـه وتفرده بالرزق قال تعالى: (وَمَـا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْـتَقَرَّهَا وَمُسْـتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ).﴿٦ هود﴾ فالله تكفل بالرزق ويعلم أين يأوي كل حيوان وأين يموت. والمؤمن الحق يوقن بلطف الله بعباده قال ابن القيم: (لو كشف الله الغطاء لعبده وأظهر له كيف يدبر له أموره وكيف أن الله أكثر حرصا على مصلحة العبد من نفسه وأنه أرحم به من أمه لذاب قلب العبد محبة لله ولتقطع قلبه شكرا لله).

(٦) التأمل في نشـأة خلق الكائنات على اختلاف طبائعها ووظائفها وتصنيفها وبيئتها سـواء كانت كائنـات دقيقـة لا ترى بالعين أو ظاهرة وسـواء كانت بحريـة أو بريه أو برمائية وسـواء كانت أحاديـة الخلـق أو مركبـة. فيتأمل في نشـأة النبات كيف ينمـو والطير في أوكارهـا والحيوان في الغابـات وهـذا بـاب كبير التفكـر فيه لا ينقضـي ولا يحيط بعلمـه مخلوق قال تعالـى: (وَاللهُ خَلَـقَ كُلَّ دَابَّـةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُم مَنْ يَمْشِـي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلَى رِجْلَيْـنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِـي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَـاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ).﴿٤٥ النور﴾ وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَـرَابٌ وَمِنْهُ شَـجَرٌ فِيهِ تُسِـيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِـنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).﴿١١ النحل﴾ فيا سبحان الله ما أعظم عجائبه.

(٧) التفكـر في حال الدنيا وسـرعة زوالهـا وعظم فتنتها وتقلب أحوالها وتـداول أيامها وحال أهلها اللاهثين وراء سرابها العابدين لها المفتونين بزينتها ثم تنكرها لهم وجحودها إياهم ومآلهم فيها إلى الخسـارة والهوان والهم والحسـرة في الحياة والممات فحالهم معهـا كرجل افتتن بعروس وأنفق في سبيلها وتعلق قلبه بها ثم لما زفت إليه وانكشف الغطاء رأى منها ما يهوله من النقائص والعيوب فانقبض منها ثم ولت عنه مسـرعة وفي قلبه حسـرة وندامة قال تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّـمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).﴿٢٤ يونس﴾

(٨) التفكر في أحوال الأمم السـابقة والشعوب البائدة والحضارات المندثرة كيف وجدوا وتكاثروا ومكـن لهم وعمـروا الأرض واغـتروا بعددهم وعدتهـم وأموالهم وكيدهم ثم جاءتهم الرسـل يدعونهم للحق فاسـتكبروا فنـزل عليهم العذاب فأبادهم عن بكرة أبيهم وبقيت آثارهم شـاهدة




علـى كفرهـم وعجزهم وزوالهم والحديث عـن هذا يطول وفي قصصهم عـبرة للمتفكرين قال تعالى: (أَوَلَمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَـدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَـا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).﴿٩ الروم﴾

والتفكـر في ذات الله وصفاتـه ممنوع لأن العقل يسـتحيل عليه إدراك كنـه ذلك والإحاطة بعلمه وكيفيتـه قـال تعالـى: (وَلَا يُحِيطُـونَ بِهِ عِلْمًـا).﴿١١٠ طه﴾ وقـد ورد النهي عنـه في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (يَأْتِي الشَّـيْطانُ أحَدَكُمْ فَيَقُولَ: مَنْ خَلَقَ كَذَا وكَذَا؟ حتَّى يَقُولَ لَـهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذا بَلَغَ ذَلِكَ، فَلْيَسْـتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ). وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في الله). وعقل المخلوق لا يمكن أن يتصور حقيقة الروح والبرزخ وأهوال الآخـرة لأنهـا من الغيبيات التي اسـتأثر الله بعلمهـا وإنما الطريق الوحيد في هذه المسـائل التسـليم بالحقائق الشـرعية الثابتة وهذا هو مسـلك الأنبياء وأتباعهم أما مخالفوهم من الفلكيين والفلاسـفة والعقلانييـن فعقولهـم قاصرة عـن إدراك هذه المسـائل لزيغهم وانطماس فطرتهم قال إسـحاق بن راهويـة: (لا يجـوز التفكر في الخالق ويجـوز للعباد أن يتفكروا في المخلوقين بما سـمعوا فيهم ولا يزيدون على ذلك لأنهم إن فعلوا تاهوا). وقال نعيم بن حماد: (حق على كل مؤمن أن يؤمن بجميع مـا وصف الله به نفسـه ويـترك التفكر في الـرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويتبع حديث النبي ﷺ أنه قـال: تفكروا في الخلـق ولا تتفكـروا في الخالق). قلت: وهذا الخبر لا يصح عن النبـي ﷺ. وقال الأصبهاني: (ومن تفكـر في الله وفي صفاتـه ضـل ومن تفكر في خلـق الله وآياته ازداد إيمانا). والسـؤال عـن كيفية هذه المسـائل بدعة ولهذا لما سـأل رجل الإمام مالك عن كيفية صفة الاسـتواء منعـه وأنكر عليه وقال: (الاسـتواء معلوم والكيـف مجهول والإيمان به واجب والسـؤال عنه بدعـة). والتفكر في الغيبيات بمجرد العقل يفضي إلى الوقوع في مفاسد اعتقادية من التفويض والتشبيه والتمثيل والإلحاد وطروء الشك في المسلمات قال أبو جعفر الطحاوي: (العلم علمان: علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود فإنكار العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر).






والمرء إذا قام بعملية التفكر في خلق الله وآلائه استفاد أمورا:

١- سعة علم الله وخبرته بخلقه وأحوالهم وما يصلح لهم.

٢- سعة قدرة الله ودقة إتقانه للمخلوفات.

٣- سعة رحمة الله وإحسانه على خلقه.

٤- سعة غضب الله وعذابه وانتقامه ممن عصاه.

٥- عظيم حكمة الله وحسن تقديره للكائنات.

٦- افتقار الإنسان وتذلله وعجزه وقلة حيلته فهو أداة صغيرة في هذا الكون العظيم المسخر له.

٧- عظم حق الله على خلقه.

٨- حقارة هذا الدنيا وزوالها وعدم دوامها.



وهذه المعاني تنتج في قلب المؤمن ثمرات التفكر:

أولا: أن يستقر في قلبه عظم الخالق وغناه وتفرده بالخلق والتدبير وتكفله برزقهم وتصرفه المطلق بشؤونهم فكل ذلك يجعله يقر ويعترف بتفرد الخالق بالعبادة فيخضع له ويتأله له وينصرف له بالعبادة وحده دون ما سواه قال قتادة: (من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة). وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء لدلالات وحججا وعظات لقوم يتفكرون فيها فيستدلون ويعتبرون بها فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها).

ثانيا: أن يحدث ذلك في قلبه زيادة الإيمان فإنه إذا تعرف على كمال صفات الرب وجماله وجلاله من علم وقدرة وحكمة وحسن عادته ورحمته بالخلق وقيامه بمصالحهم وحلمه عليهم على مر الزمان وإنزال الرحمة عليهم مع كونهم يعصونه بالليل والنهار زاد إيمانه في قلبه لمشاهدته عظم الخالق فكلما زاد اليقين زاد الإيمان ولهذا كان العلماء العارفون بالله أخشى العباد لله قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ). ﴿٢٨ فاطر﴾ قال الحسن البصري: (العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه وزهد فيما سخط الله فيه. ثم تلا هذه الآية.



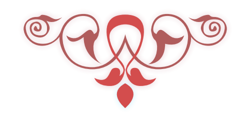

ثالثا: أن يحدث ذلك في قلبه ترك الذنوب والإقلاع عن المعاصي والإعراض عن الشهوات والغفلة والإقبال على التوبة والإنابة لله لأنه تعرف على شدة غضب الله وعذابه وسخطه وقدرته وانتقامه من العصاة وتأمل في آيات الله ووعيده للكفار والمفسدين وهلاك الأمم السابقة قال تعالى: (وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ).﴿٥٠ الحجر﴾ قال بشر الحافي: (لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى ما عصوه).

رابعا: أن يحدث ذلك في قلبه الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ولا يغتر بطول الأمل ولا يركن إلى كثرة ماله وولده وجاهه ورئاسته ويحدث نفسه بقرب الرحيل من الدنيا وأن مصير كل حي الموت عند حلول أجله فيبادر في قضاء حوائج الخلق والتخفف من أوزار الدنيا قبل أن تحين ساعة الندم فمن تفكر في دنائة الدنيا زهد في ملذاتها قال الحسن البصري: (من عرف ربه أحبه ومن أبصر الدنيا زهد فيها والمؤمن لا يلهو حتى يغفل وإذا تفكر حزن).

ومن التفكر المحمود النظر والتدبر في مقاصد الشارع في أحكامه وعلل التشريع والتماس الحكمة التي بنيت عليها الأوامر والنواهي الشرعية فإن هذا الباب عظيم النفع ومن أعمل فكره فيه واستفرغ جهده وكان أهلا لذلك تكونت لديه ملكة فقهية وقدرة على الاستنباط وإعمال القياس الصالح في موضعه وزال عنه كثير من إشكالات العلم واعتراضات الجهال.

ومن أعظم ما يعين العبد على التفكر الخلوة عن الخلق واعتزالهم والبعد عن شواغل الدنيا وعلائق الترف ومجالس اللهو بحيث يكون القلب مستجمعا للفكرة محلا صالحا للعبرة تؤثر فيه الحكمة.

ومع بيان فضل هذه العبادة وعظيم أثرها في زيادة الإيمان واليقين والتأله إلا أن كثيرا من الناس اليوم غافل عنها معرض عن العمل بها لشغله بالدنيا وقلة علمه وطول أمله ودخوله في الأماني الكاذبة قال تعالى: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ).﴿٩٢ يونس﴾






فضل الخشوع في الصلاة

الخشوع هو حضور القلب وسكون الجوارح بأن يؤدي العبد صلاته ويتفهم معانيها ويذوق لذة العبادة ويشاهد الله ويناجيه في صلاته وتنزل عليه السكينة ويستحضر التذلل والخضوع والافتقار للخالق ويحصل التأثر والتفاعل مع عبادة الصلاة قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.﴿٢ المؤمنون﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (خائفون ساكنون). وقال الحسن البصري: (كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا لذلك الجناح). وقال قتادة: (الخشوع في القلب هو الخوف وغض البصر في الصلاة). وقال ابن رجب: (أصل الخشوع لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له). وقال ابن القيم: (علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح ولو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين).

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله من قلب لا يخشع وكان إذا صلى سمع له أزيز كأزيز المرجل وكانت صلاته بالليل عجبا من شدة الخشوع والتأله. وقد كان السلف الصالح شديدي الحرص على الخشوع في صلاتهم يعظمون هذا الأمر ويتواصون به قال مجاهد: (وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة هاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء أو أن يحدث نفسه بشيء من شأن الدنيا). وقال مجاهد: (كان الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود وحدث أن أبا بكر قال كذلك). وكان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع لها أهل السوق فما التفت. وكان علي بن الحسين إذا فرغ من وضوئه للصلاة وصار بين وضوئه وصلاته أخذته رعدة ونفضة فقيل له في ذلك. فقال: (ويحكم! أتدرون على من أقوم ومن أريد أن أناجي).

ويكره للمرء أن يتظاهر بالخشوع وقلبه غافل معرض عن الله قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (استعيذوا بالله من خشوع النفاق قيل له: وما خشوع النفاق قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع). وقال رسول الله ﷺ: (الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ). متفق عليه. وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا رأى أحدا يطأطئ عنقه في الصلاة يضربه بالدرة ويقول له: (ويحك إنما الخشوع في القلب). وقال الفضيل بن عياض: (كان يكره أن يرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه). وهذه الآثار محمولة على التكلف والتصنع لا التأثر بالخشوع الصادق.

ومن فضائل الخشوع أنه ييسر الصلاة ويهونها على العبد ويجعلها أنسه وسلوته ونعيمه في الدنيا ويجعلها بلسما على روحه لا يجد في أدائها أدنى مشقة تنقضي بسرعة من حيث لا يشعر.




أما الغافل اللاهي فشاقة عليه يجد فيها ثقلا على نفسه ويتململ من طولها ولو كانت قصيرة. قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ).﴿٤٥ البقرة﴾ ومن أعظم فضائله أن الأجر والثواب يثبت للعبد بحسب خشوعه وتعقله لصلاته لما روى أحمد: (إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها). وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها).

ومن أحسن الوقوف بين يدي الله في صلاته خف عليه الموقف يوم القيامة ومن أساء الموقف في صلاته ثقل عليه الموقف يوم القيامة فالجزاء من جنس العمل قال ابن القيم: (للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة وموقف بين يديه يوم القيامة. فمن قام بحق الموقف الأول هون عليه الموقف الآخر. ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفه حقه شدد عليه ذلك الموقف قَالَ تَعَالَى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً).﴿٢٧ الإنسان﴾).

وكثير منا اليوم يشتكي ذهاب الخشوع وانعدامه في كثير من الأحوال حتى أصبح الرجل يؤدي الصلاة بمجرد حركات رتيبة جافة من غير روح وأنس ولذة مع أن ظاهره الصلاح والسلامة وهذا والله حال نقص وعلة يتألم منها المؤمن ويشعر بالأسى وقد أخبر بذلك حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أول ما تفقدون من دينكم الخشوع وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ورب مصل لا خير فيه ويوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيهم خاشعا). والكلام هنا فيمن كان ذلك هو الغالب على حاله أما إذا كان الغالب عليه حصول الخشوع ولكنه يتخلف ويذهل أحيانا قليلة لأمر عارض وسبب طارئ فهذا أمر سهل لا يكاد يسلم منه أحد.

وثمة موانع تمنع حصول الخشوع وتعيقه عن المؤمن:

١- الغفلة والإعراض عن الذكر.

٢- التفريط في أداء الفرائض.

٣- المبالغة في الترف والجري وراء الدنيا.

٤- التأخر في الحضور إلى الصلاة.

٥- قلة العلم والفقه في أحكام العبادة.

٦- قلة المعرفة عن الله.






وثمة وسائل تجلب الخشوع لقلب المؤمن:

أولا: تحقيق الإخلاص لله في أداء العبادة فإذا توجه القلب لله ولدار الآخرة وتخلص من حظوظ الدنيا واستحضر الثواب وتيقن ذلك خشع القلب.

ثانيا: تمام المعرفة بأفعال الله وأسمائه وصفاته فإذا تعرف العبد على الله وقره وخضع قلبه له وأدرك عظمة الله وجلاله وجماله سبحانه.

ثالثا: التفقه في معاني أذكار الصلاة من قرآن وتكبيرات وتسبيحات فإذا أدرك العبد معاني الثناء والمدح والدعاء والتعظيم والتنزيه كان لذلك أثراً عظيماً على نفسه وتحرك قلبه لهذه المعاني الشرعية.

رابعا: الإقبال على الطاعة والإكثار من الأذكار والمحافظة على الأوراد اليومية فإن العبد إذا واظب على ذلك رق قلبه وذلت نفسه وأصبح قلبه محلاً صالحاً ينتفع بسماع الذكر.

خامسا: التذلل بين يدي الله قصدا وموقفا بانكسار القلب وسكون الجوارح وخفض النظر وقبض اليدين فإن التذلل علامة الافتقار لرحمة الله وعطائه وبه تستنزل السكينة لأن كرم الله وجوده أليق بالسائل الذليل وقد سئل الإمام أحمد تعالى عن المراد بوضع اليدين إحداهما على الأخرى حال القيام فقال: (هو ذل بين يدي العزيز).

سادسا: تفريغ القلب والبدن من كل ما يشغلهما عن الخشوع من أمور الدنيا كالتجارة وغير ذلك فإذا أقبل المؤمن على الصلاة وقد فرغ نفسه من جميع الأشغال استقبل العبادة بقلب حاضر وبال واع فحصل له التأثر والخشوع. أما إذا أقبل وهو مشغول القلب بشيء من الدنيا كان قلبه محجوزاً عن الخشوع. قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من فقه المرء إقباله على حاجته حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ).

سابعا: الفراغ من حاجات النفس ورغباتها الخاصة التي تعلقت بها من أكل وشرب ووطر وقضاء حاجة ونحوها وعدم الإقبال على العبادة إلا إذا فرغ منها لأن المؤمن إذا دخل في العبادة وقلبه متعلق بشيء خارج عنها لم يعقل صلاته ولم يدرك الخشوع قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا صَلاةَ بحَضْرةِ الطَّعَامِ، ولَا هُوَ يُدافِعُهُ الأَخْبَثانِ). رواه مسلم. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا قُدِّمَ العَشَاءُ، فَابْدَؤُوا به قَبْلَ أَنْ تُصَلُّوا صَلَاةَ المَغْرِبِ، ولَا تَعْجَلُوا عن عَشَائِكُمْ). وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: (إِذَا وُضِعَ عَشَاءُ أحَدِكُمْ وأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَؤُوا بالعَشَاءِ ولَا يَعْجَلْ حتَّى يَفْرُغَ منه وكانَ ابنُ عُمَرَ: يُوضَعُ له الطَّعَامُ، وتُقَامُ الصَّلَاةُ، فلا يَأْتِيهَا حتَّى يَفْرُغَ، وإنَّه لَيَسْمَعُ قِرَاءَةَ الإمَامِ).




ثامنا: الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة بسكينة ووقار كما أرشد النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ، فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ، فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا). متفق عليه. فإن المشي بسكينة ووقار له أثر عظيم في الدخول للعبادة بصدر منشرح وتفكر وتأمل أما إذا سعى المؤمن مسرعا للعبادة دخل فيها بنفس متردد وخاطر مشوش بتعذر معه الخشوع غالبا.

تاسعا: التبكير في الحضور للمسجد عند سماع الأذان أو قبله كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (لَوْ يعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يسْتَهِمُوا عَلَيهِ لَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ، وَلوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا). فإذا بكر المؤمن للمسجد قبل الفريضة وانتظر الصلاة كانت نفسه مهيأة لسماع القرآن والانتفاع بالصلاة والتأثر بها مع إدراكه الفضيلة أما إذا حضر وقت تكبيرة الإحرام أو بعد فوات الركعة لم تكن نفسه مهيأة للخشوع وانصرف همه لإدراك الجماعة وشعر بالندم والتفريط.

عاشرا: الاشتغال بالنافلة من تحية المسجد وتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم بتدبر والسنن الرواتب والاستغفار فإن هذه الأعمال تصفي القلب وتهذب الروح وتهيئها لفعل الصلاة وإدراكها قال الله في الحديث القدسي: (وَمَا يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ). رواه البخاري.

الحادي عشر: تجنب الصلاة في الأحوال المؤذية من شدة حر وشدة برد ومطر ووحل وخوف وغضب ونحو ذلك مما يفسد الصلاة ويذهب الخشوع فإن المؤمن إذا دخل في الصلاة منزعج الخاطر حال المشقة تشتت همه وانصرف عنه الخشوع عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ). متفق عليه. ولذلك كره الفقهاء الصلاة في مكان شديد الحر أو شديد البرد.

الثاني عشر: تجنب الاشتغال بالحركات التي لا حاجة إليها ولا طائل وراءها وترك العبث بالثوب أو الشعر أو اللحية أو الساعة أو مكان السجود وعدم الالتفات لأن هذه الحركات تشوش الذهن وتشتت الهم وتصرف القلب عن الخشوع. ولذلك ورد النهي عن التخصر في الصلاة كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (نَهَى النبيُّ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ مُخْتَصِرًا). ونهى عن الالتفات في الصلاة عن الحارث بن الحارث الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﷺ: (وإنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا؛ فَإِنَّ اللهَ يَنْصُبُ وَجهَهُ لِوَجهِ عَبدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَم يَلتفِتْ). رواه الترمذي. وفي البخاري قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سألت رسول الله ﷺ عن الالتفات في الصلاة؟ فقال: (هُوَ اخْتِلَاسٌ




يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ). وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلَا يَمْسَحْ الْحَصَى، فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تُوَاجِهُهُ). رواه أبو داود. ولما رأى سعيد بن المسيب رجلا يعبث في صلاته فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه).

الثالث عشر: الحرص على متابعة النبي ﷺ في هديه في الصلاة وفعل السنن والهيئات المشروعة من حسن القيام وقبض اليدين حال القيام والنظر في موضع السجود ورفع اليدين في المواضع التي يشرع فيها الرفع والتمكن من الركوع والسجود والجلسة بين السجدتين وتحريك الأصابع عن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي). متفق عليه. فإن اتباع السنة له أثر عظيم في فهم الصلاة وعقل معانيها وحصول الخشوع فيها.

الرابع عشر: الطمأنينة في أداء الصلاة وفعلها بتؤدة وتأني وعدم الإسراع في الركوع والسجود والجلسة بين السجدتين فإن الطمأنينة في الصلاة من أعظم الأسباب التي تعين على الخشوع والتأثر والعجلة فيها مفسدة لذلك ولذلك قال النبي ﷺ للمسيء في صلاته في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ). متفق عليه.

الخامس عشر: التدبر والتأثر في الآيات والأذكار في الصلاة وتآلف ذلك والاعتناء به قال تعالى: (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).﴿١٠٩ الإسراء﴾ فإذا كبر المؤمن تكبيرة الإحرام استشعر عظمة الله وأنه أكبر من كل شيء وإذا قرأ الفاتحة استحضر مناجاة الله ومخاطبته وأنه مستحق لجميع المحامد وأنه ذو الرحمة التامة الشاملة وأنه المنجي في الدنيا والآخرة وأن ملكه أحاط بكل شيء وأنه المستحق للعبادة ولا تكون العبادة إلا بمعونة منه وأن الهداية والتوفيق منه لا من غيره وهكذا إذا ركع وسبح الله استحضر عظمة الله وتنزيهه من كل سوء ونقص وإذا رفع من الركوع تفكر في الثناء والتمجيد لله وإذا سجد استحضر علو الله وشرفه وافتقاره إليه وتذلله لله وهكذا في باقي أحوال الصلاة وأذكارها وكلما تفكر العبد وتدبر فتح الله عليه من المعاني اللطيفة والمآخذ الدقيقة وهو باب عظيم القدر واسع لا تحيطه الكلمات ولا تحده الجمل والناس يتفاوتون في هذا تفاوتاً عظيماً.

السادس عشر: البعد عن الملهيات والمشغلات حال الصلاة في النظر إلى الصور والزخارف والنساء وتجنب الصلاة في أماكن الزحام التي تعلو فيه الأصوات وتكثر فيه الحركة كالأسواق والملاعب فإن ذلك يشغل القلب ويصرفه عن الخشوع ولذلك ثبت في صحيح البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها فقال لها النبي أميطي عني فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي). قال المهلب: (وإنما أمر باجتناب مثل هذا لإحضار الخشوع في




الصلاة وقطع دواعي الشغل). وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى فِي خَمِيصَةٍ لَهَا أَعْلَامٌ، فَنَظَرَ إلى أَعْلَامِهَا نَظْرَةً، فَلَمَّا انْصَرَفَ قالَ: اذْهَبُوا بخَمِيصَتي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأْتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةِ أَبِي جَهْمٍ، فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي آنِفًا عَنْ صَلَاتِي). وقد نص الإمام أحمد على كراهة أن يكون في القبلة شيء معلق من مصحف أو غيره ونص الفقهاء على كراهة زخرفة المساجد وتزويقها لأنها تشغل المصلي وتذهب عنه الخشوع وقد ورد في ذلك آثار عن السلف الصالح.

السابع عشر: مجاهدة النفس حال الصلاة في استحضار القلب والتعقل في المعاني والتأثر والتفاعل بأحوال الصلاة المتنوعة والمصابرة في هذا المقام العظيم وعدم الاقتصار على فعل الحركات الظاهرة فإن من داوم على المجاهدة وبذل وسعه على ذلك فتح عليه قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).﴿٦٩ العنكبوت﴾ وقال أحد السلف: (جاهدت نفسي على الخشوع عشرين سنة فتمتعت بالصلاة عشرين أخرى).

ومن أعظم الأسباب المعنوية التي تجلب الخشوع في الصلاة ولذة العبادة الورع عن المكاسب المحرمة وتحري الرزق الحلال فإن الرزق الطيب يرقق القلب ويبارك في العمل ويجعله مقبولا عند الله والكسب الخبيث يورث ظلمة في القلب ويمحق بركة العمل ويحرم العبد من اللذة والخشوع وهذا من باب العقوبة العاجلة للعبد.

والشيطان لعنه الله حريص أشد الحرص على إفساد عبادة المؤمن وإنقاص ثوابها بشتى الوسائل والطرق الخفية فإن أقيمت الصلاة أدبر وابتعد عن المؤمن ثم إذا كبر العبد للصلاة أقبل عليه يفتنه في صلاته ويوسوس في قلبه ويحول دون عقله وفهم الصلاة تارة بتذكيره بالشهوات والملذات وتارة بتذكيره بحاله ودنياه وتارة يجعله يفكر في المصائب والعوائق التي اعترضت طريقه في الحياة وتارة يدخل الشك عليه في كم صلى من الركعات وتارة يجعله في حيرة من طهارته كما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ. حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ. يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا، وَاذْكُرْ كَذَا، لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ. حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى). وهكذا كلما أغلق العبد بابا من الفتنة فتح عليه بابا آخر والمشروع للمؤمن حينئذ أن يستعيذ من الشيطان وينفث ثلاث مرات عن يساره ويقطع هذه الوساوس ولا يسترسل معها ويحاول جاهداً في إدراك أقوال الصلاة وأفعالها.

❁❁❁

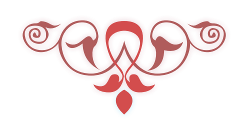



وأعظم ما يحول بين المؤمن وبين الخشوع في الصلاة أمران خطيران:

الأول: حب الدنيا والتعلق والفتنة بها بحيث يصبح قلب المؤمن مشغولا ومغرما بها مهموما في جمعها وتحصيلها مغرورا بالتكاثر فيها فإذا دخل في الصلاة انصرف قلبه وعقله إلى التفكير والتشاغل بأمور الدنيا وافتتاح المشاريع ومتابعتها وحل مشاكلها إلى أن تمضي الصلاة بأكملها وهو لا يشعر بشيء والعياذ بالله.

الثاني: قسوة القلب وكثرة الذنوب فإن العبد إذا ابتلي بالمداومة على الذنوب وأدمن قلبه الشهوات قسا قلبه وصار في معزل وحاجز عن الانتفاع بمعاني القرآن وأذكار الصلاة فإذا دخل في الصلاة لم يعقلها ولم يخشع بها لأن قلبه غير صالح ومهيأ لورود الحق والخير قد حجبته نار الشهوات وظلمة المعاصي والعياذ بالله. والمؤمن إذا أسرف على نفسه بالمعاصي عوقب بحرمانه من الخشوع في الصلاة وغيرها.

وينبغي على المؤمن إذا خلت صلاته من الخشوع والتفاعل والتأثر أن يحزن ويأسف ويندم على حصول التفريط منه وملازمته لحال الغفلة أشد من ندمه على فوات الدنيا ويسعى في إصلاح حاله ويوقظ ذلك فيه شعور التوبة والإنابة والرجوع إلى الله ومحاسبة النفس ومجاهدتها على الخشوع والسكينة.






الحذر من خطر اللسان

من الأمور العظيمة التي يتجلى فيها تزكية النفس وجهاد المؤمن الحذر من شرور اللسان وضبطه لأن إرسال اللسان والتساهل فيه يوقع المؤمن في مهالك عظيمة وخطايا جسيمة ولذلك بين الشارع الحكيم خطر اللسان وآفاته ليحذرها المؤمن ويتقي شرها قال تعالى: (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).﴿١٨ ق﴾ قال ابن كثير: (أي: ما يتكلم بكلمة (إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) أي: إلا ولها من يراقبها معتد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى: (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ).﴿١٠-١٢ الإنفطار﴾). وإذا أيقن المؤمن أنه محاسب على كلامه أمسك عن السوء ولم يجازف وأكثر من الكلام الطيب لترجح كفة حسناته على كفة سيئاته قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يخاطب نفسه: (يا لسان قل خيرا تغنم أو اسكت عن شر تسلم).

ومحافظة المرء على لسانه وضبطه لكلامه واستقامته على الخير علامة على استقامة إيمانه كما روي في المسند من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: (لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ).

وقد بين الشارع أن السلامة في الصمت والأجر في التكلم بالخير والخطر والوزر في التكلم بالسوء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ). متفق عليه. فإن كان الكلام خيرا كذكر وتلاوة ودعاء ودعوة وإحسان تكلم به. وإن كان الكلام قبيحا ككذب ونميمة وغيبة وبهتان وفجور وشهادة زور أمسك عنه ولم يتكلم به. وإن كان كلاما مباحا تكلم بما فيه مصلحة ودعت الحاجة إليه وأمسك عن الباطل الذي لا فائدة فيه. وكلامه بالخير خير من السكوت إلا أن يخشى فتنة فسكوته حينئذ أفضل قال ابن عبد البر: (وقول الخير أفضل من الصمت لأن قول الخير غنيمة والسكوت سلامة والغنيمة أفضل من السلامة. وكذلك قالوا: قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم). فالساكت سالم والمتكلم إما له وإما عليه. فهذا العضو خطير جدا وتكمن خطورته في سهولة استعماله واستهانة المرء بأمره والتلذذ به ولذلك سقط في شراكه أكثر الناس وكان من العسير ضبطه وصيانته.

والكلام الذي ذمه الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه ونهى عنه النبي ﷺ صور متعددة يجب على المؤمن اجتنابها قال ابن القيم: (والأقوال التي ذمها الله في كتابه أكثر من أن تعد: كالكلام الخبيث. والقول الباطل. والقول عليه بما لا يعلم القائل. والكذب. والافتراء. والغيبة. والتنابز بالألقاب. والتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول. وتبييت ما لا يرضى من القول. وقول العبد بلسانه ما ليس في قلبه.




وقوله ما لا يفعله. وقول اللغو. وقول ما لم ينزل به سلطانا. والقول المتضمن للشفاعة السيئة. والقول المتضمن للمعاونة على الإثم والعدوان. وأمثال ذلك من الأقوال المسخوطة والمبغوضة للرب تعالى التي كلها قبيحة لا حسن فيها ولا أحسن).

ومما يجعل المرء يتساهل في خطر اللسان عدم استحضاره لمسؤولية الكلام والذهول عن المؤاخذة به يوم القيامة وقد روي في جامع الترمذي قال النبي ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وَقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُوْنَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟).

ومما يبين خطر اللسان أن المرء قد يقول كلمة خبيثة لا يحسب لها حسابا وهو غافل عن خطرها وعاقبتها تقحمه النار عياذا بالله عن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ). متفق عليه. وعند الترمذي: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ). ومن تعود لسانه على الكلام القبيح خرج منه القبيح ومن تعود لسانه على الكلام الحسن خرج منه الحسن.

وللقول فتنة عظيمة تعصف بعقل الرجل فلا يملك لسانه حال الغفلة فيزين له الشيطان كلام السوء في مجالس الأنس ليتزين به عند جلسائه وينال حظوة عندهم ويصرف وجوه الناس إليه وهذا يدل على ضعف الوازع الديني وقلة الثقة ومن كثر كلامه كثر سهوه ومن كثر سهوه كثر خطؤه قال النخعي: (يهلك الناس في فضول المال والكلام). ويروى عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (من كثر كلامه كثر سقطه ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به).

ومن أخطر شرور اللسان التي تهلك المؤمن الوقوع في الألفاظ الشركية من دعاء الأموات والتقرب لهم والتبرك بالصالحين والحلف بغير الله والتسوية بين الخالق والمخلوق في المشيئة ونسبة الأفعال قال تعالى: (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ). ﴿٢٢ البقرة﴾ وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ). رواه أبو داود. وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عِدْلًا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ). رواه أحمد.

ومن شرور اللسان العظيمة إحداث البدع بحيث يستحسن المرء أمرا محدثا في الاعتقاد أو العمل أو السلوك ويزين له الشيطان والأتباع فيتكلم بكلمة خبيثة تحمل عنه ويطير بها الجهال




وتحدث بدعة عظيمة يفتتن الناس بها فتصدهم عن اتباع السنن فيحمل وزرها ووزر من عمل بها وقد حذر الشرع من البدعة في الدين قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. ﴿١٥٣ الأنعام﴾ وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ). متفق عليه.

ومن المهلكات الماحقات للحسنات فتنة اللسان بالغيبة والنميمة والبهتان قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾. ﴿١٢ الحجرات﴾ وقد استسهلها كثير من الناس حتى صارت فاكهة المجالس التي لا يطيب المجلس إلا بها وقد يغتاب المغتاب مصانعة لجلاسه لينال حظوة عندهم قال ابن تيمية: (فمن الناس من يغتاب موافقة لجلسائه وأصحابه وعشائره مع علمه أن المغتاب بريء مما يقولون أو فيه بعض ما يقولون لكن يرى أنه لو أنكر عليهم قطع المجلس واستثقله أهل المجلس ونفروا عنه فيرى موافقتهم من حسن المعاشرة وطيب المصاحبة وقد يغضبون فيغضب لغضبهم فيخوض معهم). وإنما عظم خطرها لسهولة الوقوع فيها وتزيين الشيطان لشهوتها وتعلقها بحقوق المسلمين وصعوبة التحلل منها وسوء أثرها في إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين.

وأعظم خطرا من قال قولا باطلا في مسلم أدى إلى ظلمه وانتهاك حقوقه قال ابن عبد البر: (لا أعلم خلافا في قوله ﷺ في هذا الحديث: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ) أنها الكلمة عند السلطان الجائر الظالم ليرضيه بها فيما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ ويزين له باطلا يريده من إراقة دم أو ظلم مسلم ونحو ذلك مما ينحط به في حبل هواه فيبعد من الله وينال سخطه. وكذلك الكلمة التي يرضي بها الله عَزَّوَجَلَّ عند السلطان ليصرفه عن هواه ويكفه عن معصية يريدها يبلغ بها أيضا من الله رضوانا لا يحسبه والله أعلم. وهكذا فسره ابن عيينة وغيره).

ومن جرائم اللسان أن يتورط المسلم في قذف أعراض المؤمنات المحصنات وهذا من الكبائر العظيمة التي رتب الشارع عليها عقوبة في الدنيا وعذابا في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿٢٣ النور﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ) وذكر منهن: (وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ). متفق عليه.

ومن آفات اللسان الدالة على فساد الورع وضعف الإيمان شهادة الزور بأن يشهد الرجل على إبطال حق أو إحقاق باطل في مال أو منفعة أو عرض قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. ﴿٣٠ الحج﴾ وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ




الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ). متفق عليه.

ومن عادات الجاهلية المنتشرة في كثير من أوساط نساء المسلمين النياحة على الميت وهذه كبيرة لما فيها من التسخط والاعتراض على قدر الله وحكمه وقد ورد فيها الوعيد الشديد وقد عد النبي ﷺ هذه العادة من أمور الجاهلية عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ في الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ. وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها، تُقامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعَلَيها سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ). رواه مسلم. وإنما شاعت هذه البدعة لسكوت علماء السوء وتفريط العامة في اتباع السنة والله المستعان.

ومن العادات القبيحة التي تساهل فيها بعض الناس الكذب في الحديث لأجل دنيا أو منفعة أو إدخال السرور على الجلساء ليصرف وجوه الناس إليه والكذب من صفات المنافقين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (آيَةُ الْمُنافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ). متفق عليه.

ومن المزالق الخطيرة في عمل اللسان أن يتجرأ العامي ويخوض في أحكام الشرع ويفتي في الحلال والحرام ويبدي رأيه بمجرد الهوى والاستحسان والموافقة وهو لم يأخذ العلم من أهله ولم ترسخ قدمه في العلم ولا يميز بين الحق والباطل قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ). ﴿١١٦ النحل﴾ وقال تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا). ﴿٣٦ الإسراء﴾.

ومن آفات اللسان المنتشرة عند بعض العامة الفحش في اللسان وعدم التورع عن قبيح الكلام والتوسع في ذكر الأوصاف الخادشة للحياء الخارجة عن الأدب وسبب هذه العادة القبيحة هي غلبة الجهل وسوء التربية وقد ورد في الشرع النهي عن الفحش والتفحش عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اَللهَ يُبْغِضُ اَلْفَاحِشَ اَلْبَذِيءَ). رواه الترمذي.

ومن العادات القبيحة المنتشرة بين المسلمين وهي تقدح في كمال الإيمان وتدل على ضعف الورع اشتغال اللسان باللعن وقد شدد الشرع فيه وجعل إثمه كالقتل عن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ). متفق عليه. واللعن ليس من خصال المؤمن عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بالطَّعَّانِ، وَلا اللَّعَّانِ، وَلا الْفَاحِشِ، وَلا الْبَذِيءِ). رواه الترمذي وحسنه. ولو كان المتكلم ورعا متأدبا بالشرع لما دعا على مسلم بطرده




من رحمة الله. ويكفي في الزجر عنه عقوبته في الآخرة من حرمان اللاعن من الشفاعة والشهادة عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ، يَوْمَ القِيَامَةِ). رواه مسلم. ومن الكبائر أن يتسبب الرجل في لعن والديه كما ورد في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا: (إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ والِدَيْهِ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وكَيفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ).

وقد كان السلف الصالح يحفظون ألسنتهم ويصونون ألفاظهم ويكرهون فضول الكلام لينجوا من الحساب عن أسلم: (أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ لسانه فقال له عمر: مه غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد). وكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخاطب نفسه: (ويحك قل خيرا تغنم أو اسكت عن سوء تسلم وإلا فاعلم أنك ستندم. قال: فقيل له: يا ابن عباس، لم تقول هذا؟ قال: إنه بلغني أن الإنسان أراه قال ليس على شيء من جسده أشد حنقا أو غيظا يوم القيامة منه على لسانه إلا ما قال به خيرا أو أملى به خيرا). وقال عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (والذي لا إله غيره ما على الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان). وقال أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (عليك بالصمت إلا في الحق فإنك تغلب الشيطان). وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لا خير في فضول الكلام). وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أحق ما طهر المسلم لسانه). وقال سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة أكثرهم كلاما في معصية الله). وعن زيد بن أسلم: (أنه دخل على أبي دجانة وهو مريض وكان وجهه يتهلل فقال له: ما لك يتهلل وجهك؟ قال: ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنين: أما أحدهما فكنت لا أتكلم بما لا يعنيني وأما الأخرى فكان قلبي للمسلمين سليما). وقال إبراهيم النخعي: (إني لأجد نفسي تحدثني بالشيء فما يمنعني أن أتكلم به إلا مخافة أن أبتلى به). وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: (يا أبا يحيى حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار). وقال مورق العجلي: (أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه. قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني). وقال عبدالله بن عون: (إن الرجل يكون مظلوما فلا يزال يقول حتى يكون ظالما). وقال مالك: (اعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل مايسمع).

فيجب على المسلم أن يتمرن ويجاهد نفسه على حبس لسانه عن الكلام الحرام ويكره له الخوض في الكلام الذي لا مصلحة فيه ولا فائدة وينبغي له أن يراقب ألفاظه ويتحرى الصواب في كلامه لا سيما ما يتعلق في الدين وما يتعلق في حقوق العباد ليسلم دينه وتبرأ ذمته من المهالك.






حسن الخلق

حسن الخلق عبادة عظيمة يغفل عنها كثير من الناس والله أمر به ورغب فيه فقال تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا). ﴿٨٣ البقرة﴾ وأثنى الله على أهله فقال: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٣٤ آل عمران﴾

وأوصى النبي ﷺ بحسن الخلق عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ). رواه الترمذي وصححه. قال ابن رجب: (هذا من خصال التقوى ولا تتم التقوى إلا به وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه فإن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس).

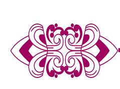
وكان رسول الله ﷺ غاية في حسن الخلق قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا). متفق عليه. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (لَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا). متفق عليه. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واصفة رسول الله: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ). رواه أحمد. يعني كان يتمثل أخلاق القرآن الفاضلة وقد أثنى عليه الله سبحانه بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ).﴿٤ القلم﴾ قال ابن رجب: (يعني أنه كان يتأدب بآدابه ويتخلق بأخلاقه فما مدحه القرآن كان فيه رضاه وما ذمه القرآن كان فيه سخطه).

وحسن الخلق هو بذل المعروف وكف الأذى وهذا هو البر عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ). رواه مسلم. فجماع حسن الخلق في أمرين عظيمين:

الأول: بذل الخير ويدخل فيه الصدق والأمانة وحسن الجوار وصلة الرحم وحسن العهد والوفاء والمكافأة على المعروف وغير ذلك من خصال الخير.

الثاني: كف الشر ويدخل فيه احتمال الأذى وكظم الغيظ والصبر على المكروه والعفو عند المغفرة ومقابلة الإساءة بالإحسان وغير ذلك. قال الحسن البصري: (حسن الخلق الكرم والبذلة والاحتمال). وقال ابن المبارك: (هو بسط الوجه وبذل المعروف وكف الأذى). وقال أحمد بن حنبل: (حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحتد). وفسره أيضا: (أن تحتمل ما يكون من الناس).

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان قال ابن القيم: (وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر والعفة والشجاعة والعدل. فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة. والعفة: تحمله على اجتناب

الرذائل والقبائح من القول والفعل وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة. والشجاعة: تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق والشيم وعلى البذل والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط).

ولحسن الخلق فوائد وثمرات عظيمة:

الأول: التأسي بالنبي ﷺ واتباعا لسنته.

الثاني: دخول الجنة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، قَالَ: تَقْوى اللهِ وَحُسْنُ الخُلُق، وَسُئِلَ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ: الفَمُ وَالفَرْجُ). رواه الترمذي.

الثالث: حصول الخيرية عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا). متفق عليه.

الرابع: ثقل الميزان عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ شَيءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ). رواه الترمذي.

الخامس: كمال الإيمان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله عليه وسلم: (أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا: أَحْسَنُهم خُلُقًا، وخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ). رواه الترمذي.

السادس: قرب المجلس من رسول الله في الآخرة عن جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا). رواه الترمذي.

السابع: بلوغ درجة الصائم القائم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ). رواه أبوداود.

الثامن: تحريم النار عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ). رواه الترمذي. وغير ذلك من الفضائل والمزايا.

والمؤمن يثاب في الآخرة على حسن خلقه إذا احتسب الأجر من الله وأخلص العمل له ويظهر الاحتساب في حسن الخلق في أمرين:

الأول: أن يتحلى المسلم بحسن الخلق في جميع أحواله حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.




الثـاني: إذا عمل معروفا لأحد ثم قابله بالجحـود والنكران لم يغضب لذلك ولم يندم على فعله لأنه فعل المعروف لله ليس لأجل رضا الخلق.

وبعض الناس يعمل المعروف ويبذل الخير قصدا للرياء والسـمعة والمصالح الشـخصية فتراه يتظاهـر بذلـك في مجامع النـاس ومحافلهم لكن إذا خلا وأتاه سـائل محتاج أو علـم بضعف حال قريب له لم يحرك ذلك ساكنا فيه عن جندب بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ). متفق عليه.

ومن قصد بحسـن خلقه عرضا من الدنيا ولم يحتسـب الأجر كافأه الله في الدنيا وفتح عليه من زهرتهـا أمـا الآخرة فلا ثواب له لأنه تعجـل ثوابه في الدنيا قال تعالـى: (مَن كَانَ يُرِيـدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَـا نُـوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُـونَ).﴿١٥ هود﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (من عمـل صالحـا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليـل لا يعمله إلا لالتماس الدنيا يقول الله: أوفيـه الـذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الـذي كان يعمل التماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين).

وكثير من المسـلمين يعجب ببعـض أخلاق الكفار ويثني عليهم ويذم أخلاق المسـلمين وهذا مفهوم خاطئ من وجوه ثلاثة:

الأول: أن أخلاق الكفار الحسنة قد دعا إليها الإسلام منذ بعثة الرسول ﷺ فهي حق مشروع في الكتاب والسنة وكل خلق حسن فهو من هدي النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فيجب على المؤمن أن يتأسى بخلق النبي الكريم لأنه الأصل والمعيار لأخلاق الناس.

الثاني: أن فلسـفة الكفـار ومعيارهم في القيم والمبـادئ الأخلاقية قائمة على أسـاس المصلحة الماديـة وليس الثـواب الأخروي ولذلك فإن الله يجازيهم على إحسـانهم في الدنيا أما الآخرة فليس لهـم حسـنات قال تعالى: (وَقَدِمْنَـا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَـلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُـورًا).﴿٢٣ الفرقان﴾ قال مجاهد: (فجعلناه باطلا لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطان).

الثالـث: أن مـا عند الكفار من حسـنات فهي مغمورة في بحر سـيئاتهم من الكفر بـالله والقطيعة والأنانية والبخل وموت الغيرة على المحارم والتسلط على الأمم الضعيفة وانحراف الطباع في اتباع الشـهوات فمن تأمل في طباعهم وسـلوكهم وطريقة حياتهم وجد أن حالتهم الأخلاقية أنموذج سيئ في معيار الأخلاق والمبادئ الإنسانية. والله بعدله يجازي الكافر على إحسانه بالمنفعة في الدنيا بكثرة ماله وولده ولذاته أما الآخرة فلا تبقى له حسنة يجازى عليها لأن أعماله باطلة فاقدة للإخلاص عن




أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَة، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ للهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلى الآخِرَة لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا). رواه مسلم.

ويظهر حسن خلق المسلم ويتبين مستواه عند الشدة والضيق والخصومات أما حال اليسر والسعة والمجاملات فالكل يتمتع بحسن الخلق عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ). متفق عليه.

والله قسم بين العباد أخلاقهم كما قسم بينهم أموالهم وحسنهم فمنهم من هو حسن الخلق ومنهم من هو سيء الخلق ومنهم من هو متوسط بينهما. وبعض الناس يعتذر عن سوء خلقه بأن الله جبله على هذا الخلق السيء فيرضى به ويستمر عليه وهذا مفهوم خاطئ لأن الأخلاق الحسنة مكتسبة وقد يجبل المرء عليها فقد ورد في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ). وروي في الطبراني: (إِنَّما العِلْمُ بِالتَّعلُّمِ وإنَّما الحِلْمُ بالتَّحلُّمِ). والله أمر بالتحلي بالأخلاق الحسنة والتخلص من الأخلاق السيئة ورتب الثواب والعقاب على ذلك وأمر بالاقتداء بخلق النبي الكريم.

فالمسلم مأمور بالثبات على أخلاقه الحسنة والحفاظ عليها ومأمور بالتخلص من أخلاقه السيئة والحذر منها ولا يعذر أحد بالبقاء على سوء خلقه وهذا يتطلب من المرء بذل جهد كبير في سبيل التخلص من الأخلاق الرديئة والطباع المستهجنة وكم من امرئ كانت له خصلة سيئة فجاهد نفسه وتخلص منها وحسن خلقه وهذا أمر مشاهد قال تعالى: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). ﴿٦٩ العنكبوت﴾ وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن الرجل لا يولد عالما إنما العلم بالتعلم).






وثمة وسائل لتحصيل حسن الخلق:

١- الدعاء بحسن الخلق عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لا يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إلَّا أَنْتَ). رواه مسلم.

٢- التفكر في ثواب حسن الخلق وما أعده الله من النعيم.

٣- قبول النصيحة من الغير مهما كان.

٤- الاستماع والانتفاع بكلام الأعداء والخصوم.

٥- مصاحبة أهل الفضل والمروءة.

٦- مجانبة السفهاء والبطالين.

٧- النظر في سيرة الرسول ﷺ والتأمل في مواقفه الرائعة.

٨- تمرين النفس على فعل الأخلاق الحسنة بالتطبيق العملي.

٩- التأمل والتعرف على ما تحمله النفس من أخلاق سيئة وعادات قبيحة.

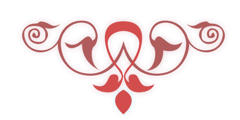
١٠- مجاهدة النفس واستفراغ الوسع على ترك سوء الخلق قال ابن حزم: (واعلم أن ترويض الأنفس أصعب من ترويض الأسد لأن الأسد إذا سجنت في بيوت الملوك أمن شرها والنفس وإن سجنت في الجسد لم يؤمن شرها). وقال أبو حاتم: (الواجب على العاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق وترك سوء الخلق لأن الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد. وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل. وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها وخلق سيئ فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها).

وينبغي للمؤمن أن يختبر نفسه ويفتش عن عيبه عند المضايق ومخالطة الناس وتغير الأحوال والخصومات ثم يكتشف خلقه السيئ فقد يكون مبتلى بالبخل أو الغضب أو الغلظة أو العجلة أو الكذب أو الظلم أو غير ذلك من المساوئ فإن عرف علته اشتغل على علاجها بالفكرة وترويض النفس مستعينا بالله وداوم على ذلك حتى يوفقه الله إلى التخلص من هذا الداء أو التخفيف منه.

وعلو الهمة تحمل المرء على حسن الخلق والنبل ودنو الهمة تحمله على سوء الخلق والسفالة قال ابن القيم: (من علت همته وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل. ومن دنت همته وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل).




وينبغي على المسلمين أن يحرصوا أشد الحرص على التحلي بحسن الخلق من صدق الحديث وأداء الأمانة والوفاء بالعهد والعدل والإنصاف فإن ذلك له أثر عظيم في تحسين صورة الإسلام لدى الكفار ودخولهم فيه ولذلك كان النبي ﷺ يستعمل الإحسان إلى الناس وسيلة في سبيل نشر الدين ويتألفهم عليه بالمعروف والقصص مشهورة في ذلك.






محاسن الأخلاق ومساوئها

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا ما ترك خيرا إلا تمثل به وما ترك شرا إلا هجره وكان قدوة حسنة في جميع أبواب الخير وخصال الإيمان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ). رواه أحمد. وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا). متفق عليه. وقد أثنى عليه الله تعالى بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ).﴿٤ القلم﴾ وكان ﷺ يتمثل أخلاق القرآن الفاضلة كما وصفته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ). رواه أحمد.

وكان ﷺ كلامه وألفاظه من أطيب الكلام قال عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (لَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا). متفق عليه. وكان ﷺ من أصدق الناس حديثا وأعظمهم أمانة ووفاء بالعهد قال هرقل لسفيان: (وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ). رواه البخاري.

وكان ﷺ من أشجع الناس قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْهُ). رواه أحمد. وكان ﷺ لين الجانب مع أصحابه متوددا لهم قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ).﴿١٥٩ آل عمران﴾

وكان ﷺ رحيما بالضعفاء والنساء والخدم والأسرى تغلب عليه الرحمة والإحسان في سائر أحواله عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا). رواه البخاري. وكان ﷺ رفيقا بأهله وولده عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال ﷺ: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي). رواه الترمذي. وكان ﷺ رفيقا بخادمه قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟). متفق عليه.

وكان ﷺ حليما مع الجهال قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ. فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ).

وكان ﷺ متواضعا غاية التواضع يمشي في حاجة المساكين ويسلم على الصبيان ويقوم بخدمة نفسه ويعيش عيش المساكين قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ يُرْدِفُ خَلْفَهُ وَيَضَعُ طَعَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ). رواه الحاكم. وكان ﷺ من أكرم الناس عطاء وأسخاهم



نفسا وأنداهم يدا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ). متفق عليه.

وكان ﷺ زاهدا في حطام الدنيا لا ينازع الناس في دنياهم وحظوظهم قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (نَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا). رواه الترمذي.

وكان ﷺ متفانيا في هداية الخلق لربهم وكان حريصا على هداية الكفار إلى الحق قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمْ. فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ. فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ). رواه البخاري.

وكان ﷺ حكيما رفيقا في إرشاد الجاهل والفاسق لا يعنف إلا إذا اقتضت المصلحة ذلك ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ).

وكان ﷺ لا ينتقم لنفسه فإذا انتهكت محارم الله انتقم لله نصرة لدينه قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (ما انْتَقَمَ رَسولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ في شيءٍ قَطُّ، إلَّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بها لِلَّهِ). متفق عليه.

وكان ﷺ عادلا مع أوليائه وأعدائه قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال ﷺ: (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا). متفق عليه.

والحاصل أن الله حباه وجبله ووفقه لمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات فينبغي للمسلم أن يتخذ حياته ﷺ وشمائله وفضائله مدرسة وقدوة حسنة للتربية على حسن الخلق وأن يجتهد في نشرها بين الناس قال تعالى: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا). ﴿٢١ الأحزاب﴾

ومن منهج أهل السنة وخصائصهم العناية بمحاسن الأخلاق والتخلق بها قال ابن تيمية: (يأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ويعتقدون معنى قوله ﷺ: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا). ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها).




ويجب على المسلم أن يتجنب مساوئ الأخلاق التي نهى عنها الله تعالى في كتابه ونهى عنها النبي ﷺ في السنة الصحيحة وهذا بيانها:

١- الكذب: من أخطر الأخلاق التي توجب دخول النار وتنزع الثقة منه بين الناس قال تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ). ﴿٧ الجاثية﴾ وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ؛ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا). متفق عليه. ومن أعظم الكذب الافتراء على الله عَزَّوَجَلَّ ثم الافتراء على رسوله ﷺ ثم الافتراء على صحابة النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثم الافتراء والبهتان على المسلمين في أنسابهم وأعراضهم ومعايبهم وقد ورد وعيد شديد في القرآن والسنة قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا). ﴿٥٨ الأحزاب﴾ والكذب منشأ كل سوء قال ابن القيم: (كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب).

٢- الظلم: في أموال الناس وأموالهم وأعراضهم من الأخلاق التي توجب العقوبة الشديدة يوم القيامة قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ). ﴿٤٢ إبراهيم﴾ وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). متفق عليه. وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصرا إلا الله).

٣- البخل: فإنه من الأخلاق السيئة التي تنفر الناس وتضيع الحقوق قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). ﴿١٨٠ آل عمران﴾ وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ، وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ، وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ). متفق عليه. والبخل هو منع الحق والشح هو منع الحق وطلب ماليس من حقه قال حبيش الثقفي: (قعدت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والناس متوافرون فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلا صالحا بخيلا).

٤- الغيبة: وهي أن تذكر أخاك المسلم الغائب بأمر فيه يسوئه فإن لم يكن فيه هذا الأمر فبهتان عليه قال تعالى: (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ). ﴿١٢ الحجرات﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ




فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اِغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فيه فَقَدْ بَهَتَّهُ). رواه مسلم. وقال ابن المبارك: (لو كنت مغتابا أحدا لاغتبت والدي لأنهما أحق بحسناتي).

٥- النميمة: وهي نقل الكلام بين الناس لغرض الإفساد بينهم وهي من أعظم وسائل القطيعة والتهاجر بين المسلمين والنميمة توجب عذاب القبر وتمنع دخول الجنة قال تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءِ بِنَمِيمٍ). ﴿١١ القلم﴾ وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ). متفق عليه. وعن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (خَرَجَ النبيُّ ﷺ مِن بَعْضِ حِيطانِ المَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إنْسانَيْنِ يُعَذَّبانِ في قُبُورِهِما، فقالَ: يُعَذَّبانِ، وما يُعَذَّبانِ في كَبِيرٍ، وإنَّه لَكَبِيرٌ، كانَ أحَدُهُما لا يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وكانَ الآخَرُ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ). متفق عليه. وقال أكثم بن صيفي لبنيه: (إياكم والنميمة فإنها نار محرقة وإن النمام ليعمل في ساعة ما لا يعمل الساحر في شهر).

٦- السب: خلق ذميم يوجب العدواة والبغضاء بين المسلمين قال تعالى: (لَّا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ). ﴿١٤٨ النساء﴾ وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ). متفق عليه. وقال أسماء بن خارجة: (ما شتمت أحدا قط لأن الذي يشتمني أحد رجلين كريم كانت منه زلة وهفوة فأنا أحق من غفرها وأخذ الفضل فيها أو لئيم فلم أكن لأجعل عرضي له غرضا).

٧- الفحش في الكلام: من أسوء أخلاق اللسان التي يبغضها الله قال تعالى: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا). ﴿٨٣ البقرة﴾ وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال لها النبي ﷺ: (فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفُحْشَ والتَّفَحُّشَ). رواه مسلم. وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ألأم خلق المؤمن الفحش).

٨- الغضب: خلق يفسد حياة المؤمن ويعطل مصالحه قال تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٣٤ آل عمران﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لَا تَغْضَبْ). رواه البخاري. وقال عمر بن عبد العزيز: (قد أفلح من عصم من الهوى والغضب والطمع).

٩- التجسس: على الناس بالتفتيش عن عوراتهم والتصنت على كلامهم الذي يسرون به خلق محرم يوجب العذاب في الآخرة قال تعالى: (وَلَا تَجَسَّسُوا). ﴿١٢ الحجرات﴾ وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ تَسَمَّعَ حَدِيثَ قَوْمٍ، وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ، صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يَعْنِي: الرَّصَاصَ). رواه البخاري. وقال الحسن: (لا تسأل عن عمل أخيك الحسن




والسيئ فإنه من التجسس). والعاقل يتغافل عن عيوب الناس ولا يهتم بأسرارهم والسفيه يطلب عيوب الناس وينشغل بأسرارهم.

١٠- الخصومة والمراء: وكثرة الاشتغال بالخصومات وإيذاء المسلمين خلق مذموم يدل على قلة الورع والجرأة على حدود الله ويورث العداوة والبغضاء قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ). ﴿٢٠٤ البقرة﴾ وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ). رواه مسلم. وقال الأوزاعي: (إذا أراد الله بقوم شرا ألزمهم الجدل ومنعهم العمل). والخصومات من سمات أهل البدعة والفرقة قال الفضيل بن عياض: (لا تجادلوا أهل الخصومات فإنهم يخوضون في آيات الله). ومن أخلاق المنافقين الفجور في الخصومة بحيث يجعل الحق باطلا والباطل حقا بالكذب والتدليس ليأكل حقوق الناس بالباطل.

١١- الغلظة والفظاظة في معاملة الخلق: خلق مذموم يدل على انعدام الرحمة قال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ). ﴿١٥٩ آل عمران﴾ وهو سبب لدخول النار عن حارثة بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَاعِفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ. أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ). رواه البخاري. وقال مالك بن دينار: (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله عَزَّوَجَلَّ على قوم إلا نزع منهم الرحمة).

١٢- الغش في التجارة: والتحايل على أكل أموال الناس بالباطل خلق حرمه الله ورسوله وهو من الكبائر التي توجب العذاب وتمحق بركة المال قال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ). ﴿٢٩ النساء﴾ وقال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا). ﴿٣٥ الإسراء﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي). رواه مسلم. وكان جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ثم خيره وقال: إن شئت فخذ وإن شئت فاترك. فقيل له: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع. فقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم.

١٣- الغدر: وهو نقض العهد وترك الوفاء وهو خلق دنيئ من أخلاق المنافقين قد ورد فيه الوعيد يوم

القيامة قال تعالى: (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ). ﴿٩١ النحل﴾ وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يوْمَ القِيامةِ، يُقَالُ: هذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ). متفق عليه. وقال الأحنف بن قيس: (إذا كان الغدر في الناس موجودا فالثقة بكل أحد عجز).

١٤- الإسراف والتبذير: أمران يفسدان المال وبهما تضيع الحقوق ويؤاخذ المرء يوم القيامة والإسراف هو مجاوزة حد الإنفاق في المباح والتبذير إنفاق المال في الحرام وكلاهما خلق مذموم منهي عنه شرعا قال تعالى: (وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ). ﴿٣١ الأعراف﴾ وقال تعالى: (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا). ﴿٢٧ الإسراء﴾ وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ اللهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقالَ، وإِضاعَةَ المالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤالِ). متفق عليه. وقال الشافعي: (التبذير إنفاق المال في غير حقه ولا تبذير في عمل الخير).

١٥- سوء العشرة مع الزوجة: من الأخلاق الدنيئة التي نهى عنها الشرع قال تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا). ﴿١٩ النساء﴾ وعن عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَجْلِدُ أَحَدُكُمُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ اليَوْمِ). متفق عليه. وكذلك سوء العشرة مع الزوج وامتناع الزوجة عما يجب عليها من طاعة الزوج ونشوزها عليه من الذنوب المتوعد عليها في الآخرة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ). متفق عليه.

١٦- القسوة في تربية الولد: خلق يدل على نزع الرحمة من القلب وله أثر سيء في فساد الولد وفشله في حياته وقد ذم النبي ﷺ القسوة على الولد ورغب في رحمته والرفق به عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رسولِ الله ﷺ فقالوا: أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قالوا: لَكِنَّا والله مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُم الرَّحمَةَ). متفق عليه.

١٧- الشماتة بأهل المصائب: خلق ذميم وهو الفرح بوقوع المصيبة والبلاء على أخيه المسلم قال تعالى: (فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ). ﴿١٥٠ الأعراف﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنْ سُوْءِ القَضَاءِ، وَمِنْ دَرَكِ الشَّقَاءِ، وَمِنْ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ، وَمِنْ جَهْدِ البَلَاءِ). متفق عليه. وقال ابن سيرين: (عيرت رجلا بالإفلاس فأفلست).




وقال إبراهيم النخعي: (إني لأرى الشيء أكرهه فما يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن أبتلى بمثله). وقال ابن القيم: (من ضحك من الناس ضحك منه ومن عير أخاه بعمل ابتلي به ولا بد).

١٨- الخيانة: وتضييع الأمانات وهو خلق ذميم يدل على ضعف الدين وهو من صفات المنافقين وقد نهى الله عنه وزجر عنه قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ). ﴿٢٧ الأنفال﴾ وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، (قالَ عِمْرانُ فلا أدْرِي: أذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أوْ ثَلاثًا) ثُمَّ إنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُونَ، ويَنْذُرُونَ ولا يَفُونَ، ويَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ). متفق عليه. وقال مجاهد: (المكر والخديعة والخيانة في النار وليس من أخلاق المؤمن المكر ولا الخيانة).

وترتكز الأخلاق السيئة على أربعة ركائز قال ابن القيم: (ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها على أربعة أركان: الجهل والظلم والشهوة والغضب. فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن والكمال نقصا والنقص كمالا. والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه فيغضب في موضع الرضى ويرضى في موضع الغضب ويجهل في موضع الأناة ويبخل في موضع البذل ويبذل في موضع البخل ويحجم في موضع الإقدام ويقدم في موضع الإحجام ويلين في موضع الشدة ويشتد في موضع اللين ويتواضع في موضع العزة ويتكبر في موضع التواضع. والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والنهمة والجشع والذل والدناءات كلها. والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد والعدوان والسفه).

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من مساوئ الأخلاق روى الترمذي عن قطبة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الأَخْلَاقِ، وَالأَعْمَالِ، والأَهْواءِ).






وثمة سلوكيات خاطئة ينبغي للمسلم أن يتجنبها لما يترتب عليها من آثار سيئة:

الأولى: كثرة المراء والجدال فإنه يفسد العمل ويوغر الصدر على الإخوان ويفضي إلى القطيعة قال تعالى: (فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ). ﴿١٩٧ البقرة﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (الجدال: المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك). وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا). رواه أبو داود. وقال عبدة بن أبي لبابة: (إذا رأيت الرجل لجوجا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته).

الثانية: التوسع في إضحاك الناس ولو بالكذب وقد ورد النهي عن ذلك في السنة عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، ثُمَّ وَيْلٌ لَهُ). رواه أبو داود.

الثالثة: إخلاف المواعيد والاستخفاف بعهود الناس وهذا من صفة المنافق قال تعالى: (وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً). ﴿٣٤ الإسراء﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ). متفق عليه.

الرابعة: عدم احترام أهل الفضل وعدم إنزال الناس منازلهم والتفريط في حقوقهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا: (مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، ويَعْرِفْ حَقَ كَبِيرِنَا؛ فَلَيْسَ مِنَّا). رواه أبو داود.

الخامسة: السخرية والاستهزاء بالهيئات والأفعال واللمز والتنابز بالألقاب وهذا يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). ﴿١٢ الحجرات﴾ وقال تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ). ﴿١ الهمزة﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ). رواه مسلم.

السادسة: الهزل في مواطن الجد والجد في مواطن الهزل وعدم مراعاة مجالس الناس ومناسباتهم فإن هذا السلوك المشين يدل على سفه العقل ودناءة المروءة وسوء الخلق.

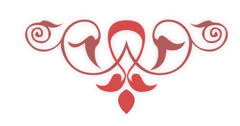
السابعة: كثرة المزاح والمبالغة فيه وتجاوز الحد الشرعي مما قد يصل إلى حد الإيذاء والتنفير




وإسقاط الهيبة قال عمر بن عبد العزيز: (اتقوا الله وإياكم المزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح فحدثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال).

الثامنة: العجلة في الأمور وعدم التريث حتى يتبين الأمر وتتضح الصورة فإن العجلة مذمومة يروى في جامع الترمذي: (الأَنَاةُ مِنَ اللهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ). وخلق الأناة يحبه الله كما صح في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال لأشج بن عبد القيس: (إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ). رواه مسلم.

التاسعة: إفشاء أسرار الناس وعدم حفظ أماناتهم وهذا من الخيانة قال تعالى: (وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ). ﴿٨٣ النساء﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قوله (أَذَاعُواْ بِهِ) قال: أعلنوه وأفشوه). وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ). متفق عليه. وقالت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ). رواه مسلم.






علاج الغضب

الغضب جمرة خبيثة في القلب من عمل الشيطان له آثار سيئة في حياة المؤمن ينقص منفعته في دنياه وآخرته ويوقعه في المآثم ويشوش علاقته بالآخرين ويفسد متعة المجالس ويعكر صفو الأنس إلى غير من المفاسد والشرور الذي يجلبها وهو جماع الشر كله في باب الأخلاق وتركه سبب لجميع خصال الخير عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: لَا تَغْضَبْ، فَرَدَّدَ مِرَارًا قَالَ: لَا تَغْضَبْ). رواه البخاري.

والمرء الغضوب دائما وفي كل مناسبة يعيش حالة مرضية تعكر صفو حياته وتوقعه دائما في الإحراج الذي ينتهي به إلى ذل الاعتذار والترخص ممن أساء إليهم وهذا يحتاج إلى جلسات علاج ودعاء صادق وترويض للنفس واستشفاء بالقرآن ليس هذا موضع الكلام عنه. وفي المقابل الرجل الحليم الذي لا يكاد يعرف منه الغضب إلا نادرا لكرمه ونبله وحكمته وسعة أفقه فهذا من أسعد الناس وأطيبهم عيشة فهنيئا له.

إنما الكلام هنا عن الشخص الطبيعي المتوسط المزاج الذي ينتابه الغضب أحيانا ويؤثر عليه ويجره إلى أخطاء وأخطار ويسبب له إشكالات في علاقاته فهذا حري به أن يجتهد ويناقش ويتثقف ليتخلص من الغضب بالكلية أو يخفف من حدته ومع الوقت سينجح كثيرا إذا كان ذا همة وقرار وعنده قدرة على التغيير والله الموفق للعبد إذا علم منه الصدق والإخلاص.

والمؤمن كامل الإيمان لا يستجيب لسلطان الغضب ولا ينقاد وراء ثورته وإنما يلجم نفسه بالحلم والورع ويؤثر العفو والصفح والإحسان لينال رضا ربه وعفوه وصفحه في الآخرة قال تعالى: (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ). ﴿٣٧ الشورى﴾ قال السعدي: (أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه بل غفروه ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح. فترتب على هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير كما قال تعالى: (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ). ﴿٣٥ فصلت﴾).






وثمة خطوات تخلص المؤمن من الغضب وتخففه:

أولا: أن يدرك أن الغضب جماع الشر كله في باب الأخلاق وأن تركه سبب لجميع خصال الخير ولذلك أوصى النبي ﷺ الرجل الذي استوصاه في خصال الخير بأن لا يغضب ثم كرر عليه ترك الغضب وهذا يدل على أن من تمكن من اجتناب الغضب كله تحلى بخصال الخير لأن الغضب يفسد الأخلاق قال جعفر بن محمد: (الغضب مفتاح كل شر).

ثانيا: أن يتأمل المرء في شخصيته ويعلم مدى تأثره بالغضب ويعلم الأسباب والملابسات التي تهيج غضبه وتستدعيه فمتى ما علمها تجنبها بالكلية ولم يباشرها أو خفف منها ما استطاع.

ثالثا: أن يتجنب الحالات التي يتوتر فيها عادة وتسبب له الغضب مثل قلة النوم والاستيقاظ من النوم والجوع والسفر وكل إنسان تختلف طبيعته ودرجة تأثير هذه الأمور فيه فمتى ما عرفها لزم الانفراد ولم يخالط أحدا في هذه الساعة.

رابعا: أن لا يستجيب لانفعالاته تجاه التصرفات الاستفزازية ويتحكم في ردة فعله لأن بعض السفهاء يستمتعون في استغضاب الآخرين فلا ينبغي للعاقل أن يلق لهم بالا والحكمة مع السفهاء ترك الرد عليهم لأن مجاراتهم تخرج المرء من الوقار والسكينة إلى الجهل وليس معهم علاج أنفع من السكوت.

خامسا: أن يتفهم أن كثيرا من الإساءات الموجهة له عفوية لا يقصد بها إهانته والحط من قدره وقد تكون غير مقصودة أصلا وفاعلها ربما يمر بظرف سيء وضغوط أثرت على سلوكه وتعامله.

سادسا: أن يجتهد في التخلص من أثر الغضب إذا ثار وعدم الاستجابة له ومن أعظم ما يسكن الغضب التعوذ من الشيطان الرجيم قال تعالى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).﴿٢٠٠ الأعراف﴾ عن سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ورَجُلانِ يَسْتَبَّانِ، فَأَحَدُهُما احْمَرَّ وجْهُهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْداجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ فَقَالُوا لَهُ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ، فَقَالَ: وَهَلْ بِي جُنُونٌ). متفق عليه.

سابعا: ومن الخطوات العملية التي تذهب الغضب وتخففه أن يغير الغاضب هيئته من القيام إلى الجلوس ومن الجلوس إلى الاضطجاع والعكس لحديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ).




رواه أحمد. قال ابن مفلح: (ويستحب لمن غضب أن يغير حاله فإن كان جالسا قام واضجع وإن كان قائما مشى).

ثامنا: ومن المفيد أيضا أن ينتقل ويغير مكانه من مكان الغضب ويشتغل بأمر يحبه ليروح عنه ويسليه حتى تهدأ نفسه ويسكن غضبه فإن القلب يخف عليه الوارد ويسكن إذا طرأ عليه أمر محبوب.

تاسعا: ومن أنفع ما يسكن الغضب الاشتغال بذكر الله من التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير لأن ذكر الله يطرد الشيطان ويبطل تأثيره ويجلب الطمأنينة للقلب قال تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ). ﴿٢٤ الكهف﴾ قال عكرمة: (يعني إذا غضبت). والنفس تهدأ وترتاح من الهم والغضب والحزن إذا ذكرت الله وأثنت عليه وسبحته.

عاشرا: وأهم تصرف يقي من شرور الغضب لزوم السكوت مطلقا وعدم الرد بالقول أو الفعل لأنه إذا تكلم أو فعل في هذه الحالة فعقله مغلق لا يدرك ما يصدر منه مما يعرضه للندم الشديد إذا فاق وسكوته يمنع هذا كله ويروى في مسند أحمد عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا: (عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ). وإذا سكت سيهدأ الطرف الآخر ويمر الموقف بسلام قال ابن رجب: (وهذا أيضا دواء عظيم للغضب لأن الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليه في حال زوال غضبه كثيرا من السباب وغيره مما يعظم ضرره فإذا سكت زال هذا الشر كله عنه وما أحسن قول مورق العجلي رَحِمَهُ اللَّهُ: ما امتلأت غيظا قط ولا تكلمت في غضب قط بما أندم عليه إذا رضيت).

حادي عشر: المبادرة بالوضوء فإن الوضوء له أثر عظيم في طهارة الظاهر والباطن وإطفاء نار الغضب والتحصن من تسلط الشيطان ويروى في سنن أبي داود عن عطية السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ). وقال ابن القيم: (ولما كان الغضب والشهوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم أمر أن يطفئهما بالوضوء والصلاة والاستعاذة من الشيطان الرجيم قال تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ). ﴿٤٥ البقرة﴾ وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة فأمرهم بما يطفئون بها جمرتها، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة وأمر تعالى بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته).

ثاني عشر: أن تتفكر وتتأمل في عظم جزاء كظم الغيظ وعدم إنفاذه وأنه من صفات المتقين قال تعالى: (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ). ﴿١٣٤ آل عمران﴾ وعن

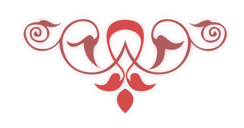



معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ). رواه أبو داود. وهذا أمر يحتاج إلى تمرين ومجاهدة واستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ.

ثالث عشر: أن يعلم أن ترك الغضب في أمور الدنيا والتحلي بالحلم والعفو والإعراض عن الجاهل من أجمل أخلاق النبي ﷺ الذي كان لا ينتقم إلا لله قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ). متفق عليه. فينبغي للمؤمن أن يهتدي بهدي رسول الله ﷺ ويقتدي به. وترك الانتقام للنفس يورث للنفس سعادة وطمأنينة وسكينة قال ابن القيم: (وفي الصفح والعفو والحلم مِن الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام). ومن أشغل قلبه بنار الثأر وتحركت فيه حسرة الانتقام فقد البركة في عيشه وحرم اللذة والسعادة ومن نسي وتناسى الأحقاد والمظالم وادخر ثوابها عند الله عاش مرتاح القلب قرير العين. وإذا سكنت الرحمة والإحسان قلب المؤمن ترحل عنه الكره والانتقام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

رابع عشر: أن يعلم أن الاستجابة للغضب إذا تسلط عليه وتنفيذ ما يأمر به من أفعال وأقوال مشينة يعد من الضعف المذموم وليس من الرجولة والشجاعة في شيء وإنما القوة والشدة في تملك النفس عند الغضب والسيطرة عليها من السفه والجهل ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ؛ إِنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ).

والمتأمل في أحوالنا اليوم يجد كثيرا منا يغلبه الغضب ويلعب به ويجعله يتصرف كالصبي لأتفه الأمور وقد يصدر هذا التصرف عن إنسان متعلم ومثقف وحريص على الخير وهذا مؤشر سيء لمستوى أخلاقنا. وكم يندم المرء على تصرفات وأقوال فعلها حال الغضب وتسببت له بمشاكل قديمة وربما تبعها ظلم لأشخاص طيبين غابوا عن النظر فلا يملك إلا أن يدعوا لهم ويستغفر لهم.






خلق الرفق في حياة النبي ﷺ

أتى النبي ﷺ إلى البشرية بتطهير النفس من الأخلاق الرديئة وحثها على الأخلاق الحسنة. ومن أعظم الأخلاق الفاضلة التي أوصى بها النبي ﷺ خلق الرفق ذلك الخلق الرفيع الذي يضع الأمور في نصابها ويصحح الأخطاء ويقوم السلوك ويهدي إلى الفضائل بألطف عبارة وأحسن إشارة وطريقة مؤثرة. وقد أرشده الله لذلك الخلق الكريم فقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ).﴿١٥٩ آل عمران﴾

ولقد أكثر النبي ﷺ في الرفق فقال: (إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ). متفق عليه. وفي صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيءٍ إِلَّا زَانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ). وهذا يدل على أهمية هذا الخلق وحاجة الخلق إليه في سائر شؤونهم. وقال عروة بن الزبير: (كان يقال: الرفق رأس الحكمة).

والرفق يعني لين الجانب بالقول والفعل واللطف في اختيار الأسلوب وانتقاء الكلمات والسهولة في طريقة التعامل مع الآخرين وترك التعنيف والشدة والغلظة في ذلك والأخذ بالأيسر. والرفق عام يدخل في كل شيء في تعامل المرء مع نفسه ومع أهله ومع أقاربه ومع أصحابه ومع من يشاركه في مصلحة أو جوار وحتى مع أعدائه وخصومه فهو شامل لكل الأحوال والشؤون المناسبة له.

واستعمال الرفق في الأمور يؤدي إلى أحسن النتائج وأطيب العواقب ويبارك الله في هذا السلوك وينفع به أما استعمال العنف والشدة والغلظة فتفسد الأمور وتصعبها على أصحابها وتجعل النتائج عكسية ويحرم الخير من ترك الرفق وترفع البركة في عمله ويصعب عليه الأمر عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ). رواه مسلم. وقال ﷺ: (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، ومَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ). متفق عليه.

والرفق له أثر حسن في التأليف بين القلوب والإصلاح بين المتخاصمين وهداية الكفار واستياقهم إلى حظيرة الإسلام والبركة في الرزق والأجل عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال النبي ﷺ: (إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ). رواه أحمد.

ومن رفق بالخلق رفق الله به وعامله بالإحسان قال ابن القيم: (من رفق بعباد الله رفق الله به. ومن رحمهم رحمه ومن أحسن إليهم أحسن إليه. ومن جاد عليهم جاد الله عليه ومن نفعهم نفعه ومن




سترهم ستره. ومن منعهم خيره منعه خيره. ومن عامل خلقه بصفة عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة. فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه).

وليست الرجولة والمروءة في ترك الرفق واستعمال العنف والشدة في سائر الأحوال ويخطئ من يظن أن استعمال الرفق ينقص من قدر المرء أو يكون علامة على ضعفه وخوره في طلب الحقوق فإن هذا الفهم خاطئ من موروثات الجاهلية لأن سلوك الرفق لا يقتضي ترك المطالبة بالحق أو السكوت عن الباطل أو المداهنة فيه أو التنازل عن الحقوق وإنما هو استعمال اللطف في الأسلوب والطريقة فقط دون المضمون فالرفيق يطالب بحقه ويبين الشرع ويأمر بالمعروف ويربي من تحت يده ويعامل الناس ولكن كل ذلك يفعله بسلوك اللطف واللين. قال الله تعالى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى).﴿٤٤ طه﴾ قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (لا تعنفا في قولكما).

ولقد كان رسول الله ﷺ يعيش الرفق ويتمثل به في سائر أحواله وشؤون حياته قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: (مَا خُيِّرَ رَسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ). متفق عليه.






وقد ثبت الرفق عنه ﷺ في مجالات كثيرة منها:

١- الرفق مع الأهل: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شيئًا قَطُّ بيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَما نِيلَ منه شيءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِن صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شيءٌ مِن مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ). رواه مسلم. وكانت زوجه عائشة إذا هويت شيئا أتبعها إياه ما لم يكن إثما وقد أذن لها ﷺ بالنظر إلى أهل الحبشة وهم يلعبون وأذن لها بالفرح واللعب يوم العيد.

٢- الرفق مع الخادم: قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَاللهِ مَا قَالَ لِي: أُفًّا قطُّ، وَلَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا؟). روه مسلم.

٣- الرفق مع الأطفال: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُؤْتَى بالصِّبْيانِ فيُبَرِّكُ عَلَيهِم ويُحَنِّكُهُمْ، فَأُتِيَ بِصَبِيٍّ فَبالَ عَلَيه، فَدَعا بِماءٍ، فَأَتْبَعَهُ بَوْلَهُ ولَمْ يَغْسِلْهُ). متفق عليه. وفي البخاري: (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى صِبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ). وكان دائما يقبل الحسن والحسين ويلاعبهما وحمل أمامة بنت زينب في الصلاة رفقا بها كما ورد في الصحيحين.

٤- الرفق مع السائل: قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النبيِّ ﷺ وعَلَيهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فأدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حتَّى نَظَرْتُ إلى صَفْحَةِ عَاتِقِ النبيِّ ﷺ قدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِن شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِن مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بعَطَاءٍ). متفق عليه.

٥- الرفق في تعليم الجاهل: عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: (بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي، مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللهُ. فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ. فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ). رواه مسلم.

٦- الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (بَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي المسجِد، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فقال النبي ﷺ: دَعُوهُ وَأَرِيقُوا على بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا مِن مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُم مُيَسِّرِينَ ولَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ). رواه البخاري. وقال سفيان




الثوري: (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى عدل بما يأمر عدل بما ينهى عالم بما يأمر عالم بما ينهى).

٧- الرفق في الدعوة إلى الله: فقد كان النبي ﷺ يوصي أصحابه إذا بعثهم للدعوة بالتيسير وترك التعسير والتبشير وترك التنفير قال أبو بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أبا مُوسى ومُعاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليَمَنِ، قالَ: وبَعَثَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما عَلَى مِخْلافٍ، قالَ: واليَمَنُ مِخْلافانِ، ثُمَّ قالَ: يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا). متفق عليه.

٨- الرفق مع العاصي التائب: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: (جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقالَ: هَلَكْتُ! قالَ: وما شَأْنُكَ؟ قالَ: وقَعْتُ على امْرَأَتِي في رَمَضانَ، قالَ: تَسْتَطِيعُ تُعْتِقُ رَقَبَةً؟ قالَ: لا. قالَ: فَهلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قالَ: لا. قالَ: فَهلْ تَسْتَطِيعُ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قالَ: لا. قالَ: اجْلِسْ. فَجَلَسَ، فَأُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بعَرَقٍ فيه تَمْرٌ والعَرَقُ: المِكْتَلُ الضَّخْمُ قالَ: خُذْ هذا فَتَصَدَّقْ به. قالَ: أعَلَى أفْقَرَ مِنَّا؟ فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قالَ: أطْعِمْهُ عِيالَكَ). متفق عليه. وكذلك ﷺ رفق بالرجل الذي قبل امرأة وجاءه نادما فبين له أن الصلاة كفارة لذنبه ولم يعنف عليه وهذا ثابت في الصحيحين.

٩- الرفق في الصبر على الأذى: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (يا رَسولَ اللهِ، هلْ أتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كانَ أشَدَّ مِن يَومِ أُحُدٍ؟ فَقالَ: لقَدْ لَقِيتُ مِن قَوْمِكِ وكانَ أشَدَّ ما لَقِيتُ منهمْ يَومَ العَقَبَةِ، إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي علَى ابْنِ عبدِ يَالِيلَ بنِ عبدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى ما أرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وأَنَا مَهْمُومٌ علَى وجْهِي، فَلَمْ أسْتَفِقْ إلَّا بقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أنَا بسَحَابَةٍ قدْ أظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وما رُدُّوا عَلَيْكَ، وقدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بما شِئْتَ فيهم، قالَ: فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قالَ: يا مُحَمَّدُ، إنَّ اللهَ قدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وقدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بأَمْرِكَ، فَما شِئْتَ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ، فَقالَ له رَسولُ اللهِ ﷺ: بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللهُ مِن أصْلَابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا). متفق عليه.

١٠- الرفق في التعامل مع الكفار: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (أنَّ اليَهُودَ أتَوُا النبيَّ ﷺ، فَقالوا: السَّامُ عَلَيْكَ، قالَ: وعلَيْكُمْ فَقالَتْ عَائِشَةُ: السَّامُ علَيْكُمْ، ولَعَنَكُمُ اللهُ وغَضِبَ علَيْكُم، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَّاكِ والعُنْفَ، أوِ الفُحْشَ قالَتْ: أوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالُوا؟ قالَ: أوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلتُ، رَدَدْتُ عليهم، فيُسْتَجابُ لي فيهم، ولا يُسْتَجابُ لهمْ فِيَّ).



رواه البخاري. وكان ﷺ يخاطب الكفار المعاهدين ويناظرهم ويقبل هديتهم ويعود مريضهم ويحسن جوارهم ويتألفهم إذا اقتضت المصلحة ذلك.

١١- الرفق بالناس في العبادات: قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلَاةَ، فقَرأَ بهِمُ البَقَرَةَ، قالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلَاةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذلكَ مُعَاذًا، فَقالَ: إنَّه مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذلكَ الرَّجُلَ، فأتَى النَّبيَّ ﷺ فقالَ: يَا رَسولَ اللهِ، إنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بأَيْدِينَا، ونَسْقِي بنَوَاضِحِنَا، وَإنَّ مُعَاذًا صَلَّى بنَا البَارِحَةَ، فقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أنِّي مُنَافِقٌ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟! ثَلَاثًا اقْرَأْ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأعْلَى، وَنَحْوَهَا). متفق عليه. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: (إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلَاةَ أُرِيدُ إطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ). رواه مسلم. ومن رفق النبي ﷺ بأمته أنه نهاهم عن الوصال خشية المشقة بهم ورفقه بهم في ترك الأمر بالسواك عند الصلاة وترك تأخير العشاء إلى وقتها الفاضل خشية المشقة عليهم وغير ذلك مما يطول ذكره كالإبراد بالصلاة وقت الحر والجمع بين الصلوات حال العذر.

١٢- الرفق مع النفس في التطوع: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُ حتَّى نَقُولَ: لا يُفْطِرُ، ويُفْطِرُ حتَّى نَقُولَ: لا يَصُومُ). متفق عليه. وكان يداوم على العمل ولو كان قليلا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال ﷺ: (خُذُوا مِنَ الأعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ). متفق عليه. ونهى عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن المبالغة في العبادة خشية تضييع الحقوق والواجبات.






ومع كون الرفق غالبا على تصرفات النبي ﷺ في كثير من أحواله إلا أنه استعمل الشدة في أحوال خاصة كانت الشدة هي اللائقة بها والمناسبة لها وتتحقق فيها المصلحة أكثر من الرفق وسلوكها مقتضى العدل وكمال العقل الذي دل عليه الشرع:

١- الشدة في إقامة الحدود: عن أبي هريرة وزيد الجهني أن النبي ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لأَقْضِيَنَّ بيْنكُما بكِتَابِ اللهِ، الوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ، وعلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِئَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يا أُنَيْسُ إلى امْرَأَةِ هذا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا. قالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فأمَرَ بهَا رَسولُ اللهِ ﷺ فَرُجِمَتْ). متفق عليه. وكان ﷺ لا تأخذه رأفة ورحمة في إقامة الحدود وتنفيذها امتثالا لقوله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ). ﴿٢ النور﴾

٢- الشدة في مقام التعزير: كما في قصة هجر النبي ﷺ لكعب بن مالك وصاحبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ حين تخلف الثلاثة عن غزوة تبوك فهجرهم النبي ﷺ والصحابة خمسين يوما حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ولم يكن أحد يجالسهم أو يكلمهم أو يحيهم حتى أنزل الله في كتابه توبته عليهم والقصة ثابتة في الصحيحين قال تعالى: (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). ﴿١١٨ التوبة﴾

٣- الشدة في تأديب الزوجة: فقد هجر نسائه شهرا وامتنع عن وطئهن واعتزل بيوتهن في مشربة له لما ألحجن عليه في النفقة كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَخَلَ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: أَطَلَّقْتَ نِسَائَكَ ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ آلَيْتُ شَهْرًا شَهْرًا فَمَكَثَ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَ فَدَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ).

٤- الشدة في قتال الكفار وجهادهم: قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ). ﴿٧٣ التوبة﴾

٥- الشدة في زجر المعاند التارك للسنة: عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ). رواه مسلم.

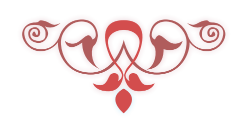
٦- الشدة في النهي عن البدع والمحدثات: مسلك شرعي ورد في السنة كما روي في مسند أحمد عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ




الْكِتَابِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فغضب وقال: أَمُتَهوكون فيها يا ابن الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُونَهُ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي). وكان ﷺ يشتد في الإنكار على المخالف للسنة عن سلمة بن الأكوع قال: (أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رسولِ الله ﷺ بِشِمَالِهِ فقالَ: كُلْ بِيمِينكَ قَالَ: لا أَسْتَطِيعُ قالَ: لا استطعتَ مَا منعهُ إِلَّا الْكِبْرُ فَمَا رَفعهَا إِلَى فِيهِ). رواه مسلم. وقد أدب الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صبيغ بن عسل وعزره ونفاه إلى البصرة لإثارته الشبهات. وكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا شديدا على القدرية وقد غلظ أئمة السلف الصالح على أهل البدع وهجروهم وحذروا من بدعتهم قال أحمد بن حنبل: (إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام فإنه كان شديدا على المبتدعة). وكان الشافعي شديدا على أهل الإلحاد وأهل البدع مجاهرا ببغضهم وهجرهم.

ومع ذلك فلم يكن في شدته ﷺ ظلم لأحد أو مجاوزة لحدود الله في حقوق الخلق وحرمتهم. فالفقه في هذا الباب أن المشروع للمسلم استعمال الرفق في سائر الأمور إلا إذا دعت الحاجة واقتضت المصلحة في استعمال الشدة فيكون ترك الرفق في هذا المقام مشروعا.

وبهذا يتبين أن سلوك الرفق في كل شيء حتى إذا انتهكت محارم الله وضيعت الحقوق وأميتت السنة مسلك خاطئ مخالف للشرع وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلَّهِ). متفق عليه. وكذلك سلوك الشدة في سائر الأحوال والأمور مسلك خاطئ يفضي إلى تنفير الناس وصرفهم عن الحق ووقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين. فالفقه في هذا الباب أن المشروع للمسلم استعمال الرفق في سائر الأمور إلا إذا دعت الحاجة واقتضت المصلحة في استعمال الشدة والمخاشنة فيكون ترك الرفق في هذا المقام مشروعا لتحقيق المصلحة وقد كان النبي ﷺ يستعمل الرفق في مواطن ويستعمل الشدة في مواطن إلا أن الرفق كان غالبا على خلقه وتعامله مع الآخرين وهذا المسلك الحق من توفيق الله للعبد وتيسيره. فهنيئا لمن اقتدى بالرسول الكريم ﷺ وكان رفيقا لطيفا متسامحا تاركا للعنف والشدة هينا قريبا يألف ويؤلف.






خلق التواضع

لا شك أن خلق التواضع من أعظم الأخلاق الكريمة والشمائل الحميدة التي يتحلى بها المؤمن الكريم الشهم فيضفي على إخوانه المسلمين المحبة والمودة والألفة ويرضي ربه ويقتدي برسوله ﷺ سيد المتواضعين.

ولقد عني الشرع بهذا الخلق العظيم وحث على التخلق به قال تعالى موصيا نبيه ﷺ: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). ﴿٢١٥ الشعراء﴾ وأوصى لقمان ابنه وقال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ). ﴿١٨ لقمان﴾ وعن عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ولَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ). رواه مسلم. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إنكم تفعلون أفضل العبادة التواضع).

وكان رسول الله ﷺ من أشد الناس تواضعا خافضا لجناحه رحيما بأصحابه فقد كان يمشي في حاجة الوليدة السوداء وكان يركب الحمار ويردف غيره. وكان يشارك في خدمة أهله في بيته كما ثبت في صحيح البخاري. وكان من تواضعه يتفقد أصحابه ويزورهم في دورهم كما ثبت في الصحيحين. ولما فقد خادمة المسجد حزن وقصد قبرها فصلى عليها كما ثبت في الصحيحين. وكان يتعايش مع الفقراء والمساكين ويخالط الأعراب لأجل تعليمهم وإرشادهم ويسلم على الصبيان ويتلطف معهم. وكان متواضعا في طعامه وهيئته ومسكنه يأكل على الأرض ويفترش الحصير ويتوسد وسادة من أدم حشوها ليف كما ثبت في الصحيحين. ولم يكن له ﷺ بواب يحجب الناس عنه كما ثبت في الصحيحين. وكان من تواضعه ﷺ يكره أن يقوم الناس له كما ثبت في الترمذي. وكان يجيب دعوة كل أحد ولو كانت قليلة ويقبل الهدية اليسيرة تواضعا وجبرا للخواطر روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (لَوْ دُعِيتُ إلى ذِراعٍ أَوْ كُراعٍ لَأَجَبْتُ، ولو أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِراعٌ أَوْ كُراعٌ لَقَبِلْتُ). رواه البخاري. وكان من تواضعه يكره الإطراء والغلو في توقيره عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّما أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ). رواه البخاري. وبالجملة فقد كانت حاله كحال المساكين المتواضعين المتذللين ليست كحال الملوك المتغطرسين.

وقد اقتبس هذا الخلق منه ﷺ أصحابه لا سيما الشيخان أبوبكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقد كانا غاية في التواضع كان أبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعمل في السوق ويخرج إلى بيت في ضاحية المدينة لامرأة عمياء




فيكنس بيتها ويحلب شاتها ويحضر لهم الماء ويصلح حالهم وهكذا كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لم يتغير حاله بعد الخلافة استمر على طريقته في التواضع والزهد والورع. وعوتب علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في لبوسه فقال: (إن لبوسي هذا أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلم).

والتواضع مفهومه تذلل في القلب وافتقار يكسب الجوارح خضوعا وسكونا فيحمل صاحبه على احترام الناس وتقديرهم وحسن التعامل معهم وخفض الجناح لهم على حد سواء لا يفرق بينهم في التعامل ما داموا مسلمين ولا ينظر إليهم باعتبارات خاصة خلافا لأهل الكبر الذين يتعاملون مع الناس على حسب أموالهم ومناصبهم وجاههم قال الحسن البصري: (هل تدرون ما التواضع التواضع: أن تخرج من منزلك فلا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا).

ومن مظاهر التواضع السلام على جميع الناس ولو لم يعرفهم وعدم التميز في المجلس وقبول الحق من كل أحد عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الإِسْلامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ). متفق عليه. وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (رأس التواضع أن تبدأ من لقيت بالسلام وأن ترضى بالدون من المجلس). وسئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: (يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله).

وضد التواضع صفة الكبر وهو العلو في الأرض والاستطالة والترفع عن الخلق واعتقاد الأفضلية عليهم وازدراء الناس وانتقاصهم ورد الحق إذا لم يوافق الهوى أو كان صادرا من صغير أو مخالف. والكبر كبيرة من كبائر الذنوب وسبب موجب لدخول النار والذل والصغار يوم القيامة عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ). رواه مسلم. وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ). رواه الترمذي.

وللتواضع أمارات وقرائن تدل على تحلي المرء به أن يكون بشوشا متحفيا بالخلق باذلا السلام لكل أحد ومتبسطا بالحديث مع جميع الناس يخالط الناس في نواديهم ومجالسهم ومساجدهم لا يأنف من ذلك يصبر على أذاهم ويقبل نصيحتهم ويتجاوز عن مخطئهم ويشاركهم في أفراحهم وأحزانهم.

والمتواضع لعباد الله قد تواضع ليقينه بفقره وذله لله وعجزه وحاجته لعطاء الله واعتقاده بأن العزة لله والكبرياء لا يصلح إلا له والجبروت لا يليق إلا به كما في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قالا: قال رسول الله ﷺ: (الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي




عَذَّبْتُهُ). أما العبد المخلوق فلا يصلح له ولا يناسبه إلا التواضع والانكسار وخفض الجناح فهو متواضع لله حقا منكسر بين يديه فقير لغناه قد خفض بصر قلبه وذلت جوارحه لله. ومن تواضع لعباد الله تقربا وتذللا لله رفع الله منزلته في الدنيا والآخرة فالرفعة تكتسب عن طريق التواضع عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ). رواه مسلم. وروي في مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (مَنْ تَوَاضَعَ للهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ. ومَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللهِ دَرَجَةً، وَضَعَهُ اللهُ دَرَجَةً، حَتَّى يَجعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ).

والتواضع الحقيقي يكون في الأحوال التي تكون دواعي الكبر والفخر متوفرة فيها كالغنى والرياسة والجاه والعلم فإذا تواضع المرء في مثل هذه الحال ولم يغتر بما فيه من العلو كان دليلا على إيمانه وشكره لله وقوة عزيمته وحسن خلقه أما من كان عادما لذلك ولم يوجد فيه ما يقتضي الكبر والخيلاء كان التواضع في حقه سهل التحصيل بلا عناء ولم يكن في منزلة الأول ولذلك ورد الوعيد الشديد في العائل المستكبر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمْ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، ومَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ). رواه مسلم. وشدد الشارع على الشيخ والملك والعائل لضعف الداعي على المعصية لفساد قلوبهم.

والتواضع يكون محمودا إذا أورث المحبة والتواد والسلام والإصلاح وجمع الكلمة وائتلاف القلوب والتعاون على البر والتقوى. أما إذا كان يترتب على ذلك سكوت عن أخذ الحق أو ظلم وضيم من الغير أو تعرض للمهانة فليس ذلك من التواضع المحمود شرعا بل هو ضعف وخور في النفس فلا يليق التواضع أمام الكافر ولهذا كان الكبر والخيلاء محمودا في ساحة القتال كما روي في سنن أبي داود عن جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (وَإِنَّ مِنْ الْخُيَلَاءِ مَا يُبْغِضُ اللهُ وَمِنْهَا مَا يُحِبُّ اللهُ فَأَمَّا الْخُيَلَاءُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ فَاخْتِيَالُ الرَّجُلِ نَفْسَهُ عِنْدَ الْقِتَالِ وَاخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ وَأَمَّا الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ فَاخْتِيَالُهُ فِي الْبَغْيِ قَالَ مُوسَى وَالْفَخْرِ). ونهي المسلم عن إكرام الكافر في الطريق كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (لَا تَبْدَؤوا اليَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ). ولا يحسن التواضع أيضا أمام الفاجر الهاتك لستر الله المجاهر بالمعاصي والفجور لأن ذلك يفضي إلى مداهنته وإقراره واستمراره في سبيل الباطل.

والتواضع في المرء قد يكون مجبولا عليه في أصل طبعه وخلقته وقد يكون مكتسبا فينبغي على




من وجد في نفسه ترفع وكبر أن يجاهد نفسه في صرف هذا الخلق المذموم وتحليه بالخلق الحسن ولا يعذر أحد على التكبر لأنه مأمور شرعا باجتناب الأخلاق الرديئة وامتثال الأخلاق الطيبة وإنما الحلم بالتحلم.

والواجب على العالم والغني والأمير أن يتواضع لله ولعباده شكرا لما أنعم الله عليه. فشكر النعمة في حق الغني تواضعه لعباد الله وبذل ماله في المعروف وقضاء حوائجهم قال بشر بن الحارث: (ما رأيت أحسن من غني جالس بين يدي فقير). وشكر النعمة في حق العالم تواضعه لعباد الله وبذل العلم للجاهل والمتعلم وتزكيته والقيام بحقوق العلم. وشكر النعمة في حق الأمير تواضعه لعباد الله وبذل الجاه والرياسة في العدل وإيصال الحقوق لأهلها.

ويقبح بالعالم من رزق علم الشريعة وفتح عليه أن يتكبر ويترك التواضع ويحمله العلم على التيه والترفع على عباد الله وازدراء الناس واعتقاد أنهم جهلة وذمهم في كثير من المجالس ولا شك أن من كانت هذه حاله حرم البركة في علمه وقل توفيقه وأعرض الناس عنه وكان علمه وبالا عليه يوم القيامة وسببا لدخوله في الوعيد والذم الوارد في الشرع وقد أكثر السلف الصالح من ذم الكبر وحملوا أنفسهم على التواضع وازدراء النفس عن نافع أن رجلا قال لابن عمر رضى الله عنه: يا خير الناس وابن خير الناس فقال: (ما أنا بخير الناس ولا ابن خير الناس ولكني عبد من عباد الله أرجو الله وأخافه والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه).

ومعصية الكبر أعظم خطرا من معصية الشهوة قال الله تعالى: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ).﴿١٢الأعراف﴾ قال سفيان بن عيينة: (من كانت معصيته في الشهوة فارج له التوبة فإن آدم عصى مشتهيا فغفر له فإذا كانت معصيته في كبر فاخش على صاحبه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبرا فلعن). ومن تكبر عن قبول الحق أذله الله قال ابن القيم: (وكما أن من تواضع لله رفعه فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغره وحقره ومن تكبر عن الانقياد للحق ولو جاءه على يد صغير أو من يبغضه أو يعاديه فإنما تكبره على الله فإن الله هو الحق وكلامه حق ودينه حق والحق صفته ومنه وله فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رد على الله وتكبر عليه).

ومن المؤسف أن تجد بعض الأغنياء هداهم الله لا يصلون في المساجد أنفة منهم عن مخالطة العوام والعمال وبعضهم لا يغشى مجالس الناس ولا يأكل طعامهم ولا يدعو المساكين إلى وليمته استكبارا وعلوا وهذا مخالف لهدي النبي ﷺ في تواضعه كما ورد في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه




مرفوعا: (لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ). ومن المؤسف أن ترى بعض القضاة والعلماء هداهم الله يتكبرون عن سماع الحق وإسداء النصيحة لهم وإن كانت وفق الأدب الشرعي وترى بعضهم لا يجلس إلا في صدر المجلس ويستأثر بالكلام وحده وإن كان في حضرة غيره من أهل العلم ويشتد غضبه إذا روجع في العلم وكثير الزجر والتعنيف بالطلاب. ومن المؤسف أن ترى بعض الأمراء هداهم الله متكبرا يستفز عباد الله ويزدريهم ويعاملهم معاملة الخدم بالسباب والشتائم والإهانة وربما ضربهم لأدنى سبب وتسلط على أموالهم وحقوقهم. ومن المؤسف أن ترى بعض أهل الحسب أشراف الناس متكبرين متغطرسين يزدرون ويحتقرون عباد الله ويعتقدون أنهم هم الأفضل على غيرهم في كل شيء فترى الرجل منهم مفاخرا بمناقب أجداده وشمائلهم في كل مجلس كحال أهل الجاهلية. وصور الكبر ومشاهده كثيرة في الناس كل على حسب جاهه ومنزلته والله المستعان.

ولقد كان السلف الصالح شديدي التواضع والانكسار لله والأمثلة على ذلك كثيرة جدا فهذا ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع جلالته يأخذ بركاب زيد بن ثابت الأنصاري ويقول: (هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا). وقال مجاهد: (ربما أمسك لي ابن عباس أو ابن عمر بالركاب). وقال الحسن البصري: (إن أقواما جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لم تفاقروا). وهذا الإمام أحمد لما ذكر نسبه في مجلس كان من الموالي طأطأ رأسه ولم يفخر بنسبه ولما دخل عليه الأشراف أهل بيت رسول الله ﷺ قام إليهم وقبلهم تواضعا لله مع علو منزلته في العلم وشهرته وإمامته في الناس قال يحيى بن معين: (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الخير).

وقد كان شيخنا عبد العزيز بن باز بقية السلف الصالح رَحِمَهُ اللَّهُ آية في التواضع في ملبسه وكلامه وتصرفاته ومعاملته للخلق يعامل جميع الناس على حد سواء في الرفق والاحتفاء والبشر والاهتمام بأحاديثهم فلا يفرق بين غني وفقير وبين عالم وجاهل وشريف ووضيع لا يعنف أحدا ولا يترفع على أحد مع عظم منزلته ورئاسته وقوة سلطانه وقد أثر مسلكه هذا على طلبة العلم والعلماء وأحيا في نفوسهم خلق النبي ﷺ وهديه.

والتواضع صفة من صفات الكمال التي تجمل المرء وتزينه وتحببه للخلق وتجعل له قبولا في الأرض وإنها تدل على قوة العزيمة ونفاذ البصيرة والثقة بالنفس وترك التواضع يدل على ضعف الشخصية ونقص في النفس لأن المتكبر يستر ويغطي بكبره بعض عيوبه.




وثمة وسائل تحمل من وجد في قلبه الكبر على التواضع:

أولا: أن يتفكر العبد في أصل جوهره وحقيقته التي خلق عليها وأنه من تراب طبيعته السكون والتذلل فلا يليق به التكبر قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ).﴿٨ الانفطار﴾

ثانيا: أن يتأمل في عجزه وفقره لله وحاجته لعطاء الله وهذا يدل على أن حاله لا تصلح للكبر والتكبر قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).﴿١٥ فاطر﴾

ثالثا: أن يتأمل في نقص طبيعته واعترائها مظاهر الذم فهو يحمل الفضلات في جوفه ويعتريه الخوف والمرض وغيره من مظاهر النقص البين ومن كانت هذه حاله كان التواضع هو اللائق به قال الأحنف بن قيس: (عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر).

رابعا: أن يتفكر في صفة الله وغناه المطلق وصفة قدرته وعلمه الواسع وأن الكبر والخيلاء من أعظم صفاته فلا يليق للبشر أن ينازعوا الله في شيء من صفاته قال تعالى: (وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ). ﴿٦٢ الحج﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ). رواه أبو داود.

خامسا: أن يتدبر في حاله في الدنيا وأنه مفارقها عما قريب وراحل عنها وحيدا إلى قبر مظلم لا أثاث فيه ولا متعة بل يساكنه الدود وهوام الأرض ثم يقوم يوم القيامة عاريا متجردا من كل شيء فلم الفخر والخيلاء قال تعالى: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا). ﴿٩٥ مريم﴾ وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (إِنَّكُمْ مُلاقُو اللهِ حُفَاةً عُرَاةً مُشَاةً غُرْلًا). متفق عليه.

سادسا: أن يتدارس سيرة الرسول ﷺ سيد المتواضعين وصحابته الكرام والأئمة المرضيين الذي عرفوا بالتواضع والخمول قال المروذي في تواضع الإمام أحمد بن حنبل: (لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله كان مائلا إليهم مقصرا عن أهل الدنيا. وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول. وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يسأل وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر).

سابعا: أن يصاحب الفقراء والصالحين الذين تواضعوا لله ولم تغيرهم المظاهر والمفاخر فإن صحبتهم تسكن النفس وتذللها في طاعة الله وتجعل المرء هينا لينا مع إخوانه المسلمين ولا يداوم على صحبة الأغنياء وأهل الرئاسات فإن ملازمة صحبتهم تكسب النفس علوا وفخرا وتحمل المرء




على الترفع على عباد الله وازدرائهم قال عون بن عبد الله: (صحبت الأغنياء فلم يكن أحد أطول غما مني فإن رأيت رجلا أحسن ثيابا مني وأطيب ريحا مني غمني ذلك فصحبت الفقراء فاسترحت).

ثامنا: أن يباشر بنفسه الأعمال الصغيرة التي تكسر نفسه وتذللها وتذهب عنها العلو كالخروج إلى الأسواق الشعبية ومخالطة المساكين وحمل المتاع وتنظيف البيت ومعاونة الأهل ومساعدة الضعفاء في أمورهم الخاصة فقد كان رسول الله ﷺ يتولى بنفسه الشريفة أعمال المنزل ويعين زوجاته سأل رجل عائشة رَضِيَ اللهُ عَنهَا هل كان النبي ﷺ يعمل في بيته شيئا قالت: (نَعَمْ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ مَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ). رواه أحمد. وقيل إن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنهُ حمل قربة على عاتقه فقيل له في ذلك فقال: (إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها).

تاسعا: الابتعاد أحيانا عن مظاهر الترف التي تؤثر في النفس والخروج أحيانا بالمظاهر البسيطة والمتواضعة فإن ذلك له أثر عظيم في تهذيب النفس.

عاشرا: أن يقبل الحق من كل شخص ولا ينظر إلى منزلة قائله ومكانته وعرقه ولونه ويتجرد من جميع الأمور الشخصية ويقبل الحق لأنه حق بكل أريحية طاعة لله والحق أحق أن يتبع عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ). رواه مسلم.

حادي عشر: أن لا يفتخر المؤمن بأصله ونسبه على الناس ولا يرى لنفسه فضلا على أحد ويتعامل مع جميع الناس بكل احترام ولا يترفع عليهم وإن كانوا أقل منه في الجاه والمال عن عياض بن حمار رَضِيَ اللهُ عَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تعالى أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، ولَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ). رواه مسلم.

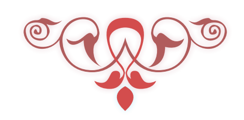
ثاني عشر: أن يبتعد المؤمن عن الشهرة ويغمط نفسه ويعودها على الخمول والابتعاد عن التصدر مالم يكن في ظهوره أحيانا مصلحة راجحة مع تحري الإخلاص وقبول النصيحة والبعد عن العجب قال أويس القرني: (أكون في غبراء الناس أحب إلي). وقال الحسن: (كنت مع ابن المبارك يوما فأتينا على سقاية والناس يشربون منها فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه فلما خرج قال لي ما العيش إلا هكذا يعني حيث لم نعرف ولم نوقر).

والتجمل بحسن الثياب والمسكن لا حرج فيه ولا ينافي التواضع في شيء ولا يذم المرء على فعل ذلك لما روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنهُ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ قالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً، قالَ: إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ). فلا يدخل اللباس




والمتاع والمسكن في باب التواضع والكبر من حيث الأصل إلا إذا اقترن بفعل شيء من ذلك قرينة تدل على الكبر وترك التواضع فإنه ينهى عن ذلك لأجل تلك القرينة لا أصل الفعل وإن كان في الغالب أن عدم الترف يدعو إلى التواضع والبعد عن مظاهر الترف توجب التواضع للعبد ولذلك فقد نهي في السنة الصحيحة عن تصرفات معينة لأجل ما اشتملت عليه من الكبر فقد ورد النهي عن جر الإزار تحت الكعبين والنهي عن الإسراف في الطعام والشراب ونهي المرء عن حبه ورغبته في قيام الناس له إذا دخل ليسلموا عليه ونهي أيضا عن التبختر في المشي والتمايل ونهي أيضا عن اتخاذ الخيل والمراكب بطرا ورياء وغير ذلك مما يدل على الكبر والفخر والخيلاء.

والحاصل أنه يباح للإنسان جميع التصرفات العادية إلا إذا اشتمل هذا التصرف وتضمن شيئا من الكبر فإنه محرم لأجل هذه العلة أما إذا كان المرء متواضعا كريم الطبع يحب التجمل والتزين في مظهره فلا يذم في ذلك ولا ينكر عليه كما كان بعض الصحابة كابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحب التجمل ولبس رفيع الثياب.






الاعتدال في المشاعر

الإنسان فطر على الحب والبغض والفرح والحزن وغير ذلك من المشاعر الإنسانية والإسلام قد راعى هذه الإحتياجات والرغبات النفسية ووقف منها موقف الوسط فلم يبطلها ويهملها ولم يتركها بلا قيود وضوابط بل اعتنى بها ووضع لها ضوابط وآدابا.

والإنسان يباح له شرعا إظهار هذه المشاعر من حب وبغض وفرح وحزن تجاه الأشخاص والمواقف والأحوال لكنه مأمور دائما بالاعتدال في إظهار هذي المشاعر وعدم مجاوزة الحد المشروع فيها لأن المبالغة فيها تؤدي إلى الظلم والإثم وتعود على صاحبها بالحرمان قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يا أسلم لا يكن حبك كلفا ولا يكن بغضك تلفا. قلت: وكيف ذلك؟ قال: إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه وإذا أبغضت فلا تبغض بغضا تحب أن يتلف صاحبك ويهلك). قال الحسن البصري: (أحبوا هونا وأبغضوا هونا فقد أفرط أقوام في حب أقوام فهلكوا وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا لا تفرط في حبك ولا تفرط في بغضك). وفي المقابل عدم إظهار هذه المشاعر بالكلية وعدم الإكتراث بها يدل على قلة الإحساس والجفاء وخلل في النفس ونقص في الرحمة والشفقة قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قبَّل النَّبِيُّ ﷺ الْحَسَنَ بنَ عَليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنهُمْ أَحَدًا، فنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ). متفق عليه. وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت: (قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: أَتُقبِّلونَ صِبْيانَكُمْ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: لَكِنَّا وَاللهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوَ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمْ الرَّحمَةَ). متفق عليه. فالتوسط والاعتدال أمر حسن لا إفراط ولا تفريط.

ويروى في جامع الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا). فهذا الحديث قاعدة عامة في الاعتدال في جميع المشاعر يندرج تحتها كثير من المشاعر والصور والأمثلة وهذا بيان شيء منها:

١- شعور الحب: ينبغي على العبد إذا أحب إنسانا أو قبيلة أو وطنا أن يكون معتدلا ولا يبالغ في ذلك وإذا حصل منه غلو في محبته فينبغي له أن يذكر مساوئه ومعائبه حتى يكون عنده اعتدال في ذلك المحبوب ولذلك نهى الشرع عن مبالغة الرجل في إظهار محبته لإمرأة دون المرأة الأخرى قال تعالى: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا). ﴿١٢٩ النساء﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:




(يقول: لا تستطيع أن تعدل بالشهوة فيما بينهن ولو حرصت). فلا يؤاخذ الرجل على ميله القلبي لإحدى زوجاته كما كان الرسول ﷺ يميل بمودته ومحبته إلى زوجه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ويروى في مسند أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي، فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي، فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ). وإنما يحرم عليه تفضيله امرأة على باقي النساء في النفقة والمبيت. وكذلك نهى الشرع الوالد عن تفضيل ولد على باقي الأولاد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النبيِّ ﷺ لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ). متفق عليه.

٢- شعور البغض: ينبغي على العبد إذا أبغض أحدا أن يكون معتدلا في ذلك ولا يبالغ وإذا حصل منه مبالغة في بغضه فينبغي عليه أن ينظر إلى محاسنه حتى يكون عنده اعتدال في ذلك المبغوض ولذلك نهى الشرع عن هجر المسلم فوق ثلاث ليال عن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ، فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ). متفق عليه. وهذا خاص في الخصومة لأمر الدنيا وقد وقته الشرع بثلاثة أيام أما إذا كان الهجر لأجل الفسق أو الابتداع فيجوز أكثر من ثلاثة أيام ولو طالت المدة إذا اقتضت المصلحة ذلك لهجر النبي ﷺ لكعب بن مالك وصاحبيه خمسين يوما كما ورد في الصحيحين. وكذلك نهى الشرع الرجل عن المبالغة في بغض امرأته لصفة سيئة فيها بل يوازن بين حسناتها وسيئاتها ويتفكر في أخلاقها الطيبة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ). رواه مسلم. وقال تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا). ﴿١٩ النساء﴾ فإذا نظر العاقل إلى كثير من صفاتها الحسنة من عفة ودين وجمال وحسن تبعل غفر لها ذلك الخلق السيئ وتغافل عنه لأنه مغفور في بحر حسناتها وكذلك المرأة لا ينبغي لها أن تبغض زوجها لخلق سيئ فيه وإنما تنظر إلى كثرة شمائله وحسن صفاته من دين وكرم وشهامة وغيرة ورفق فتنسى هذا الخلق وتتجاوزه ولا تتضجر منه وتحسن عشرته لتدوم الحال.

٣- شعور الفرح: ينبغي على العبد إذا فرح لأمر من الدنيا حصول مال أو وظيفة أو ولد أو قدوم غايب أن يكون فرحه عابرا معتدلا في فرحه ولا يجاوز في فرحه حدود الشرع فيسرف ويبذر ويستعمل نعمة الله في معاصيه فالإنسان يباح له إظهار السرور عند حدوث نعمة ولكن ينهى عن




البطر والأشر والخيلاء ولذلك أباح الشرع الفرح في العيد والعرس وغيرهما كما نهى الشرع عن الخروج في الفرح عما أباحه الله قال تعالى في قصة قارون: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ). ﴿٧٦ القصص﴾ قال مجاهد: (يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم). فنهى الله في هذه الآية عن الفرح الذي يوقع في البطر والأشر وينسي العبد شكر الله والقيام بطاعته بل يستعمل نعمه في معصيته. وإذا بالغ الإنسان في الفرح فينبغي له أن يتفكر في سرعة زوال الفرح وأن عاقبته حزن وأن هذه الدنيا جبلت على الأفراح والأحزان وأن الفرح الكامل الذي لا ينغصه شيء إنما هو في الجنة.

٤- شعور الحزن: ينبغي على العبد إذا حزن لفوات شيء من الدنيا أو وقوع مصيبة من موت عزيز أو فقد ولد أو مرض وغيره أن يكون معتدلا في حزنه ويصبر ويحتسب ولا يخرج عن الحدود التي حدها الله في المصيبة ولذلك أباح الشرع للإنسان أن يظهر الحزن قال نبينا ﷺ حين مات ابنه إبراهيم: (إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ). متفق عليه. ونهى الشرع عن مجاوزة الحد في الحزن وملازمته بحيث يوهن القلب ويقعد عن العمل قال تعالى: (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا). ﴿٤٠ التوبة﴾ ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ من الهم والحزن كما ورد في الصحيحين والشيطان حريص على إدخال الحزن على قلب المؤمن قال تعالى: (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ۚ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ). ﴿١٠ المجادلة﴾ وإذا بالغ الإنسان في الحزن فينبغي له أن يتفكر في سرعة انقضاء الحزن وتغير الحال إلى فرح وأن الله قدر له المصيبة لحكمة بالغة وأن هذه الدنيا دار أحزان لا ينبغي للمؤمن أن يحزن لفقدها ولا يأسف عليها لزوالها قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ). ﴿٢٣ الحديد﴾ فينبغي للمؤمن ألا يداوم على الحزن لأجل الدنيا لأن ذلك يمرض قلبه ويشغله بالأماني ويمنعه عن العمل الصالح. أما الحزن المصاحب للندم لفوات فضيلة أو تقصير في فريضة أو تذكر لأهوال القيامة فحسن ما لم يلازمه لأنه يثمر الإنابة والتوبة والاجتهاد في العمل الصالح قال تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ). ﴿٩٢ التوبة﴾ وينبغي أن يغلب على حال المؤمن شعور الفرح بالطاعة والذكر قال تعالى: (قل بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ). ﴿٥٨ يونس﴾



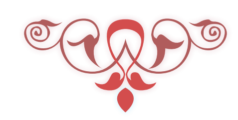

٥- شعور البكاء: من المشاعر التي تطرأ على المؤمن عند المصائب شعور البكاء وقد رخص الشرع في البكاء ولم يشدد فيه إذا كان في حدود الشرع وليس ذلك من الجزع المنهي عنه عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ). متفق عليه. والبكاء يكون من الرجال كما يكون من النساء ولا يعاب الرجل على البكاء لأنه من مقتضى الرحمة ولا ينكره إلا أهل الجفاء وينبغي للمؤمن أن يكون معتدلا فيه فلا يبالغ فيه بعلو الصوت وتمزيق الثياب والنياحة كحال أهل الجاهلية لأن ذلك من التسخط المنهي عنه وقد تبرأ النبي ﷺ من ذلك كما ورد في الصحيحين قال أبو موسى رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ: بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ والحَالِقَةِ والشَّاقَّةِ). وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله ﷺ: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ). متفق عليه. وإنما يبكي بالدمع والصوت المنخفض ولا يترك البكاء مطلقا كحال أهل الجفاء لأن ذلك يعد من قسوة القلب وقلة الرحمة ونقصا في الطبيعة.

٦- شعور العدواة: البراءة من الكفار من فرائض الدين التي اتفق عليها أئمة السلف قال تعالى: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ). ﴿٢٢ المجادلة﴾ وينبغي للمؤمن أن يكون معتدلا في عداوته فلا يتجاوز شرع الله فيمن يعاديه من الكفار قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ). ﴿٨ المائدة﴾ فيفرق بين المحارب والمعاهد في تعامله فيحفظ ذمة المعاهدين ولا يستبيح أموالهم ودمائهم ويعاملهم بالعدل والانصاف ولا يتولاهم كما يتولى أهل الإيمان فيتبرأ من دينهم وعاداتهم مع معاملتهم بالحسنى. وكذلك من الاعتدال أن يفرق بين أهل الكفر فلا يعامل أهل الكتاب كمعاملة الوثنيين ويلزم ما ورد في الشرع من التخفيف في معاملتهم فيأكل ذبائحهم وينكح نسائهم ولا يلحقهم بسائر الكفار. ومن اعتدال النبي ﷺ وعدله حسن رده على أهل الكتاب وعدم مجاراتهم على إساءتهم فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: (دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ اليَهُودِ على رَسُولِ اللهِ ﷺ فقالوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَفَهِمْتُهَا فَقُلْتُ: عَلَيْكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَهْلًا يا عَائِشَةُ، فإنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمْرِ كُلِّهِ فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فقَدْ قُلْتُ: وعلَيْكُم). متفق عليه.

٧- شعور المحبة: المسلم له حرمة يثبت له عقد الإخوة الإيمانية مهما ارتكب من الذنوب ما دام باقيا على إسلامه قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ




لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).﴿١٠ الحجرات﴾ وينبغي للمؤمن أن يكون معتدلا في محبة المسلمين فيتولى الصالح منهم ولاية كاملة ويتولى الفاسق منهم ولاية ناقصة يحبه لإيمانه ويبغضه لفسقه فلا يسوي بين أهل الإيمان الكمل وأهل الكبائر فلا يرفع حال الفساق يزكيهم ويخالطهم حال تلبسهم بالمعاصي كصنيع المرجئة مع الفساق ولا يتبرأ بالكلية من أهل الكبائر فيكفرهم كصنيع الخوارج مع الفساق وإنما يكون معتدلا والناس في هذا الباب طرفان ووسط منهم المتساهل جدا ومنهم المتشدد جدا وخيرهم الوسط المعتدل المتبع لهدي النبي ﷺ ويروى في مسند أحمد من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَوْثَقُ عُرَى الإِيْمَانِ الْحُبُّ فِي اللهِ، والْبُغْضُ فِي اللهِ). وقال ابن تيمية: (ومن كان فيه ما يوالى عليه من حسنات وما يعادى عليه من سيئات عومل بموجب ذلك كفساق أهل الملة إذ هم مستحقون للثواب والعقاب والموالاة والمعاداة والحب والبغض بحسب ما فيهم من البر والفجور).






فضل الأخوة في الله

الإخوة في الله أشرف العلاقات الإنسانية وأحبها وأكرمها عند الله وهي شعيرة عظيمة من شعائر هذا الدين القويم قال تعالى: (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا).﴿١٠٣ آل عمران﴾ وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (هم المتحابون في الله).

وقد اعتنى الشرع بالأخوة في الله وحث عليها ورغب فيها وأكثر من ذكرها وبيان فضائلها وآثارها الحسنة عن البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ: أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللهِ). رواه أحمد. وذكر النبي ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ). متفق عليه.

وحقيقة الأخوة في الله أن يحب الرجل أخاه المؤمن وينصره ويواليه لأجل محبة الله لما قام فيه من الإيمان والعمل الصالح وليس لأجل منفعة دنيوية أو مصلحة شخصية سئل الإمام أحمد عن الحب في الله فقال: (ألا تحبه لطمع في دنياه). وقال ابن القيم: (الحب في الله تابع لمحبة الله فإذا تمكنت محبته من قلب العبد أوجبت تلك المحبة أن يحب ما يحبه الله فإذا أحب ما أحبه ربه ووليه كان ذلك الحب له وفيه كما يحب رسله وأنبياءه وملائكته وأولياءه لكونه تعالى يحبهم).

وأما المؤاخاة والمحبة على المعصية فإنها علاقة عابرة تنقطع يوم القيامة وتنقلب إلى عداوة وحسرة وندامة ويتبرأ بعضهم من بعض لأنها بنيت على طاعة الشيطان قال تعالى: (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ).﴿٦٧ الزخرف﴾ وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (فكل خلة هي عداوة إلا خلة المتقين). وقال مجاهد: (فكل خلة على معصية الله في الدنيا متعادون).

وللأخوة في الله فضائل عظيمة ومعاني حسنة فهي بريد محبة الله عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ). رواه أحمد. ويظل الله المتحابين فيه يوم القيامة كما ورد في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعا: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي). وتكون لهم منزلة رفيعة في الجنة كما وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال الرسول ﷺ: (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا




خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ. وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).﴿٦٢ يونس﴾). رواه أبو داود.

وإنما شرعت الأخوة في الله لما يحصل بها من شيوع المحبة والسلام بين أفراد المجتمع والتعاون على البر والتقوى وتوقير الله ورسوله ﷺ ونصرة هذا الدين والقيام بمقتضى النصيحة والإصلاح بين الإخوان والتآلف والتراحم والتكافل وغير ذلك من الحكم العظيمة عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). متفق عليه.

والأخوة في الله تعني المحبة في الله ومحبة الخير للأخ المسلم وإظهار النصح له وإيصال الإحسان إليه وكف الأذى عنه فمعاملة المؤمن دائرة بين الإحسان والعدل قال يحيى بن معاذ: (ليكن حظ المؤمن منك ثلاثا: إن لم تنفعه فلا تضره. وإن لم تفرحه فلا تغمه. وإن لم تمدحه فلا تذمه). إن الأخوة في الله تعني أن يحب الرجل أخاه ويؤثره ويريد الخير له وينصح له وينفعه ويقضي حاجته ويناصحه طاعة لله وإتباعا لرسول الله لا لأجل نسب أو مال أو قبيلة أو بلد أو غير ذلك من أسباب الدنيا الزائلة والقائمة على المصالح المؤقتة.

والمحب في الله يتقرب إلى الله بهذه المحبة ويحتسب ثوابها عند الله ويوقن بعظم منزلتها عند الله لأنها نابعة من محبة الله تعالى قال ابن تيمية: (المحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعة لحبهم لله تعالى فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله). إنه يقدم محبة أخيه ويقربه إليه ويصله ويزوره ويتفقد حوائجه ويواسيه في مصابه ويكون عونا له بعد الله لأجل ما قام في أخيه من الإيمان بالله والعمل الصالح ولا يكون سلوكه هذا لأجل الدنيا.

وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه متآخين في الله متحابين بجلاله يؤثرون إخوانهم على أنفسهم ويطلبون رضاهم ومحبتهم فيما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ باذلين أنفسهم وأموالهم في سبيل تحقيق ذلك قال تعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).﴿ ٢٩ الفتح﴾ ولما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار كان الرجل ينزل عن شطر ماله وإحدى زوجتيه لأخيه ولم يكن أحدهم ينظر إلى الجنس أو اللغة أو البلد أو البشرة في هذا الأمر بل يتحقق في أمر واحد الإيمان فإذا وجده رتب عليه المحبة والأخوة في الله.

والمحبة في الله ليست مجرد كلمة سهلة تقال لأدنى مناسبة أو دعوى عريضة بل هي سلوك وعمل قلبي وظاهري يتمثله المسلم مع أخيه فيظهر منه الحرص والشفقة والنصيحة والإيثار ولذلك




ورد في سنن أبي داود عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: أَأَعْلَمْتَهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: أَعْلِمْهُ. قَالَ: فَلَحِقَهُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ. فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ). ولا شك أنه إذا أخبره بذلك حصل بينهما مودة وألفة خاصة أوجبت القيام بحقوقها.

والإخوة في الله ليست علاقة إنسانية طبيعية بل هي عبادة شرعية وشعيرة من شعائر الدين مطلوب من المسلم امتثالها والتخلق بها سلوكيا كما يطلب منه أداء الشعائر التعبدية الأخرى المالية والبدنية. ومن زاولها وجد بها حلاوة الإيمان وذاق طعم الإيمان كما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أنْ يَكونَ اللهُ ورَسولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لِلَّهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كما يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ).

والمتأمل اليوم في سلوكيات وتصرفات المجتمع المسلم يلحظ ضعفا شديدا وخللا كبيرا بالاهتمام بهذه الشعيرة العظيمة. فمن الناس من لا توجد هذه الشعيرة في قاموس حياته ومنهم من توجد على ضعف شديد قد تظهر وتقوى في أحوال ومشاهد خاصة كالمناسبات الدينية ونزول الشدائد.

وطغيان حب الدنيا واللهث وراءها وحب المظاهر المادية وغلبة المصالح الشخصية والعلاقات النفعية يضعف هذه الشعيرة في سلوك المسلم ويجعله يتناسى في علاقاته وعطائه ومنعه ومشاعره الأخوة في الله ويبني علاقاته على مجرد الأسباب الدنيوية من نسب ومصاهرة وتجارة وزمالة عمل ونحو ذلك مما تألفه النفس ويترتب عليه فوائد ومنافع دنيوية عاجلة.

وهذا السلوك الخاطئ وجد في عهد السلف لكن لم يكن ظاهرة عامة كما هو اليوم وقد اشتكى منه بعض السلف كما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: (من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا). رواه ابن جرير. وإن كانت هذا الشكوى في زمانهم فكيف بزماننا هذا. وإنما كثر العمل بالأخوة في الله عند السلف لبركة العلم وإتباع السنة والتعاون على الخير وظهور الطاعة والاعتناء بالفرائض وصلاح النية والاحتساب وغير ذلك مما يقوي رابطة الأخوة ويغذي هذه الشعيرة.

والمسلم لا يلام على تبادل المنافع والمصالح المباحة واتصاله بمن يحقق له تلك المصالح ويقدم له الخدمة في بعض الأحيان لأن الشريعة أباحت ذلك وأذنت فيه وإنما يلام أن تكون جميع




علاقاتـه مبنية على الدنيا وجميع حياته خالية من مشـاعر المحبة الإيمانية والأخوة في الله ولا يوجد في معاملاتـه نـوع من الإحسـان وتغيب عنه نية الاحتسـاب. ويكـون عمله مذمومـا إذا كانت نظرته للآخرين مرتبطة ومبنية على توفر المال والمنصب والرياسة دون مراعاة اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح والخلق الحسن والولاية الشرعية.

والعلاقة بين المسلمين إذا خلت من شعيرة المحبة في الله والأخوة الإيمانية أو ضعفت يترتب على ذلك أمور سيئة:

(١) انعدام النصح والإنصاف والتقصير في إيفاء الحق وغلبة الشـح والهوى وربما عامل الأخ أخاه المسلم بالغش والخداع والمراوغة.

(٢) تجعل المرء في جميع تصرفاته لا يرى إلا نفسـه وهواه بطمع وحرص شـديدين ولو أدى ذلك إلى أكل أموال الناس وإضاعة حقوقهم.

(٣) يفوت على المسـلم أجرا عظيما وفضلا كبيرا لفقده هذه العبادة الجليلة وتصبح تصرفاته دائرة بين الإباحة والمحظور.

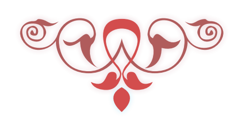
وأعظم ما يعوق المسلم عن القيام بهذه الشعيرة ويمنعه منها سوء ظنه بالمجتمع ونظرته السوداء لهم واعتقاد أنهم ليسـوا أكفاء للإحسـان والمحبة فهـو يحتج ويتعذر بأن النـاس اليوم غلب عليهم الطمع والسـوء والظلم فلا يليق بذل المعروف لهم وهذه شـبهة شـيطانية لأن الشارع أمر بالإحسان لكل أحد ولأن الناس فيهم خير فلا يخلو المجتمع من الخير ولأن المسلم مهما أساء تبقى له حرمته وكرامته ويشرع فيه الإحسان والخير وربما كان ذلك سببا لإصلاحه.

ومما يقطع المسلم عن المعروف والمحبة نظره إلى مبدأ المكافأة والحوافز مقابل عطائه وبذله فهو يتعذر بأنه فعل وفعل وعامل الناس بالحسـنى والأخوة ولكنه طيلة المشـوار لم يجد من يكافئه ويحسن إليه بل بالعكس وجد الإساءة منهم وهذه شبهة باطلة مخالفة للشرع.

ما أروع أن يخرج المسلم من بيته لزيارة أخيه أو يعقد سفراً طويلاً للقياه أو يشتري هدية جميلة لـه أو غيـر ذلك من الأعمـال التي تعزز المحبـة وتقوي الصلـة لا يريد بذلك إلا وجـه الله والقيام بالأخـوة والمحبة في الله. ما أروع هذا المعنى وما ألذ هذه العبادة الجليلة التي تتجلى فيها محبة الله وتوقيـره ومحبة رسـوله ﷺ. وقـد ورد فضل عظيم في ذلك روى مسـلم في صحيحه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عـن النبـي ﷺ قال: (أَنَّ رَجُلًا زارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمّـا أَتـى عَلَيهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِه القَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّها؟




قَالَ: لَا، غَيرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ).
ويروى في جامع الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً). رواه الترمذي. ومن حقوق الأخوة الإيمانية عيادة المريض وقد ورد فيها فضل عظيم في الشرع وهي طريق إلى الجنة عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا).
رواه مسلم.






كف الأذى عن الناس

من أبواب العبادات التي لا يفطن لها كثير من المسلمين عبادة كف الأذى عن الآخرين فكثير من الناس يتصور أن الخير محصور في أداء الشعائر وبذل المعروف فحسب ولا يتورع عن أذية المسلمين.

وكف الأذى عن كل مسلم عبادة جليلة دل الكتاب والسنة على فضلها وعظم منزلتها قال تعالى: (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا). ﴿٥٣ الإسراء﴾ وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعا: (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ). وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذَا كُنْتُمْ ثَلاثَةً فَلا يَتَنَاجى اثْنَانِ دُونَ الآخَرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلكَ يُحزِنُهُ). متفق عليه. فالمسلم حقا من سلم الناس من شره أما من لم يسلم الناس من أذاه فليس بمسلم كامل ولو كان يصوم النهار ويقوم الليل الدهر كله.

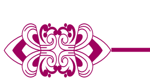
والشارع قد نهى عن أذية المسلمين لعظم حرمة المسلم ولأن ذلك يفضي إلى وقوع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ويؤدي إلى انتشار الفوضى وزعزعة الأمن الاجتماعي وقطيعة الرحم وانصرام حبال المودة بين الأصحاب.

والمسلم كما يؤجر على فعل الطاعات وبذل المعروف كذلك يؤجر على كف الأذى وصرف الشر عن المسلمين لأن ذلك من المعروف وداخل في معنى الصدقة قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قُلْتُ: يَا رَسولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ العَمَلِ؟ قَالَ: تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّها صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ). متفق عليه.

والله عَزَّوَجَلَّ كما تعبدنا بفعل الطاعات تعبدنا أيضا بحفظ حرمة المسلمين وعدم التعدي عليها بنوع من الأذى. وبعض الناس هداهم الله لا يستشعر في حسه عظم هذا الأمر فتراه مع حرصه على الصلاة والصيام وسائر العبادات يتعدى على أخيه المسلم ويؤذي المسلمين ويتهاون في هذا الأمر تهاونا شديدا.

والباعث على الاستخفاف بحرمة المسلم والتساهل في إيذاء المسلمين ناشئ عن الجهل وقلة الوعي وبلادة الطبع وقد تكون البيئة عاملا مؤثرا في تكوين هذه الشخصية العدائية ولا شك أن تربية الأسرة عامل مؤثر أيضا على سلوك الفرد هذا السلوك والتخلق به.

وقد ورد في إيذاء المسلمين وعيد شديد وعقوبة أخروية قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا). ﴿٥٨ الأحزاب﴾ وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ




قال: (قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ فُلانةَ يُذكَرُ مِنْ كَثرةِ صَلاتِهَا وَصَدقَتِهَا وَصِيامِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيْرَانَها بِلِسَانِهَا؟ قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَإِنَّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا، وَإِنَّهَا تَتَصدَّقُ بِالأَثْوَارِ مِنْ الأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيْرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ قَالَ: هِيَ فِي الجنَّةِ). رواه أحمد.

وإيذاء الغير يشمل كل أذى حسي ومعنوي فيدخل في ذلك الاعتداء على مال المسلم وأهله وولده ودمه والاستيلاء على أملاكه بغير وجه حق ويشمل أيضا الاستهزاء واللمز والسخرية بعرضه. ومن الإيذاء الشائع الطعن في أنساب الناس والنقيصة لهم في المجالس على سبيل التشهي واللهو.

ومن الإيذاء الذي يستهين فيه البعض التدخل في خصوصيات الأقارب والجيران وتتبع عوراتهم وإبداء الرأي في أحوالهم وإلقاء اللوم عليهم ونقد تصرفاتهم دون استشارة منهم أو إذنهم وعلمهم بذلك في الوقت الذي لا يسمح المتكلم لأحد التدخل في شؤونه عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (صَعِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المْنبَرَ فَنَادَى بِصَوتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ). رواه الترمذي.

ومن صور الأذى أن يتفكه بعض الناس في المجالس بغيبة المسلمين والسخرية بهم ويجعل ذلك مادة للضحك والفرفشة وجذب الأنظار إليه واعتبار هذا السلوك من الظرافة وخفة الروح وهو مع تحريمه يدل على سفه العقل ونقص المروءة.

ومن الأذى الشائع أن يقف المرء في طريق أو مكان عام يراقب المارة وينظر إلى عوراتهم ويتكلم عليهم ويضايقهم ويلمزهم ويؤذيهم بكل قبيح وقد نهي المسلم عن ذلك عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِيَّاكُم وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقاتِ، فقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَا لَنَا مِنْ مَجالِسنَا بُدٌّ، نَتحدَّثُ فِيهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيْقَ حَقَّهُ، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عنِ الْمُنْكَرِ). متفق عليه.

ومن الإيذاء الذي يجهله بعض الناس التدخل في عمل الغير ومتابعته وتقويمه وهو لا يمت بصلة بهذا العمل من أي جهة وليس مسؤولا ولا مخولا بذلك فترى هذا الشخص إذا رأى موظفا في أي مجال تكلم عليه وأثار المسؤول عليه وتدخل في شؤونه وأفسد عليه بينما كان الواجب عليه أن ينصحه إذا رأى تقصيرا واضحا منه بعد سؤاله والتثبت في ذلك.




ومن الأذى الخطير الذي ينبغي على المسلم الحذر الشديد منه حسد الناس في أموالهم والتطلع لما في أيديهم وسؤال أهل الدنيا عن أحوالهم فإن ذلك يؤذيهم وينغص عليهم عيشهم.

ومن أعظم الأذى الذي يبتلى فيه بعض الجهال تنقص العلماء والحط من قدرهم ولمزهم واتهامهم في نياتهم وإخلاصهم والتطاول عليهم وجحد معروفهم وجهودهم في تعليم وإرشاد المسلمين.

ومن أعظم الأذى أن يكون لسان المسلم سفاحا يلعن المسلمين ويكفرهم ويبدعهم ويفسقهم لأدنى شبهة وأقرب مخالفة لمذهبه عن عبدالله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ). متفق عليه. وحذر النبي ﷺ من التكفير بغير حق عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (مَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ). متفق عليه.

ومن الأذى العظيم الذي يستخف فيه بعض النساء السفيهات التدخل في المشاكل الزوجية وإفساد المرأة على زوجها وتحريضها على نزع يد الطاعة والخروج من بيت زوجها والنشوز عليه وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَبَّبَ امْرَأَةً عَلَى زَوْجِهَا أَوْ عَبْدًا عَلَى سَيِّدِهِ). وكثير من النساء يسعين فى الفتنة دائما للتفريق حسدا أو غيرة أو فضولا أو رقة فى الدين أو تأثرا بالإعلام الفاسد.

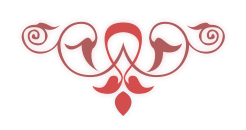
ومن الأذى الخفي الذي لا يفطن إليه بعض المسلمين أن يبالغ في العقوبة ويفجر في الخصومة مع خصمه وينتصر لنفسه بالباطل ويتجاوز القدر الشرعي المأذون فيه وربما تعدى تصرفه إلى النيل من عرض الظالم والطعن في عرضه وتتبع عورته وإظهار فضائحه وقد ورد في الصحيحين أن ذلك من صفات المنافقين عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ). والمباح له في الخصومة أخذ الحق الشرعي والرد بالعقوبة المماثلة وأفضل له أن يعفو ويصفح ويسامح ابتغاء رضا الله وثوابه قال تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ). ﴿١٢٦ النحل﴾ وقال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ). ﴿٤٠ الشورى﴾

وما ورد في النصوص في فضل العزلة عند صلاح الزمان فمحمول على كون الشخص يتعدى شره للناس ويغلب ذلك على طبعه ولا يستطيع دفع أذاه عنهم ففي الصحيحين عن أبي سعيد



الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (قِيلَ: يا رَسولَ اللهِ أيُّ النَّاسِ أفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ في سَبيلِ اللهِ بنَفْسِهِ ومَالِهِ، قالوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ، ويَدَعُ النَّاسَ مِن شَرِّهِ). وبعض الناس هداه الله مؤذ في طبيعته معتد في طبعه لا يخالط أناسا إلا آذاهم ولا ينزل في مكان إلا حلت فيه المشاكل ولا يطيقه أحد فهذا يجب عليه أن يستصلح نفسه ويكف شره فإن شق عليه ذلك أو تعذر فليعتزل الناس في اجتماعاتهم العامة إلا الجمع والجماعات يلزمه المداومة عليها. وما ورد في فضل العزلة عند فساد الزمان فمحمول على الفرار بالدين والسلامة من الفتن عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ وَمَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ). رواه البخاري.

والتقصير في هذا الباب عظيم لا يمكن تداركه في الآخرة فينبغي للمؤمن أن يكون ورعا حريصا على أن لا يلقى الله وقد آذى مسلما وعرض نفسه للخطر وأذهب حسناته عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَتَدْرُونَ مَن الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي من يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وقَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ). رواه مسلم.






فضل التحفي بالمسلم

من عبادات الجوارح اللطيفة التي أرشد إليها الشارع عبادة التحفي والبشر والبشاشة في وجوه المؤمنين قال تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). ﴿٨٨ الحجر﴾ وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال الرسول ﷺ: (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيْكَ لَكَ صَدَقَةٌ). رواه الترمذي.

وقد كان النبي ﷺ دائم التبسم في وجه من يلقاه قال جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ولَا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ في وجْهِي). رواه البخاري. قال ابن بطال: (فيه أن لقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة وهو مناف للتكبر وجالب للمودة). وأورد أهل الصحاح جملة من الأحاديث التي تدل على تبسمه ﷺ في كثير من الأحوال وهذا يدل على كرم شمائله ودماثة خلقه وحسن معشره.

فيشرع للمسلم إذا لقي أخا له من أهل الإيمان أن يتبسم في وجهه ويطلق وجهه متحفيا به مستبشرا بلقائه سواء كان يعرفه أم لا ولا ينبغي له أن يكون عبوسا في وجهه مكفهرا ليحزنه ويغم قلبه ويشعره بالحرج. وكذلك يستحب للمرأة إذا لقيت أخواتها أن تكون بشوشة في وجوههن متحفية بهن مطلقة وجهها بالكلام الحسن.

والتبسم وإظهار التحفي بالمسلم تعد صدقة معنوية ومن المعروف الذي يحبه الله ورسوله ﷺ كما ورد في صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (لَا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوْفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيْقٍ).

والشارع رغب في هذه العبادة الجليلة لما يترتب عليها من إدخال الفرح والسرور على قلب المؤمن وحصول المودة والمحبة بين المسلمين. والبشاشة والبشر لها أثر عظيم في دوام محبة الإخوان واجتماع أهل البيت والإصلاح بين المتخاصمين وتأليف الخلق على الخير.

وتبسم المسلم لإخوانه يدل على صفاء نيته وطيب قلبه وإشراقة روحه وخلو قلبه من الغل والحسد ومحبته الخير للمسلمين وترك ذلك دائما يدل على خلو تلكم الصفات أو بعضها.

والمسلم الذي يزاول هذا السلوك لهو موفق للخير قد فتح له بابا من أبواب الخير التي قد لا يفطن لها كثير من الناس محبوب إلى الخلق قد كسب قلوبهم وثنائهم عليه بالخير. وتبسمه له أثر حسن على نفسه وروحه فيكسبه الأمان والاستقرار والفرح والرضا والهدوء.

وينبغي على المؤمن الفطن أن يلحظ الأفعال والأقوال والمشاعر التي تطيب خاطر أخيه المسلم وتجلو صدأ قلبه وجفاءه في معاملته فتنقلب الحال بينهما إلى صفاء ومحبة وألفة قال سفيان ابن عيينة: (والبشاشة مصيدة المودة والبر شيء هين وجه طليق وكلام لين).



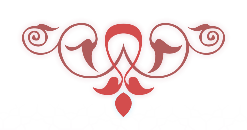

وبعـض المسـلمين وفقهـم الله لا يلحظون فضل هـذه العبادة فيزهدون بها ويقصـرون في فعلها ويفرطـون في ثوابهـا ويظنـون أن الشـأن كل الشـأن في المحافظة علـى الفرائض دون العناية بيسـير الأعمال ومحاسن الأخلاق وهذا من قلة الفقه وجفاء الطبع.

ويتأسف المسلم إذا رأى بعض الإخوة المستقيمين على شرع الله المواظبين على فعل الطاعات لا يبشـون ولا يتبسـمون في وجوه إخوانهم ويظهـر عليهم الجفاء والغلظـة في التعامل مع الآخرين. ومن ظن أن التبسـم والبشـر عند لقاء الإخوان ينافي الوقار والهيبة والحزم ويخدش في كمال الورع والخشـية فقد أخطأ الفهم وخالف السـنة قـال ابن القيم: (إن الناس ينفرون مـن الكثيف ولو بلغ في الدين ما بلغ. ولله ما يجلب اللطف والظرف من القلوب ويدفع عن صاحبه من الشـر ويسـهل له ما توعـر على غيـره. فليس الثقلاء بخواص الأولياء وما ثقل أحد على قلوب الصادقين المخلصين إلا من آفة هناك. وإلا فهذه الطريق تكسو العبد حلاوة ولطافة وظرفا فترى الصادق فيها من أحلى الناس وألطفهم وأظرفهم قد زالت عنه ثقالة النفس وكدورة الطبع).

وبعض الناس إذا ألقيت عليه السـلام وتبسـمت في وجهه رد عليك بجفاء وجمود وسوء صورة أشـعرك بالكراهية والأسـى يلقي عليك السـلام بطريقة فيها من وأذى كأنه ينفق عليك من ماله فهذا محروم من الخير غير موفق في قلبه نوع كبر وغرور لاسيما إن كان من أهل المناصب والمراتب والله المستعان. وكم والله حصل نفور واستوحشت نفوس بين الأحباب والأصحاب وانقطع الخير وترك طريق الحق بسبب عبوس الوجه وجفاء الطبع وعدم البشاشة.

والكـرم والجود بالمال عبادة جليلة ولكن ربما يسـاويها أو أعظـم منها منزلة في بعض الأحوال الكرم والجود بالبشـر وحفاوة الروح والتواضع وخفض الجناح وبذل الجاه ولا يوفق لهذه المنزلة إلا القليل من الناس. وقد يكون إطلاق المحيا وبشر الوجه له أثر على النفس أبلغ من المال ويروى في مسـتدرك الحاكـم عن أبي هريـرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (إِنَّكُمْ لَا تَسَـعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ وَلْيَسَـعْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ).

وهذه العبادة مشـروعة وخاصة بالمؤمنين الذين أطاعوا الله ورسـوله ﷺ فيتواضع المسـلم لهم ويبش في وجوههم محبة لله وتأسـيا برسـوله. أما الكافر فلا يشرع التبسم والتحفي بوجهه في الأصل إلا إذا غلب على الظن ترتب مصلحة راجحة بحيث يدعوه ويرغبه في الدخول بالإسلام.






كيف يحافظ المؤمن على دينه زمن الغربة

شرع الله للمسلم الاجتماع بإخوانه المسلمين في عبادات متنوعة كالصلوات الخمس والجمعة والعيدين والاستسقاء وغير ذلك لحكم عظيمة ومن أعظم مقاصد إظهار الشعائر والاجتماع عليها تثبيت المؤمن وزيادة إيمانه وتقوية صلته بربه.

والمؤمن الصادق يجد راحة في النفس وانشراحا في الصدر وطمأنينة في القلب وثباتا على الحق في المجتمع المحافظ الحريص على إظهار شعائر الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا أمر معلوم شرعا وحسا. قال تعال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). ﴿٩٧ النحل﴾

والمؤمن قد تطرأ عليه أحوال أو تنزل به ظروف تحمله على الإقامة في بلد كافر أو بلد إسلامي تظهر فيه مظاهر الانحراف من الزنا وشرب الخمر والتبرج والاختلاط ومخالطة الكفار وقلة الأنشطة الدينية وغير ذلك مما يكون له أثر سيء على دين المؤمن ووسيلة إلى ذوبانه وفقده التمسك بشرع الله. وكثير من المتدينين في زماننا يشكون في هذه المجتمعات ضعف الإيمان وقسوة القلب ويسألون عن الإجراءات النافعة والحلول العملية للخلوص من هذه الأزمة.

ووجود المؤمن في هذا الوضع يشكل خطرا ظاهرا على دينه لا سيما إذا أهمل هذه القضية ولم يتفاعل معها. والخطورة تكمن في بحر الشبهات المتلاطمة التي يسمعها في كل مناسبة عامة وخاصة من تشكيك في الدين وتطاول على أحكامه وتوجيه التهم والمطاعن عليه أو طرح مفهوم الحرية والمساواة والعلمنة وغير ذلك من الشبه التي تختلط على عقل المؤمن وقلبه ويلتبس فيها الأمر وتتمكن في قلبه ولا يستطيع دفعها وقد حذر النبي ﷺ من الاستماع إلى الشبه قالت أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (تلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ). ﴿٧ آل عمران﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ). رواه البخاري.

وتكمن الفتنة أيضا في بحر الشهوات التي تعرض عليه ليلا نهارا ويتأثر بها فأينما يمم وجهه وجد الشهوة تناديه وقد ينجر وراء كثرة المغريات وسهولة فعل المعصية وضعف الرقابة وغياب الرادع مما يجعله لا يستطيع أن يقاوم أو يصمد لفترة طويلة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ:




(بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ. يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا. أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا. يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا). رواه مسلم.

وإهمال المؤمن لمتابعة مستوى إيمانه والحرص على الحفاظ على دينه يوقعه في منزلق خطير قد ينتهي به إلى أحد طريقين:

الأول: الانفصال بالكلية عن هذا المجتمع والعزلة عن أهله والوقوع في الغلو والتكفير والعياذ بالله فيحصل عنده يأس وقنوط من إصلاح العباد ويظن أنه بهذا التصرف أراح ضميره وأنهى مشكلته واستطاع أن يحافظ على دينه.

الثاني: التساهل والذوبان في هذا المجتمع بعوائده السيئة وأفعاله القبيحة ومجاراة أهله في مبادئهم وقيمهم التي تعارفوا عليها ولو كانت مخالفة للشرع من فعل المعاصي الظاهرة ومشاركتهم في مظاهر التحرر والتشبه والموالاة لأعداء الله ويصبح بلا هوية وقد أوقعه في ذلك قلة بصيرته وإيثاره الدنيا على الآخرة وضعف عزيمته. وكلا الطريقين من الإفراط والتفريط خطأ ومخالف للشرع.

فينبغي على المسلم في هذا الوضع أن يعتني بحفظ دينه وحماية إيمانه والتزامه بسنة النبي ﷺ والتمسك بشرعه وأن يخشى ويحذر أشد الحذر من تغير دينه وانتكاسته فالقلوب سريعة التقلب عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ). رواه مسلم. والمؤمن مهما بلغ من كمال الإيمان والعمل لا تؤمن عليه الفتنة في الدنيا قال إبراهيم التيمي: (من يأمن البلاء بعد قول إبراهيم: (واجْنُبْنِي وبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ)﴿٣٥ إبراهيم﴾). وقال سفيان الثوري: (ما أمن أحد على دينه إلا سلبه).

فيجب على المؤمن أن يكون شحيحا بدينه يحزن ويقلق إذا فقد شيئا من دينه أشد مما يجد إذا فقد شيئا من الدنيا ولا يكون كحال كثير منا اليوم يأسف ويحزن على فقده الدنيا ولا يكترث إذا ذهب شيء من دينه. فمن حزن لفقد دينه كما يحزن لفقد دنياه كان في قلبه حياة ونور وظلمه. ومن لم يحزن على فراق دينه وفقده كان قلبه ميتا لا حراك به فليكبر عليه أربعا. ومن كان حزنه على فقد دينه أعظم من حزنه على فقد دنياه كان قلبه حيا ونورا لا ظلمة فيه وهو خير الثلاثة قال تعالى: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ).﴿٩٢ التوبة﴾ ومهما حصل للمؤمن من فتور وضعف يذهب أثره بالتوبة والاستغفار إنما المصيبة أن تستمر هذه الغفلة حتى ترديه قتيلا والله المستعان.




وقد أخبر النبي ﷺ بوقوع الفتن وبين أن الصابر في زمن الغربة المتمسك بدينه يجد مشقة عظيمة كمن أمسك بالجمر عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ). رواه الترمذي. وإنما يشتد ذلك على المؤمن لشيوع الفساد وكثرة المغريات وقلة المعين وغلبة السفهاء وإقبال الناس على الدنيا وزهدهم في الآخرة.

وهناك أمور مهمة تعين على حفظ دين المؤمن وسلامته من الفتن إذا أخذ بها المؤمن ثبت على الحق مهما كانت الظروف صعبة والغربة شديدة وصوت الحق ضعيفا:

أولا: أن يستمر على الدعاء بصدق كما كان النبي ﷺ كثيرا ما يدعو بالثبات على الدين قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (دَعَوَاتٌ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَا: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُكْثِرُ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ، فَقَالَ: إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ). رواه أحمد. وقال تعالى: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ). ﴿٨ آل عمران﴾ فإذا ألح المؤمن في دعائه وصدق مع الله وكان موقنا بالإجابة واختار الأوقات التي يصفو فيها قلبه ويخشع وتعظم رغبته بوعد الله فحري بأن يجيب الله دعوته ويحقق مراده لا سيما إذا دعا بدعوة المضطر قال تعالى: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ). ﴿٦٢ النمل﴾ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه).

ثانيا: أن يوقن المؤمن بأن الثبات على الحق بيد الله يمنحه لمن يشاء من عباده ممن علم صدقه وليس بذكائه وسعة علمه واجتهاده قال تعالى: (وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا). ﴿٧٤ الإسراء﴾ فإذا أيقن المؤمن بذلك استعان بربه وعلق قلبه به سبحانه وتبرأ من حوله وقوته. ومن علق رجاءه بالله واعتمد عليه ووثق بعطائه حري بأن ينصره الله ويكون معه ويفيض عليه من بركاته ما يسكن قلبه ويطمئن فؤاده ويشرح صدره للإيمان ويثبته على الحق ولا يخذله ولا يتركه للشياطين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يَقُولُ اللهُ تَعالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً). متفق عليه.

ثالثا: أن يكثر من الأعمال الصالحة ويداوم على الفرائض والسنن فإن المداومة على العمل الصالح لا سيما الصلاة يقوي الصلة بالله ويملأ القلب ثباتا ويؤتي النفس زكاة ونورا وبصيرة ويطهر




الجوارح من الرذائل وأثر الطاعة ظاهر على القلب والجوارح قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً). ﴿٦٦ النساء﴾

رابعا: أن يجعل له وقتا راتبا يخلو به بربه وينأى عن الخلق ودنياهم الزائلة فيذكر ربه ويحاسب نفسه ويبكي على خطيئته ويجدد العهد بربه فلهذه الخلوات أثر عظيم في شحن المؤمن بالطاقة الإيمانية وغسل القلب من الأدران التي علقت به من جراء فتن الدنيا ومخالطة الخلق وإذا فرط فيها المؤمن خارت قواه ورق دينه وتعرض للهلاك قال ابن القيم: (وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت الي وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي).

خامسا: أن يكثر من التدبر في كلام الله والتفكر في آياته وحال الدنيا وأهوال القيامة ومآله في الآخرة فمن أكثر التفكر والتدبر أورثه ذلك فراسة وبصيرة ونورا تتجلى له الحقيقة في كثير من زخارف الدنيا التي تنطلي على كثير من الغافلين ولذلك شرع التدبر والتفكر قال تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ). ﴿١٠٢ النحل﴾

سادسا: أن يتفقه في دين الله ويطلب العلم لا سيما في باب الاعتقاد والسنة فإنه إذا عرف دلائل الشرع وفقه المسائل وفتح عليه في معرفة مراد الله ومراد رسوله ﷺ قويت حجته وعظمت خشيته ولم تضره فتنة مادامت السموات والأرض. والعلم الصحيح الموروث عن أئمة السلف يقي من الفتن ويؤتي صاحبه بصيرة وفرقانا يميز به بين الحق والباطل ويكشف الشبهات ويعصم من الشهوات بإذن الله وتوفيقه.

سابعا: أن يبتعد عن الأماكن التي تكثر فيها الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن يباشرها وقت الحاجة فإن انتهت حاجته انصرف عنها وأن لا يدخل الأماكن المعدة للمعصية مهما كان الحال وأن لا يتهاون في هذا الأمر فإن التساهل في ذلك يوقع المؤمن في الحرام ومن حام حول الحمى وقع فيه عن عمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ مِنْه، مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ مِنْه، مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ مِنْه؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، فَلَا يَزَالُ بِهِ لِمَا مَعَهُ مِنْ الشُّبَهِ حَتَّى يَتْبَعَهُ). رواه أحمد.

ثامنا: أن يحرص على صحبة الصالحين ومجالستهم ولو كان شخصا واحدا وأن يعتني بهذه الصحبة ويستشعر أنها قربة وطاعة فليحرص على لقياه مهما بعد اللقاء وطالت المسافة بينهما فإن الارتباط بالرجل الصالح ولو قل علمه يثبت المؤمن ويعينه على الطاعة وقد أرشد الله نبيه بصحبة

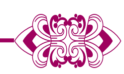



الأخيار بقوله: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا). ﴿٢٨ الكهف﴾ أما الانعزال عن الصالحين والزهد في صحبتهم والرغبة عن مجالسهم يجعل المؤمن ضعيفا فريسة سهلة لشياطين الإنس والجن وكثير من الناس لما قصروا في ذلك تغيرت أحوالهم وابتعدوا عن الجادة عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ). رواه أبو داود.

تاسعا: أن يشتغل بالدعوة إلى الله وهداية الخلق لربهم ونشر الدين فإن الاشتغال بذلك يثبت الإيمان في القلب ويشرح الصدر ويورثه اطمئنانا ويقينا ويصرفه عن مداهنة الباطل والركون إلى الدنيا وتضييع الأوقات في اللهو قال تعالى: (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ). ﴿١٥ الشورى﴾ فالنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل والمؤمن إذا ترك الدعوة للدين وصار من أهل البطالة وأخلد إلى الدنيا ضعف يقينه بدينه وسهل التأثير عليه وجره إلى طريق المعصية.

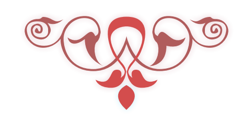
عاشرا: أن يتأمل في سير الأنبياء والأولياء الصالحين مما يوقد في قلبه معاني الثبات وأحوال اليقين وسبيل النجاة من الفتن قال تعالى: (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ). ﴿١٢٠ هود﴾

ومن أعظم ما يحفظ دين المؤمن ويثبته على الحق طلب الهداية من الله على الدوام والإلحاح عليه مع الإخلاص واستحضار المعنى والخشوع فإن ذلك له أثرا حسنا في قوة البصيرة وفقه الدين والاجتهاد في العمل والوقاية من شر الشيطان وشر النفس ولذلك أمر المسلم بتكرار قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ). ﴿٦ الفاتحة﴾ سبعة عشر مرة في اليوم والليلة في صلاة الفريضة عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ وَالْغِنَى). رواه مسلم. والعبد مفتقر للهداية في كل أحواله وأحيانه قال ابن القيم: (والعبد مفتقر إلى الهداية في كل لحظة ونفس في جميع ما يأتيه ويذره فإنه بين أمور لا ينفك عنها: أحدها أمور قد أتاها على غير وجه الهداية جهلا فهو محتاج إلى أن يطلب الهداية إلى الحق فيها. أو يكون عارفا بالهداية فيها فأتاها على غير وجهها عمدا فهو محتاج إلى التوبة منها. أو أمور لم يعرف وجه الهداية فيها علما ولا عملا ففاتته الهداية إلى علمها ومعرفتها وإلى قصدها وإرادتها وعملها. أو أمور قد هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها. أو أمور قد هدي إلى أصلها دون تفاصيلها فهو محتاج إلى هداية التفصيل). فالهداية عنوان الثبات والاستقامة على دين الله ومن حرم الهداية ضل الطريق وتنكب عن الجادة وكان من أهل الغواية.

ومما يؤسف له أن كثيرا من المسلمين تركوا التدين لما أقاموا في بلاد الكفر متأثرين بالمظاهر المادية والحضارة الزائفة ومنهم من انسلخ عن دينه بالكلية والعياذ بالله.

والمؤمن إذا كان حريصا على سلامة دينه وبقاء إيمانه كما يحرص على عمارة دنياه وأشد وصدق مع الله وتعاطى الأسباب النافعة فإن الله سيحفظ دينه وييسر أمره ويثبته على الصراط المستقيم ويختم له بخير مهما كثرت العوائق في طريقه وأطلت عليه الفتنة بصنوفها قال تعالى: (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ). ﴿٢٧ إبراهيم﴾






علاج الفتور

قد يكون المؤمن العامل من الدعاة أو طلاب العلم أو غيرهم نشيطا ومتحمسا في بداية استقامته وتوبته وتوجهه إلى الخير ثم قد يحصل له شيء من الخمول والفتور فيضعف ويتراخى ويكسل عن الطاعة وقد ينقطع عن الخير بالكلية عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ، فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي؛ فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَقَدْ هَلَكَ). رواه أحمد. فينبغي على المؤمن أن يفقه هذه المسألة ويتبصر فيها حتى لا يفقد دينه وهو لايشعر وهي مسألة دقيقة وغاية في الخطورة يحتاج إليها كل من سلك طريق الاستقامة وكان مطلب الثبات على الدين نصب عينيه.

ومظاهر الفتور:

١- التكاسل عن أداء الصلاة وغيرها من العبادات.

٢- الإعراض عن تلاوة القرآن وحفظه.

٣- الانقطاع عن مجالس العلم والذكر والإيمان.

٤- ترك المشاركة في الدعوة إلى الله وأعمال الخير.

٥- الشعور بالانقباض وكتمة الصدر وكثرة اللهم.

٦- التجرؤ على فعل المعاصي والحنين إلى الماضي السيئ.

٧- وقوع الوحشة في العلاقات الإنسانية وكثرة لمشاكل.

والفتور على حالتين:

الأولى: أن يحصل للمسلم خمول في أداء العبادة وثقل في فعل النوافل وملل في طلب العلم والبرامج الجادة ويصبح يميل إلى الراحة والدعة واللهو والبعد عن المسؤولية فهذه الحالة طبيعية وينبغي على المسلم أن يتعامل مع نفسه بكل هدوء وثقة وسياسة ويجعل اهتمامه من الدرجة الأولى في المحافظة على الفرائض ثم يتدرج بها للوصول إلى المستوى الأعلى عن طريق التزود من النوافل شيئا فشيئا ولا يسمح لنفسه النزول إلى المستوى الأدنى قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن النفس لها إقبال وإدبار فإذا أقبلت فخذها بالعزيمة والعبادة وإذا أدبرت فأقصرها على الفرائض والواجبات). وقال ابن القيم: (فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لا بد منه فمن كانت فترته إلى




مقاربة وتسديد ولم تخرجه من فرض ولم تدخله في محرم رجى له أن يعود خيرا مما كان قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه إن لهذه القلوب إقبالا وإدبارا فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض).

الثانية: أن يتدنى مستواه إلى درجة أن يترك بعض الفرائض ويفعل بعض الكبائر ويتساهل في مصاحبة أهل الفسق ويقسو قلبه ويصغي إلى كلام أهل الشبهات والضلال ويتتبع الرخص في المسائل فهذه حالة مرضية تنبئ عن الخطر ويجب على المؤمن حينئذ أن يعلم أنه على شفا هلكة وأن يسعى جاهدا لإنقاذ نفسه بأسرع وقت وإلا انتهى به المطاف إلى الإنتكاسة والعياذ بالله.

وهناك أسباب كثيرة توقع المرء في الفتور من أهمها:

الأول: ديني فقد يكون المرء حينما استقام لم يتلق منهجا تربويا كاملا في العلم والعمل والاعتقاد أو تكون هدايته على يد أهل البدع ولم ينشأ على السنة والمعتقد الصحيح أو قد يكون أخذ الدين بشدة وغلو في العبادة والسلوك والنظر إلى المجتمع والحكم على الآخرين فإذا ذهب حماسه انحرف ولم يقو على المواصلة أو إذا تلقى هزة عنيفة تفلت من الإستقامة لأنه لم يبن تدينه على أصول ثابتة. قال عمرو بن قيس الملائي: (إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنة والجماعة فارجه وإذا رأيته مع أهل البدع فايئس منه فإن الشاب على أول نشوءه).

الثاني: نفسي فقد يبتلى الإنسان ويصاب بمرض نفسي كالوسواس أو الاكتئاب أو الرهاب ومع الإهمال يشتد ذلك عليه حتى يؤثر على دينه ويصيبه الفتور وإذا طال به الأمر ربما يؤدي به إلى ترك التدين مطلقا.

الثالث: اجتماعي فقد يكون يعاني من مشكلة إجتماعية كأن يكون أعزبا بحاجة إلى الزواج أو حصل له طلاق ولا يزال يرتبط عاطفيا بشريكته أو امرأة ترملت بموت زوجها وحصل لها فراغ شديد أو غير ذلك فتستولي هذه المشكلة على تفكيره وتشغل باله مع فقر رغباته الفطرية وفي بداية الاستقامة ينشغل بالطاعة فإذا ذهب الحماس والنشاط ظهرت المشكلة وأثرت على مستواه وربما صرفته والعياذ بالله عن الاستقامة.

الرابع: بيئي فقد يلتحق بالصالحين أول الاستقامة مما يعينه على صلاحه ولكنه يبتعد عن البيئة الصالحة قبل أن ينضج دينيا ويصلب دينه ويعود إلى البيئة الفاسدة وأصحاب السوء فيحصل له فتور كبير ويتصل بمن يذكره بماضيه الأسود فيحن له وتكثر همومه ووساوسه ويقل إيمانه وقد يؤدي ذلك إلى انتكاسته ولهذا قال النبي ﷺ: (إِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَةَ). رواه أبو داود.




الخامس: اقتصادي فقد يكون فقيرا معدما أو يكون غنيا فتمر به ضائقة مادية وظروف صعبة فيتطلب ذلك منه صرف الجهد الأكبر في كسب عيشه ورفع الفقر عن نفسه فيبتعد عن طلب العلم ومجالس الإيمان جريا وراء لقمة العيش ولا يستطيع أن يوفق بين دنياه ودينه ويذهب يومه كله في طلب الدنيا مما يؤثر على إيمانه ويوقعه في الفتور.

ومن أخطر ما يوقع الإنسان في الفتور ويؤدي إلى انتكاسته تسلط الشيطان عليه ووسوسته له بالوساوس المؤذية. فالشيطان يستغل فترة ضعف الإنسان وتذبذبه واضطرابه وصراعه مع نفسه ونشاطه في الطاعة حين اجتماعه بإخوانه وفتوره حال انفراده فيقنعه بأنه لم يستفد في سلوك طريق الصلاح ولم تصلح حاله أو أن ذلك أثر على دنياه أو أنه فاسد القلب لا يتأثر بالخير وإن تظاهر به أو يقنطه من رحمة الله ويوحي له أنه غير مؤمن أو منافق وخاتمته النار وهكذا تتنوع مكايد الشيطان ووساوسه أعاذنا الله منه.

ويجدر التنبيه هنا على مسألة مهمة وهي أن كل امرئ كان له ماضي سيء وأحوال مخالفة للشرع وإدمان للكبائر زمنا طويلا ثم تاب واستقام فإنه معرض في أي وقت للانتكاسة إذا أصابته هزة عنيفة أيا كانت إلا الصادق في إيمانه وهذا أمر مشاهد وهذه من حكم الابتلاءات والعقبات قال ابن القيم: (وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحكم مالا يعلم تفصيله إلا الله وبها يتبين الصادق من الكاذب فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله ويلقى نفسه بالباب طريحا ذليلا مسكينا مستكينا كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه البتة ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له لا بسبب من العبد وإن كان هذا الافتقار من أعظم الأسباب لكن ليس هو منك بل هو الذي من عليك به وجردك منك وأخلاك عنك وهو الذي يحول بين المرء وقلبه). ولذلك يتطلب الأمر منه بذل جهد أكبر من غيره في إصلاح نفسه وتربيتها على الطاعة وتعاطي أسباب الثبات والبعد عن المهلكات.






وعلاج الفتور في هذه الأمور:

الأول: أن يسأل الله بصدق وإخلاص إصلاح حاله ويكثر من التضرع ومناجاة الله ويداوم على ذلك ويتخير الأوقات والأماكن الفاضلة ومن ألح على الله وطرق بابه فتح عليه ورفع ما به وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ).

الثاني: أن يتفقه في دين الله القدر الذي يرفع الجهل عنه ويكشف الشبهات ويدفع الوساوس والخطرات ويحميه من الشهوات قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ).﴿٢٨ فاطر﴾

الثالث: أن يحرص على الرفقة الصالحة والدخول في البرامج الإيمانية التي تصلح قلبه وتحفظ دينه وتقوي نشاطه في الخير وإذا لم تسمح ظروفه بذلك فليتواصل معهم عن طريق الإنترنت وغيرها من الوسائل العصرية وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً).

الرابع: أن يبتعد عن البيئة الفاسدة وأهل الشهوات بكل وسيلة ولذلك أرشد الشارع الحكيم التائب من المعصية بتغيير بيئته والانتقال من مكان المعصية والغفلة إلى مكان الطاعة والاستقامة كما في حديث أبي سعيد الخدري في قصة الرجل الذي قتل مئة نفس ثم سأل رجلا عالما عن صحة توبته فقال له: (نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوْءٍ). متفق عليه.

الخامس: أن يجاهد نفسه في التخلص من الذنوب الكبار والمداومة على الصغار ويدرك خطرها العظيم في تثبيت الفتور عن الفرائض والكسل عن الطاعة وتزيين الشهوات وفتنة القلب والإعراض عن الحق قال تعالى: (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ).﴿١٤ المطففين﴾ وقال الحسن البصري: (هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت).

السادس: أن يحرص على علاج المشكلة والحالة التي ألمت به من أول الأمر ولا يهملها حتى تتفاقم وينبغي له إذا شعر ببداية التغير والفتور البحث عن الأسباب وإيجاد الحلول لذلك.

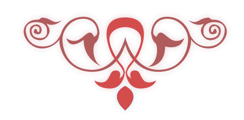
السابع: أن يعرض مشكلته على أهل الاختصاص من العلماء وغيرهم ويتواصل معهم حتى يناقشوا حالته ويشخصوها ويوجدوا الحلول المناسبة لها ويرفعوا من معنوياته ومستواه النفسي بإذن الله.




الثامن: أن يتعاطى أسباب زيادة الإيمان وصلاح القلب ورقته من الذكر والتوبة وتلاوة القرآن وزيارة القبور ومدارسة السيرة وغير ذلك قال تعالى: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ). ﴿١٠٢ النحل﴾

التاسع: أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويستعيذ من شر الشيطان وشركه ويوقن أن الشفاء بيد الله وأن الله قادر على إصلاح حاله في أي وقت وإنما الخلل أتى من جانبه وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء فليحسن الظن بربه ويعظم الرجاء به.

العاشر: أن يشحذ همته ويقوي عزيمته بالنظر في سير السلف الصالح والتأمل في أحوالهم الصالحة واجتهادهم العظيم في طلب العلم ونشر السنة وكثرة النوافل وبذل النصيحة للمسلمين فإن ذلك يطرد الفتور والكسل ويشجع على الحماس والاجتهاد في الأعمال الصالحة.






حقيقة الولاية الشرعية

اعلم أن منزلة الولاية من أشرف المقامات في الدنيا وتفسيرها الثابت في الكتاب والسنة لزوم الاستقامة في القلب والجوارح وسلوك طريق الطاعة واتباع السنة ولها شرطان ثبوت الإيمان وحصول التقوى قال تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ). ﴿٦٣ يونس﴾ قال ابن زيد في قوله: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ): (من هم يا رب؟ قال: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ). قال: أبى أن يتقبل الإيمان إلا بالتقوى). وقال الطبري: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: الولي أعني (ولي الله) هو من كان بالصفة التي وصفه الله بها وهو الذي آمن واتقى كما قال الله: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ). رواه البخاري. فدل القرآن والسنة على أن الولي في دلالة الشرع هو من آمن بالله واتبع شرع رسوله ﷺ فحسب ولا يطالب بأمور أخرى قال ابن تيمية: (والولاية هي الإيمان والتقوى المتضمنة للتقرب بالفرائض والنوافل). وقال ابن القيم: (فالولاية هي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه).

وليس من شرط تحقق الولاية حصول الكرامة كما يدعيه الصوفية لأن الشارع لم يشترط هذا الأمر المحدث ولأن تحقق الكرامة لشخص معين أمر ظني يختلف الناس في ثبوته وتفسيره لا سيما في الأزمان المتأخرة التي كثر فيها الكذب وقلة الأمانة في نقل الأخبار وإنما الولاية الحقة هي الاستقامة على الشرع ظاهرا وباطنا كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). ﴿١٣ الأحقاف﴾ وقال ابن تيمية: (إنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة. فلم يكرم الله عبدا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته).

وكل المسلمين داخلون في مطلق الولاية ولكنهم يتفاوتون في درجة الولاية بحسب أعمالهم وإخلاصهم وتقربهم لله فمن كان أطوع لله وأشد اتباعا لرسول الله كان أشد ولاية لله ويتولاه الله ويحبه ويقربه على حسب عمله وتقواه ولا ولاية من غير علم نافع وتقوى وعمل صالح قال تعالى: (إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ). ﴿١٩٦ الأعراف﴾ وقال تعالى: (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). ﴿٢٥٧ البقرة﴾ قال السعدي: (فالمؤمنون الصالحون لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر تولاهم اللّه ولطف بهم وأعانهم على




ما فيه الخير والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه كما قال تعالى: (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)﴿٣٨ الحج﴾). وعن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي (يَعْنِي فُلَانًا) لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ؛ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ). متفق عليه.

ولا صحة لما يروجه الصوفية من إثبات الولاية لأقطابهم ورؤسائهم بناء على وقوع الخوارق لهم فيزعمون أن فلانا ولي عظيم من الأقطاب صاحب كرامات ومكاشفات وهو لا يعرف أبدا بالاستقامة على الشرع ولا يعرف بلزوم التقوى ولا يعرف باتباع السنة ولم يشتهر بالعلم الصحيح وهذا مذهب باطل أنكره أئمة السلف وذموه بشدة قال الشافعي: (إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة). فمن عرف بالبدعة ومخالفة السنة وترك الاستقامة فليس من أهل الولاية والكرامة بل هو من أهل الضلالة والغواية قال ابن تيمية: (وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان. فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ).﴿٦٣ يونس﴾).

وليس كل من ظهرت له أمور خارقة للعادة يكون وليا من أولياء الله بل قد يكون عدوا من أعداء الله توحي له الشياطين لفتنة الخلق وصدهم عن الحق واستدراجا له في الباطل قال ابن تيمية: (في أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ولكن ليس بمتبع للرسل ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين قال تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ).﴿٢٢٣ الشعراء﴾ وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن قال الله تعالى: (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ). ﴿٣٦ الزخرف﴾).

ولا يشرع طلب الكرامات والتفاخر والتكاثر بها ولا ينبغي للمؤمن أن يلتفت قلبه ويتشوف إليها لأن الله لم يشرع ذلك ولأنه لم يرد عن النبي ﷺ طلبها من الله ولم يرد في النصوص الشرعية




ما يدل على أن الكرامات من المراتب الشرعية وإنما ورد في النصوص التصديق بوقوعها ولم ينقل عن الصحابة وأئمة السلف أنهم يسألون الله حصول الكرامة في الدنيا وإنما المشروع للمؤمن طلب الهداية والسداد والتزود من العمل الصالح وسؤال الله العفو والعافية والنجاة من النار. وليس في النصوص ما يدل على أن الولي الذي يجري الله على يديه كرامة أفضل من الولي الذي ليس له كرامة.

وقد يجعل الله الكرامة للرجل الموحد الصالح لحكمة تسليته وتثبيته على الحق لحاجته أو تكون رفعة له في الدنيا لهداية الخلق قال ابن تيمية: (مما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته. ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة. بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة). فيشكر الولي الله على هذه النعمة ويسأل الله الإخلاص ويخفيها ولا يظهرها للناس خشية الافتتان به والغلو فيه فيدخله العجب ويفسد عمله وينحرف عن مقتضى الشرع قال أبو الفضل التميمي في اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل: (وكان يذهب إلى جواز الكرامات للأولياء ويفرق بينها وبين المعجزة. وذلك أن المعجزة توجب التحري إلى صدق من جرت على يده. فإن جرت على يدي ولي كتمها وأسرها وهذه الكرامة وتلك المعجزة. وينكر على من رد الكرامات ويضلله). ومع ذلك فقد يطلع الله بعض الناس عليها لحكمة اتفاقا بغير قصد. وقد كان السلف الصالح يخفون أعمالهم وحسناتهم عن الخلق ولا يتزينون بها لأنهم يدعون إلى الله ولا يدعون إلى أنفسهم قال تعالى: (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ). ﴿١٠٨ يوسف﴾ وقد أكثر الصوفية المتأخرون من حكاية الخرافات والأكاذيب في كرامات أوليائهم نصرة لمذهبهم وجعلوها أمارة على الإمامة في الدين قال ابن الجوزي: (قد لبس إبليس على قوم من المتأخرين فوضعوا حكايات في كرامات الأولياء ليشيدوا بزعمهم أمر القوم والحق لا يحتاج إلى تشييد بباطل. فكشف الله تعالى أمرهم بعلماء النقل). ولم يكن السلف المتقدمون يعتنون بهذا الأمر ويتكلفون في تتبع الكرامات والركون إليها وإنما تقع في كلامهم عرضا وجل اهتمامهم في معرفة الحق والعمل به وترك الباطل وأهله.

وأهل السنة يؤمنون بالكرامات الثابتة قال ابن تيمية: (ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها وعن صدر هذه الأمة




من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة). ولكن موقفهم تجاه الكرامات متوسط موافق للشرع:

(١) فيشترطون أن يكون الولي متبعا للشرع ظاهرا وباطنا.

(٢) ولا يصدقون بالأكاذيب والخرافات.

(٣) ولا يبنون الأحكام الشرعية على الكرامة.

(٤) ولا يلتفتون إلى الكرامة إذا كانت مخالفة للأصول الشرعية.

قال ابن تيمية: (القول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سببا لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها. فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية).

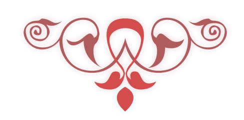
أما الصوفية والرافضة فغلو في باب الكرامات والخوارق حتى صارت الكرامات بوابة للشرك والبدعة وتقديس الطواغيت الذين يصدون عن عبادة الله. ومن غلوهم في هذا الباب أنهم أنزلوا الولي منزلة النبي فاعتقدوا عصمته وأطاعوه في كل ما يدعيه وعملهم من جنس عمل اليهود والنصارى الذين ذمهم الله بقوله: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ).﴿٣١ التوبة﴾ وروي في جامع الترمذي عن عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ. فَقَالَ: يَا عَدِيّ اطْرَح عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٍ: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ). قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُم، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ). وقال ابن تيمية: (كرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول ولا تدل على أن الولي معصوم ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله. ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيرهم فإن الحواريين مثلا كانت لهم كرامات كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم كما يستلزم عصمة الأنبياء فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون وهذا غلط).

ودلت نصوص الكتاب والسنة وآثار سلف الأمة على الفرق العظيم بين (الولاية الشرعية) التي يتحلى بها أولياء الرحمن الموافقة لهدي النبي وأصحابه في تحقيق التوحيد واتباع السنة وتعظيم شعائر الدين وبين (الولاية الشيطانية) التي يتحلى بها أولياء الشيطان المخالفة لهدي النبي وأصحابه في تزيين الشرك والبدعة والخرافات والاستهانة بشعائر الدين والغلو في المشايخ قال ابن تيمية:




(فمن لم يكن له مصدقا فيما أخبر ملتزما طاعته فيما أوجب وأمر به في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة التي على الأبدان لم يكن مؤمنا فضلا عن أن يكون وليا لله ولو حصل له من خوارق العادات ماذا عسى أن يحصل. فإنه لا يكون مع تركه لفعل المأمور وترك المحظور من أداء الواجبات من الصلاة وغيرها بطهارتها وواجباتها إلا من أهل الأحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله والمقربة إلى سخطه وعذابه).

والحاصل أن طريق الولاية الشرعية هو التحلي بالإيمان والتقوى بالعمل بالوظائف الشرعية الثابتة في القرآن والسنة الصحيحة من السنن والفرائض ولا مدخل للخوارق والمنامات والكشوفات في هذا الأمر.






منهج الصوفية في تزكية النفس

لم يعتمد الصوفية في باب تزكية أنفسهم وتربيتها على الكتاب والسنة وآثار الصحابة وإنما اعتمدوا على المحدثات والخرافات المخالفة للسنة. ولا سبيل لنزكية النفس إلا عن طريق الرسل قال ابن القيم: (وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه فالرسل أطباء القلوب فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم والتسليم لهم والله المستعان). فمن سلك طريقا في تزكية نفسه غير طريق الرسول ﷺ فهو عليل لا يشفى أبدا وضال لا يهتدي أبدا.

وقد بدأوا طريقتهم بالفكرة في الخطرات والوساوس المبنية على معاني محدثة وزائدة على المعاني الشرعية وتشديدات لم ترد في الشرع ثم تطور الأمر عندهم إلى سلوكيات وأوراد ورقص وتجرد عن الحق وعكوف واعتكاف وتعظيم وتقرب بالمشاهد ثم دخلوا في طريق فلسفي بعيد عن حقيقة الإسلام وزاد انحرافهم وبعدهم عن منهج النبي ﷺ وأصحابه وقد أنكر مسلكهم أئمة السنة ولم يلتفتوا إلى زعمهم في نفعها قال البرذعي في سؤالاته لأبي زرعة الرازي: (شهدت أبا زرعة سئل عن الحارث المحاسبي وكتبه؟ فقال للسائل: إياك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغني عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عبرة. قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة. بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم فأتونا مرة بالحارث المحاسبي ومرة بعبد الرحيم الديبلي ومرة بحاتم الأصم ومرة بشقيق البلخي. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع). وقال الخطيب البغدادي: (وكان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره في الكلام وتصانيفه الكتب فيه ويصد الناس عنه). وفسر ابن كثير موقف أحمد بن حنبل من المحاسبي بقوله: (بل إنما كره ذلك لأن في كلامهم من التقشف وشدة السلوك التي لم يرد بها الشرع والتدقيق والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ولهذا لما وقف أبو زرعة الرازي على كتاب الحارث المسمى بالرعاية قال: هذا بدعة). فكل سلوك أو تربية يبنى على غير الكتاب والسنة فبدعة قال ابن القيم: (من أحالك على غير أخبرنا وحدثنا فقد أحالك إما على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي فليس بعد القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا شبهات المتكلمين وآراء المنحرفين وخيالات المتصوفين وقياس المتفلسفين ومن فارق الدليل ضل عن سواء السبيل ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة).




ومن الوسائل المحدثة في تزكية النفس:

الأولى: الخلوة والاعتكاف في الغيران والجبال: فإنه عمل محدث لم يكن النبي ﷺ يعتكف إلا في المسجد أما تحنثه في غار حراء فقد كان قبل البعثة وقد تركه رسول الله ﷺ بعد البعثة ولم يكن يفعله أحد من أصحابه واتفق أهل السنة على عدم مشروعيته قال ابن تيمية: (فإنما علينا أن نطيع الرسول فيما أمرنا به ونقتدي به بعد إرساله إلينا. وأما ما كان قبل ذلك مثل تحنثه بغار حراء وأمثال ذلك فهذا ليس سنة مسنونة للأمة فلهذا لم يكن أحد من الصحابة بعد الإسلام يذهب إلى غار حراء ولا يتحري مثل ذلك فإنه لا يشرع لنا بعد الإسلام أن نقصد غيران الجبال ولا نتخلي فيها بل يسن لنا العكوف بالمساجد سنة مسنونة لنا. وأما قصد التخلي في كهوف الجبال وغيرانها والسفر إلى الجبل للبركة مثل جبل الطور وجبل حراء وجبل يثرب أو نحو ذلك فهذا ليس بمشروع لنا بل قد قال ﷺ: ((لَا تُشَدُّ اَلرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ)).

الثانية: شغل الأوقات بصلوات وأوراد محدثة: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ). متفق عليه. وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قال ﷺ: (لَا تَخْتَصُّوا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ بِقِيامٍ مِن بَيْنِ اللَّيَالِي، وَلا تَخُصُّوا يَومَ الجُمُعَةِ بِصِيامٍ مِن بَيْنِ الأيّامِ، إلّا أَنْ يَكُونَ في صَوْمٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ). رواه مسلم. ومما أحدثه الصوفية في التزكية بالأذكار البدعية وتولعوا فيه استغراقهم في الذكر المفرد (هو ، ياهو ، إلا هو). فإنه ذكر محدث وناقص المعنى لا يصح التقرب به قال ابن تيمية: (الشرع لا يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا مثل: (لا إله إلا الله). ومثل (الله أكبر). ومثل (سبحان الله والحمد لله). ومثل (لا حول ولا قوة إلا بالله). ومثل (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ). (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ). (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ). (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ). فأما (الاسم المفرد) مظهرا مثل: (الله ، الله). أو مضمرا مثل (هو ، هو). فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة. ولا هو مأثور أيضا عن أحد من سلف الأمة ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين. وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر (الاسم المفرد) للخاصة وذكر (الكلمة التامة) للعامة. وربما قال بعضهم: (لا إله إلا الله) للمؤمنين، و(الله) للعارفين و(هو) للمحققين. وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو في جماعته على (الله الله الله) أو على (هو) أو (يا هو) أو (لا هو إلا هو)).

الثالثة: السماع الملحن والضرب بالدفوف: عمل محدث اشتهر به الفساق قال الشافعي: (تركت بالعراق شيئا يقال له التغبير أحدثه الزنادقة ويصدون الناس عن القرآن). وقال أبو الحارث: سألت




أبـا عبـد الله (أحمد) عن التغبير وقلت: إنـه ترق عليه القلوب. فقال: (هو بدعــة). وقال ابن تيمية: (عـرف بالاضطـرار من دين الإسـلام أن النبـي ﷺ لم يشـرع لصالحي أمته وعبادهـم وزهادهم أن يجتمعوا على اسـتماع الأبيات الملحنة مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب أو الدف. كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة لا في باطن الأمر ولا في ظاهره ولا لعامـي ولا لخاصـي ولكن رخص النبي ﷺ في أنواع من اللهو في العرس ونحوه كما رخص للنسـاء أن يضربـن بالدف في الأعراس والأفراح. وأما الرجـال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ولا يصفق بكف).

الرابعة: الرقص والاضطراب عند سـماع الذكر: فإنه دخيل على ديننا وليس له أصل في الشـرع ولا يعرف عن السـلف الصالح ولا يليق بالذكر إلا الخشـوع والوقار وشـدد الإمام مالك في إنكاره قـال القاضي عياض: (قال المسـيبي: كنا عند مالك وأصحابه حولـه فقال رجل من أهل نصيبين: يا أبـا عبد الله عندنا قوم يقال لهـم الصوفية يأكلون كثيرا ثم يأخذون في القصائد ثم يقومون فيرقصون. فقال مالك: الصبيان هم؟ قال: لا. قال أمجانين؟ قال: لا قوم مشايخ. قال مالك: ما سمعت أن أحدا من أهل الإسلام يفعل هذا).

الخامسـة: السياحة في الفلوات وهجر الجمع والجماعات: عمل محدث من أفعال الرهبان نهى عنه الشرع ولم يأذن به إلا حال الفرار من الفتن والسياحة المشروعة في الدين هي الجهاد أما السياحة المحدثة التي أحدثها المتصوفة فليست من هدي النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. قال ابن تيمية: (وأما السـياحة التي هي الخروج في البرية لغير مقصد معين فليسـت من عمل هذه الأمة ولهذا قال الإمام أحمد: (ليسـت السياحة من الإسـلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين) مع أن جماعة من إخواننا قد ساحوا السياحة المنهي عنها متأولين في ذلك أو غير عالمين بالنهي عنه وهي من الرهبانية المبتدعة التي قيل فيها: لا رهبانية في الإسلام).

السادسـة: تصديق المنامات المنكـرة واتباعها والعمل بها: فإنه طريـق محدث ليس له أصل في الشرع فلا يشرع التعويل عليها وبناء الأعمال والأوراد والطرق عليها لأنها ليست دليلا في الشرع قال ابـن تيميـة: (وكثير من المتصوفة يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشـفا وهي خيالات غير مطابقة وأوهام غير صادقة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ ﴿٢٨ النجم﴾). وإنما ورد في الشـرع الاسـتئناس بالرؤى الصالحة في البشـارات والتحذيرات عن عبدالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قـال: قال النبي ﷺ: (أَيُّها النَّاسُ، إنَّه لَمْ يَبْقَ مِن مُبَشِّـرَاتِ النُّبُـوَّةِ إلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا المُسْلِمُ، أوْ تُرَى لَهُ). رواه مسلم.




السابعة: الاحتفال بالأعياد والمناسبات المحدثة: من عيد المولد النبوي ويوم الاسراء والمعراج ويوم عاشوراء وغيرها فكل هذا الأعياد محدثة ليس لها أصل في السنة ولم يكن رسول الله ﷺ يحتفل بها ولا الخلفاء الراشدون ولا الأئمة المتبعون وإنما حدثت بعد القرون المفضلة أحدثها الفاطميون الزنادقة في القرن الرابع. وليس في ديننا احتفال مشروع إلا في عيدين لا ثالث لهما: عيد الفطر وعيد الأضحى عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا. فَقَالَ: مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟ قَالُوا: كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ). رواه أبو داود.

الثامنة: من منهجهم المحدث التقرب لله بالعزوف عن الزواج وذمه واعتقاد أنه يشغل القلب عن الهم بالله ويصرف عن العبادة ومنهم من كان يفعل هذا شهرة لتزكيته بالتصوف وإحسان الظن به وإقبال الخلق عليه وكل هذا المسلك من الرهبانية التي لم يأذن بها الله وهي مخالفة لسنة الرسل صلوات الله عليهم قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً).﴿٣٨ الرعد﴾ ومخالف لهدي النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا: (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ). متفق عليه. ومخالف للفطرة التي جبل الله الخلق عليها قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً).﴿٢١ الروم﴾ وقد أبطل النبي ﷺ هذه البدعة عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النبيِّ ﷺ عن عَمَلِهِ في السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: لا آكُلُ اللَّحْمَ، وقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيهِ. فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوامٍ قَالُوا كَذَا وكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وأَنَامُ، وأَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي). متفق عليه. وقد ذم السلف الصالح العزوف عن الزواج قال أبو بكر المروزي: سمعت أبا عبد الله (الإمام أحمد) يقول: (ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء. النبي ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع. ثم قال: لو كان بشر بن الحارث تزوج لكان قد تم أمره كله. لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ولم يكن كذا ولم يكن كذا. فقال: كان النبي يصبح وما عندهم شيء ويمسى وما عندهم شيء ومات عن تسع وكان يختار النكاح ويحث عليه). وقال المروذي: قلت له (الإمام أحمد): (إن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال لروعة صاحب عيال فما قدرت أن أتم الحديث حتى صاح بي وقال: عافاك الله وقعت في بنيات الطريق انظر ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه). وقال ابن الجوزي: (وقد لبس إبليس على كثير من الصوفية فمنعهم من النكاح فقدماؤهم تركوا ذلك تشاغلا بالتعبد ورأوا النكاح شاغلا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ. وهؤلاء وإن




كانت بهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع تشوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم وإن لم يكن بهم حاجة إليه فاتتهم الفضيلة. ومنهم من قال: النكاح يوجب النفقة والكسب صعب وهذه حجة للترفه عن تعب الكسب. ومنهم من قال: النكاح يوجب الميل إلى الدنيا. فأما جماعة من متأخري الصوفية فإنهم تركوا النكاح ليقال زاهد والعوام تعظم الصوفي إذا لم تكن له زوجة فيقولون ما عرف امرأة قط فهذه رهبانية تخالف شرعنا).

التاسعة: التعبد لله بترك المباحات والتضييق على النفس: فإن هذا مسلك محدث مخالف للشرع ومخالف لهدي النبي ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.﴿٣٢الأعراف﴾ وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا، فِي غَيْرِ مَخِيلَةٍ وَلَا سَرَفٍ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى نِعْمَتُهُ عَلَى عَبْدِهِ). رواه أحمد. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة). وقد ذم السلف الصالح التقلل من الطعام قال عقبة بن مكرم سألت أبا عبد اللّه (الإمام أحمد) فقلت: هؤلاء الذين يأكلون قليلا ويقللون مطعمهم؟ فقال: ما يعجبني سمعت عبد الرحمن بن مهدى يقول: فعل قوم هكذا فقطعهم عن الفرض). وقال ابن الجوزي: (ومن تلبيسه عليهم أنه يوهمهم أن الزهد ترك المباحات. فمنهم من لا يزيد على خبز شعير ومنهم من لا يذوق الفاكهة ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد. وما هذه طريقة رسول الله ﷺ ولا طريقة أصحابه وأتباعهم إنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا فإذا وجدوا أكلوا وقد كان رسول الله وهو أول الزاهدين يأكل اللحم ويحبه ويأكل الدجاج ويحب الحلوى والعسل ويستعذب الماء البارد فإن الماء الحار يؤذي المعدة ولا يروي).

العاشرة: ومما أحدثه الصوفية واتخذوه شعارا لهم لبس الصوف وليس له أصل في السنة ولم يستحبه رسول الله ﷺ ولم يرد فيه فضل في السنة وما روي فيه فموضوع بل ورد أن النبي ﷺ خلع ثوب الصوف عن بدنه لما عرق لرائحته قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (صَنَعْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بُرْدَةً سَوْدَاءَ فَلَبِسَهَا، فَلَمَّا عَرِقَ فِيهَا وَجَدَ رِيحَ الصُّوفَ فَقَذَفَهَا، قَال: وَأَحْسَبُهُ قَالَ: وَقَعَ وَكَانَ تُعْجِبُهُ الرِّيحَ الطَّيِّبَةَ). رواه أبو داود. وقد كان النبي ﷺ لا يتكلف لباسا معينا بل يلبس ما تيسر له من أي قماش من قطن أو كتان أو غيره وكان يحب لبس القطن عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كَانَ أَحَبُّ الثِّيَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَلْبَسَهَا الحِبَرَةَ). متفق عليه. والحبرة ثياب مصنوعة من القطن مزينة تصنع في اليمن. ولم يكن رسول الله ﷺ يتخذ شعارا في لباسه للزهد والنسك إنما كان يلبس من لباس




قومه يوافقهم في عرفهم ولا يتميز عنهم. وقد أنكر السلف الصالح اتخاذ الصوف شعار للزهد والنسك قال أبو العالية لرجل آخر لبس الصوف: (إنما هذه ثياب الرهبان). وبلغ ابن سيرين أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال: (إن قوما يتخيرون الصوف يقولون إنهم متشبهون بعيسى بن مريم وهدي نبينا أحب إلينا وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره). ورأى سفيان الثوري رجلا عليه صوف فقال له: (لباسك هذا بدعة).

الحادية عشرة: العكوف عند أضرحة الأولياء والتبرك بها: فإن هذه بدعة منكرة مغايرة لدين النبي ﷺ وهي من طريقة الوثنيين الذين يعظمون الأحجار والأشجار والصور وقد بالغ النبي ﷺ في النهي عن تعظيم المشاهد كما استفاض عنه في الصحاح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: (لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ). لَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَوْ خُشِيَ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا). متفق عليه. وليس في ديننا إلا تعظيم المساجد والحرمين تعظيما مشروعا موافقا لهدي النبي ﷺ قال تعالى: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ). ﴿١٨ التوبة﴾ وقال ابن تيمية: (لم يقل أحد من أئمة السلف: إن الصلاة عند القبور وفي مشاهد القبور مستحبة أو فيها فضيلة ولا أن الصلاة هناك والدعاء أفضل من الصلاة في غير تلك البقعة والدعاء بل اتفقوا كلهم على أن الصلاة في المساجد والبيوت أفضل من الصلاة عند القبور قبور الأنبياء والصالحين سواء سميت مشاهد أو لم تسم). والمنهج الشرعي تجاه القبور هو زيارتها للدعاء لأهلها والاعتبار بموتهم دون التعلق بها وتعظيمها وتزيينها والغلو في أصحابها وقد دلت النصوص على أن التبرك بالقبور ذريعة إلى الشرك بالله وأما عبادة الأولياء واتخاذهم وسطاء عند الله وطلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات فهذا شرك أكبر مخرج من الملة قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ). ﴿١٨ يونس﴾ وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ). ﴿٣ الزمر﴾

وغاية ما يحتج به الصوفية الدجالون في هذا الباب بأحاديث واهية واستدلالات فاسدة وقصص عن الأولياء منكرة وليس عندهم دليل صحيح صريح قد اعتمده أهل القرون المفضلة الذي أثنى عليهم الرسول ﷺ كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ). متفق عليه. وأمرنا باتباعهم والخير كل الخير في اتباع من سلف والشر كل الشر في ابتداع من خلف قال الإمام أحمد بن حنبل: (ومن رغب عن فعل أصحاب النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار فليس هو من الدين في شيء).




ومن المؤسف أن يكون عقيدة راسخة عند بعض الأجيال المتأخرة أن الإنسان إذا أذنب وفرط في حق الله قصد عتبة الحسين أو مسجد الست زينب فتبرك بها وفرق الصدقات على أهلها وذرف الدمع عندها ثم انصرف كأنه قد غفر له وهذا مشابه لعادة النصارى في طريق توبتهم في اتخاذهم وسطاء من دون الله وكأن من شرط التوبة الصحيحة التبرك بالأولياء وتعظيم المشاهد فهل كان الصحابة يفعلون ذلك؟ وهل كان التابعون وأتباعهم يفعلون ذلك؟.

والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أن الله عَزَّوَجَلَّ بلطفه وكرمه وجوده قد يسر باب التزكية وفتح باب التوبة وجعلها مقبولة في كل زمان ومكان وأطلقها ولم يقيدها بمعظم أو طريقة أو عمل معين اللهم إلا أن تكون توبة خالصة صوابا موافقة للشرع قال تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ). ﴿١٠٤ التوبة﴾ وقال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ). ﴿١٨٦ البقرة﴾ وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْواتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ). متفق عليه. وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ. قَالَ: اللهُ أَكْثَرُ). رواه أحمد.

وثمة شبهة فاسدة يستدل بها أهل هذه الطريقة المحدثة إذا أنكر عليهم ونوصحوا قالوا: وجدنا نفع هذا العمل وبركته وبلغنا عن الولي فلان أنه يزكي هذا العمل ويذكر نفعه وأنه سبب فعال في تفريج الهموم وانشراح الصدر ورفع البلاء وتخفيفه.






وهذا استدلال فاسد لثلاثة أوجه:

الأول: أن الله تعبدنا بطاعته واتباع سنة النبي ﷺ واتباع سنة الخلفاء الراشدين من بعده ولا نفع ولا بركة ولا فلاح إلا عن طريقهم التي زكاها الله وأمرنا بالتمسك بها والله قد أوجب بطاعته دخول الجنة وبمعصيته دخول النار ولم يأمرنا بطاعة أحد سواه لا ولي ولا صديق فمن أطاع الولي في معصية الله والرسول ﷺ فقد غوى وعرض نفسه للنار قال تعالى: (مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا). ﴿٨٠ النساء﴾ وفي صحيح مسلم عن عدي بن حاتم الطائي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فقدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِهِمَا، فقدْ غَوَى، فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ).

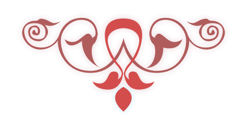
الثاني: أن هذه الراحة النفسية والبركة المزعومة والأنس المتوهم ليست حالة إيمانية صحيحة لأن الشارع لم يرتضيها ويرشد إليها ويزكيها وإنما هي حالة شيطانية فاسدة زينها الشيطان لأتباعه قال تعالى: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ). ﴿٢٢٢ الشعراء﴾ ولو كانت خيرا وزكاء لأرشدنا لها رسول الله ﷺ ولم يسكت عن بيانها لكمال نصحه وأمانته وفصاحته فإنه ما ترك خيرا إلا دلنا عليه ولا شرا إلا حذرنا منه وفي صحيح مسلم عن سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (قِيلَ لَهُ: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيءٍ حَتَّى الخِراءَةَ قَالَ: فَقَالَ: أَجَلْ). فيجب على المؤمن الصادق أن يعتقد أن الخير والفلاح كل الفلاح في اتباع هدي النبي ﷺ وأصحابه.

الثالث: أن حكمك بصحة هذا العمل إنما هو عن طريق الوجد والكشف وهو طريقة الفلاسفة العقلانيين الذين لم يهتدوا بالوحي وليست طريقة معتبرة في الشرع وإنما المعتبر شرعا في صحة العمل أمران الإخلاص في الباطن وموافقة هدي النبي ﷺ في الظاهر قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا). ﴿٢ الملك﴾ قال الفضيل بن عياض: (هو أخلصه وأصوبه. قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا. قيل: يا أبا علي ما هو الخالص الصواب؟ قال: الخالص: أن يكون لله والصواب: أن يكون على السنة). وروي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (لا ينفع قول إلا بعمل ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ولا ينفع قول وعمل ونية إلا بما وافق السنة).

ولسان حال السالك الذي يتعبد لله ويزكي نفسه بأفعال وأقوال محدثة أنه يقول أن طريقتي أفضل من طريقة النبي ﷺ وأصحابه ولو كان صادقا في محبته للنبي ﷺ لهجر كل الطرق الحادثة ولم

يتبع هواه ولزم طريقة النبي ﷺ وأصحابه وانتصر لله وغضب لأمره وكانت محبته وخصومته خالصة لله ولم يخش في الله لومة لائم ولو سخط عليه كل أهل بلده قال تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ). ﴿٥٠ القصص﴾ وقد روي في السـنة لأبي عاصم عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعـا: (لَا يُؤْمِـنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُـوْنَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ). وكل من أعرض عن اتباع الرسـول واتبع آراء المشايخ فليس عمله على هدى رباني وإنما عمله على هوى شيطاني.






المبادرة إلى التوبة

أوجب الله تعالى التوبة على جميع العباد بقوله: (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٣١ النور﴾ فيجب على المسلم أن يتوب إلى الله من جميع الذنوب في سائر الأوقات ولا يتساهل في هذا الأمر العظيم مهما كثرت ذنوبه وعظمت غفلته وضعفت نفسه أمام الشهوات.

والله تعالى يفرح بتوبة عبده العاصي الغافل لأنه يحب الإحسان والعفو والتجاوز والثواب والرحمة فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى راحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فانْفلتتْ مِنْهُ وعلَيْها طعامُهُ وشرابُهُ فأَيِس مِنْهَا، فأَتَى شَجرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، وَقدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلتِهِ، فَبَيْنَما هوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قَائِمة عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنتَ عبْدِي وَأَنا ربُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ). رواه مسلم.

والله تعالى لكمال رحمته وعفوه وجوده يقبل توبة المسيء مهما عظم ذنبه قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ). ﴿٢٥ الشورى﴾ وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ اللهَ تَعَالَى يبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيتُوبَ مُسِيءُ النَّهارِ، وَيبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مغْرِبِها). رواه مسلم.

والتوبة الصادقة نجاة للمؤمن في الآخرة من العذاب قال تعالى: (وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ). ﴿٢٠ المزمل﴾ أما من مات وهو مقيم على المعصية ولم يتب فهو داخل في الوعيد تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له قال تعالى: (إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). ﴿١١٦ النساء﴾ وهذا يدل على خطورة الأمر.






وللتوبة الصحيحة المقبولة عند الله شروط:

الأول: الإقلاع عن الذنب بالكلية أما من حدث نفسه بالتوبة وهو مقيم على الذنب فتوبته باطلة.

الثاني: الندم على فعل المعصية قال رسول الله ﷺ: (النَّدَمُ تَوْبَةٌ). رواه أحمد. أما من فرح بالمعصية وتفاخر بها ولم يندم على تركها فلا توبة له قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (فرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب. وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب).

الثالث: العزم الجازم على عدم الرجوع إلى المعصية أما من كان يراود نفسه بالمعصية متى ما سنحت له الظروف فكاذب في توبته.

الرابع: حصول التوبة في الوقت الشرعي لها قبل خروج الشمس من مغربها عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: (مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تطلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مغْرِبِهَا تَابَ الله عليْهِ). رواه مسلم. وقبل أن تصل الروح الحلقوم ساعة الاحتضار قال تعالى: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ).﴿١٨ النساء﴾ وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ: (إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يقبَلُ توْبة العبْدِ مَالَم يُغرْغِرْ). رواه الترمذي.

ولا تصح التوبة من مظالم العباد إلا برد الحقوق إلى أهلها والتحلل منهم في الدنيا لما روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَانَتْ عِندَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيه، مِنْ عِرْضِهِ أو مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليومَ قَبْلَ أَن لا يَكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ؛ إنْ كَانَ له عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أَخذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ). ومن لم يتحلل ممن ظلمه فعليه القصاص يوم القيامة.

والتوبة الصحيحة تمحو الذنوب وتكفر الخطايا مهما عظمت قال تعالى: (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا). ﴿٧٠ الفرقان﴾ وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قال: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ). رواه مسلم.

وقد حث الله تعالى المؤمنين على التوبة النصوح بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا).﴿٨ التحريم﴾ وسُئل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن التوبة النصوح؟ قال: (التوبة النصوح: أن يتوب الرجل من العمل السيئ ثم لا يعود إليه أبدا). وقال قتادة: (هي الصادقة الناصحة). وقال محمد بن كعب القرظي: (يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيء الإخوان). وقال ابن القيم: (النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:




الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته. والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها. الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عَزَّوَجَلَّ. فالأول يتعلق بما يتوب منه والثالث يتعلق بمن يتوب إليه والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه). فالتوبة النصوح هي التوبة الخالصة الصادقة السالمة من الفساد في القصد والعمل بحيث يتبدل سلوك العبد من الكفر إلى الإيمان ومن المعصية إلى الطاعة ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الشرك إلى التوحيد ومن الفجور إلى العفاف ومن أكل الحرام إلى الحلال ومن البيئة الفاسدة إلى البيئة الصالحة كأنه ولد من جديد أما من خلط بين الحلال والحرام والإساءة والإحسان فليست توبته نصوحا قال ابن تيمية: (فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب فهذه التوبة النصوح وهي واجبة بما أمر الله تعالى؛ ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى ثم إذا عاد استحق العقوبة فإن تاب تاب الله عليه أيضا).

وكان النبي ﷺ يداوم على الاستغفار والتوبة كما ورد في صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (يَا أَيُّها النَّاس تُوبُوا إِلى اللهِ واسْتغْفِرُوهُ فِإني أَتوبُ في اليَوْمِ مائة مَرَّةٍ). فينبغي للمؤمن أن يداوم عليها آناء الليل والنهار.

وإذا اجتمع الذنب مع التوبة الصادقة أحدث الخشوع والإنابة والإقبال على الطاعة وصلاح الحال قال ابن تيمية: (والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك مالم يكن يحصل قبل ذلك ولهذا قال طائفة من السلف: (إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيدخل بها النار). يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة ويفعل الحسنة فيعجب بها فيدخل النار وفي الأثر: (لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم من الذنب وهو العجب). وفي أثر آخر: (لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه).

فيجب على المسلم أن يبادر بالتوبة من الذنوب ولا يؤخر قال ابن القيم: (المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير فإذا تاب من الذنب بقي عليه




توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة وقل أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده: أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم فإنه عاص بترك العلم والعمل فالمعصية في حقه أشد).

ومن المؤسف أن يستمر المؤمن في وحل الذنوب وستار الغفلة مع كثرة المبكيات والمصائب والأحداث من حوله التي تهز الجبال ولكن قلبه قاسي. ومن المؤسف أن يجتهد المؤمن في إصلاح دنياه والسعي وراء جمع المال وآخرته في خراب وضياع وكأنه سيعمر في الدنيا. ألا يمكن أن يستشعر المؤمن قرب أجله ودنو رحيله من الدنيا وهو لم يستعد إن التفكر في هذه القضية كفيلة بأن توقظه وتقلب حياته. وماذا سيجني المؤمن من كثرة الذنوب والغرق في الشهوات إلا الوحشة والعذاب والألم النفسي واللوم بعد الفراغ منها تستوحش روحه التي بين جنبيه. ولو تفكر المؤمن في الموت الذي يخطف أحبابه وأوليائه من بين يديه قد يخطف روحه ويفسد حياته فكيف يستمر في ارتكاب الذنوب والغفلة من غير وعي. ولو تفكر المؤمن في سعة رحمة الله وجوده وكرمه وفرحه بتوبة عبده المؤمن لهرع مسرعا للتوبة والإصلاح ليس كحال المخلوق الذي يسيء مع الظالم. ولو تفكر المؤمن في الأوقات والليالي الذي أضاعها في اللهو والمعاصي لندم عليها في الدنيا قبل أن يندم عليها في الآخرة واستدرك ما بقي منها. ولو تفكر المؤمن في حال الفاسقين والعصاة الذين تلذذوا بالشهوات ثم رحلوا عن الدنيا كيف أعرض الناس عن ذكرهم ولم يبق لهم سيرة حسنة وصيت طيب. ولو تفكر المؤمن في حال الصالحين في الجنة وعلو منزلتهم وعظيم ثوابهم مع مالهم في الدنيا من الثناء الحسن والدعاء لغير حاله وتخلص من الذنوب. ولو تفكر المؤمن في شدة عذاب الله وانتقامه من أهل الكبائر والجرائم الذين ماتوا من غير توبة وهم تحت مشيئته لاجتهد في ترك الكبائر ولم يفرط في طاعة الله. ولو تفكر المؤمن في فضل حسن الخاتمة وأن العبرة بالخواتيم وأن الله إذا أراد بعبده العاصي خيرا وفقه للعمل الصالح لأحسن توبته ولزم الخير. ولو تفكر المؤمن في حقارة هذه الدنيا ودناءتها وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة لما باع دينه بعرض من الدنيا ولاستعد للرحيل وزهد فيها. ولو تفكر المؤمن أن حياة الأحزان والشقاء والذلة سببها الرئيس هو المعاصي وأن الرضا والسعادة والعزة في الاستقامة على الطاعة لغير حياته ولم يبق على معصيته قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا). ﴿١٠ فاطر﴾ فالطاعة تورث العزة والمعصية تورث الذلة قال جعفر الصادق: (من أخرجه الله من ذل المعصية إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال وأعزه بلا عشيرة وآنسه بلا أنيس). وكان من دعاء بعض السلف: (اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك).




وإذا زين لك الشيطان المعصية ووقعت فيها فاحذر من ثلاث خصال:

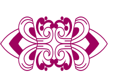
الأولى: أن تكون مستحلا لها قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ). ﴿١١٦ النحل﴾ ومن استحل شيئا حرمه الله كفر.

الثانية: أن تجاهر بمعصيتك أمام الناس وتتباهي بذنبك عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ﷺ قال: (كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ). متفق عليه.

الثالثة: أن تصر على ذنبك وتستخف بعذاب الله وعقوبته قال تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ). ﴿١٣٥ آل عمران﴾ قال ابن تيمية: (ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله يحب العبد المفتن التواب)).

وإذا غلبك الشيطان واستدرجك إلى المعصية وأوقعتك نفسك في الرذيلة فأسر بذنبك ولا تخبرن مخلوقا بمعصيتك وأتبع تفريطك باستغفار وندم وعزم على عدم العود وأشغل نفسك بعمل صالح من صلاة وصدقة وذكر وبر فإن الحسنة تمح السيئة والتوبة تغسل قلبك وجوارحك من درن المعصية والإنابة تطهر روحك من وسخ الغفلة والتائب يسير في طريق الله قال تعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ). ﴿١١٤ هود﴾ وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ). رواه الترمذي.






وموانع التوبة كثيرة من أهمها:

الأول: الجهل بالله قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ﴿١٧ النساء﴾ قال مجاهد: (كل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته). فمن عصى الله فهو جاهل ومن أطاع الله فهو عالم.

الثاني: الغفلة عن ذكر الله قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾. ﴿٥٧ الكهف﴾ قال قتادة: (أي نسي ما سلف من الذنوب). فمن غفل عن ذكر الله حببت له المعصية وبغضت له التوبة.

الثالث: النفس الأمارة بالسوء قال تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾. ﴿٥٣ يوسف﴾ فمن أطاع نفسه الأمارة بالسوء زينت له الفاحشة وأغرته بالمعصية وأبعدته عن التوبة. وقد كان النبي ﷺ يقول في خطبته: (وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا). رواه أبو داود من حديث ابن مسعود.

الرابع: اتباع الهوى قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾. ﴿٢٣ الجاثية﴾ فمن ائتمر بهواه ضل عن طريق التوبة.

الخامس: الافتتان بزخرف الدنيا قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَآبِ﴾. ﴿١٤ آل عمران﴾ فمن سكنت الدنيا في قلبه تحركت جوارحه في المعصية ومنع التوبة لأنها تقطع عليه شهواته.

السادس: طول الأمل قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ﴿١٠ المنافقون﴾ فمن طال أمله أمن العقوبة ومن أمن العقوبة لم يوفق للتوبة والإنابة.

السابع: صحبة الفساق قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾. ﴿٢٨ الكهف﴾ فمن أطاع الفساق زينوا له الشهوات وبغضوا له الطاعات وصدوه عن التوبة.






والشيطان له مداخل خطيرة على المؤمن في باب التوبة:

الأول: تخدير العاصي بتسويف التوبة إلى آخر عمره وتأجيلها إلى المشيب فيلقى في روعه الأماني الكاذبة بأنه ما يزال في ريعان الشباب فليهنأ وليستمتع بالمعاصي ثم يتوب وهذه الحيلة الفاسدة خطيرة لأنه إذا أجل التوبة وطال زمانه في المعصية شق عليه تركها وفراقها لأن نفسه ألفتها وأدمنتها. وأمر آخر أنه ربما عرض له المرض أو هجم عليه الموت وهو غارق في المعصية فيحال بينه وبين المعصية ويموت على المعصية ويبعث عليها.

الثاني: توبتك ناقصة لا تصح فإما أن تتوب من جميع الذنوب لتصح توبتك أو تترك التوبة نهائيا وهذه شبهة باطلة لأن توبة المؤمن من بعض الذنوب مع إصراره على ذنب آخر تصح لعموم الأدلة فلكل ذنب توبة خاصة به ولم يرد في النصوص ما يدل على أن التوبة لا تصح إلا إذا استغرقت جميع الذنوب وهذا مذهب جمهور الفقهاء.

الثالث: توبتك كاذبة لتكرارك الذنب بعد توبتك كلما تبت أذنبت وقد عالج الشرع هذه الشبهة الفاسدة وأبطلها عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فقالَ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمِ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ ربِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عبدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِرْ لِي ذَنبي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَذْنَبَ عَبدِي ذَنبًا، فعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنبِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ). متفق عليه. فلا يشترط في صحة التوبة عند أكثر أهل العلم عدم الرجوع إلى الذنب الذي تاب منه العاصي ما دامت توبته صحيحة مستجمعة لشروطها فإذا عاود الذنب كانت معصية جديدة ولم تبطل توبته السابقة.

الرابع: أنت ضعيف لا تستطيع أن تتوب وتغير حالك لأنك حينئذ ستخالف التيار وتخالف المجتمع وستمنع فرحة الحياة عن نفسك فستكون منعزلا شاذا عن الناس وهذه الشبهة الشيطانية قد أبطلها الله بقوله: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا). ﴿٧٧ النساء﴾ وعن سهل الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا). رواه البخاري. وبين النبي ﷺ فضل التمسك بالشرع في زمان الفتن. فلا يضر المسلم الصادق ما يفقده من نعيم الدنيا ولهوها وانكفاف الناس عنه لأنها خسارة يسيرة زائلة في مقابل فوز وفلاح عظيم ودائم في الآخرة.

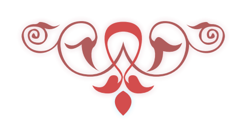



الخامس: أنت منافق لأنك تظهر العمل الصالح والتوبة إذا كنت في مجامع الصالحين وإذا خلوت مع نفسك عصيت ربك ونقضت توبتك وهذه شبهة فاسدة قد أبطلها النبي ﷺ في حديث نافق حنظلة المخرج في صحيح مسلم وقال فيه: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ). ودلت النصوص على أن المؤمن يزيد إيمانه إذا أطاع ربه وينقص إذا عصى ربه.

السادس: أنت عملت ذنوبا عظيمة لا يغفرها الله لك فاستمر في باطلك ولهوك واقطع التفكير في التوبة لأنها لا تنفعك أبدا وهذه شبهة فاسدة خطيرة ناشئة عن القنوط من رحمة الله وقد أبطلها الله عَزَّوَجَلَّ ففي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: (أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً؟ فَنَزَلَ: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ)﴿٦٨ الفرقان﴾ ونزلت: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)﴿٥٣ الزمر﴾).

فرحمة الله واسعة لكل ذنب عظيم وفضله عظيم لكل تائب ومغفرته عامة لكل منيب وما بين العاصي ورحمة الله ومغفرته إلا التوبة الصادقة وحسن الظن بربه قال تعالى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى).﴿٨٢ طه﴾

السابع: أنت مرائي في توبتك إنما قصدت في تركك الفساد وإظهار التوبة الرياء والسمعة الحسنة والمكاسب الشخصية ولم تفعل ذلك خالصا لوجه الله فتوبتك مشكوك فيها وهذه وسوسة خبيثة تعرض لكل من عمل صالحا وأقبل على طاعة ربه وعلاجها في التعوذ من الشيطان الرجيم وتجديد الإخلاص وكثرة ذكر الله والتأمل في فوائد التوبة والتفكر في الثواب العظيم لأهل التوبة والعمل الصالح قال تعالى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).﴿٢٠٠ الأعراف﴾






خاتمة

طريق السلامة في اتباع التوحيد والسنة

لا سلامة للمرء من الضلال والغواية في الدنيا ولا عصمة لأحد من الفتن إلا باتباع الكتاب والسنة ومذهب سلف الأمة قال تعالى: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى). ﴿١٢٤ طه﴾ ولا طريق للجنة ولا نجاة من النار إلا باتباع طريقة النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كما أخبر بذلك النبي ﷺ في حديث الافتراق المحفوظ عند أئمة السنة عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً. قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي). رواه الترمذي. قال ابن تيمية: (الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم). وقال ابن كثير: (كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا). فمن أراد لزوم طريق النجاة والسلامة فعليه بالتمسك بالتوحيد واتباع السنة وليحذر أشد الحذر من الوقوع في فتنتين عظيمتين تذهب بأصل إيمانه أو تضعفه:

الأولى: فتنة الشرك: والمؤمن يحقق التوحيد ويسلم من الشرك بإخلاص جميع العبادات الظاهرة والباطنة لله وحده لا شريك له قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). ﴿٥٦ الذاريات﴾ وقال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ). ﴿١٦٣ الأنعام﴾ وقال تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ). ﴿٥ البينة﴾ وقال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ). ﴿٢ الزمر﴾ وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (كُنْتُ رِدْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ. قَالَ: فَقَالَ: يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ وَمَا حقُّ العبادِ عَلَى اللهِ؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا. قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ. فَيَتَّكِلُوا). متفق عليه. فلا يصرف شيئا من العبادة لغير الله من ولي أو قبر أو نبي أو صنم أو طاغوت فلا يدعو إلا الله ولا يصلي ويصوم إلا لله ولا ينذر إلا لله ولا يتوكل إلا على الله ولا يخاف خوف عبادة إلا من الله ولا يرجو في أمر يعجز عنه المخلوق إلا الله ولا يذبح إلا لله امتثالا لقول الله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). ﴿٣٦ النساء﴾ وقوله تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا). ﴿١٥١ الأنعام﴾ قال ابن تيمية: (كلما




قوي التوحيد في قلب العبد قوي إيمانه وطمأنينته وتوكله ويقينه). وقال ابن القيم: (ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عَزَّوَجَلَّ حرم الجنة على أهله فلا تدخل الجنة نفس مشركة وإنما يدخلها أهل التوحيد. فإن التوحيد هو مفتاح بابها فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به).

الثانية: فتنة البدعة: والمؤمن يحقق السنة ويسلم من البدعة باتباع هدي النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته في سائر أبواب الدين بحيث يكون عمله موافقا لسنة النبي ﷺ ولا يكون مخالفا له امتثالا لقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا). ﴿٧ الحشر﴾ وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ). رواه أبو داود والترمذي. ويتجنب الإحداث والبدعة في الدين في سائر أبواب الدين في الاعتقاد والعبادة والسلوك وغيره بحيث لا يتقرب إلى الله بعمل ليس له أصل في الشرع لأن دين الله توقيفي على الكتاب والسنة لا يتعبد الله إلا بما شرعه الله ورسوله امتثالا لقوله تعالى: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ). ﴿١٥٣ الأنعام﴾ وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ). متفق عليه. وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم). وقال محمد بن سيرين: (كانوا يرون أنه على الطريق ما كان على الأثر). وقال الزهري: (كان من مضى من علمائنا يقولون: الاعتصام بالسنة نجاة).






وست خصال منجيات للمؤمن يوم القيامة:

الأولى: أن يكون موحدا لله مجتنبا للشرك قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ). ﴿٨٢ الأنعام﴾

الثانية: أن يكون متبعا للسنة مجانبا للبدعة قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ). ﴿١٥٣ الأنعام﴾

الثالثة: أن يكون قائما بالفرائض ليس مضيعا لها قال تعالى: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ). ﴿١١٤ هود﴾

الرابعة: أن يكون ورعا سالما من مظالم الناس عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْخَذَ لِأَخِيهِ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ أَخِيهِ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ). رواه البخاري. وقال سفيان الثوري: (إنك أن تلقى الله عَزَّوَجَلَّ بسبعين ذنبا فيما بينك وبينه أهون عليك من أن تلقاه بذنب واحد فيما بينك وبين العباد).

الخامسة: أن يكون هاجرا للكبائر غير مصر عليها قال تعالى: (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا). ﴿٣١ النساء﴾

السادسة: أن يكون مداوما على التوبة كثير الاستغفار قال تعالى: (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ). ﴿٣١ النور﴾

فمن حاز هذه الخصال رجي له خيرا عظيما ولو قصر في بعض العمل ومن فرط في تحصيلها فهو على خطر وشيك ومن وقع في الشرك الأكبر هلك وكان خاسرا يوم القيامة قال تعالى: (إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ). ﴿٧٢ المائدة﴾ فنسأل الله السلامة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وأزواجه الطاهرات.

